
فؤاد مطر
بصراحة
عن
عبد النّاصر
حوار مع
محمد حسنين هيكل
الطبعة الثانية

صدر هذا الكتاب فى بيروت عن « دار القضـــايا »
بتاريخ الأول من يناير (كانون الثانى) ١٩٧٥ ...
وأعيد طبعه فى القاهرة على «مطابع الأهرام التجارية»
خلال شهر فبراير (شباط) ١٩٧٥

فؤاد مطر

بصراحة عن عبد الناصر

حوار مع

محمد حسنين هيكل

دار القضايا

المحتويات


قصة هذا الكتاب

منذ أن عرفت مصر قبل ثلاث عشرة سنة وأنا أستفسر وأستوضح وأسأل وأناقش عن كل حدث إيجابى أو سلبى شهده عصر جمال عبد الناصر ، أو حكمه . وبعد كل استفسار أو استيضاح أو سؤال أو مناقشة كنت أسجل على دفاتر « نوتة » كل ما هو مهم وما لا يجوز فقط الاعتماد على الذاكرة فى شأنه . بالإضافة إلى ذلك كنت أقرأ وأسمع بشغف ما يكتب أو يروى عن تجربة عبد الناصر .

ولأن المرحلة ما بين قيام الثورة وبداية تعرفى على مصر وتداخلى مع المصريين لم أعشها عن قرب ، وإنما من بعيد ، فإننى كنت أحرص على أن أكثر من المناقشات والاستفسارات مع أهل تلك الفترة من المصريين الذين رافقوا الثورة المصرية ساعة بساعة . وكنت أسجل على دفاتر « نوتة » خلاصات لكل المناقشات والاستفسارات .

بعد وفاة جمال عبد الناصر أمضيت فترة أقلب فى هذه الدفاتر أقرأ فيها ما سجلته ، وإذا بصورة غنية لجمال عبد الناصر تنتصب أمامى . صورة فيها أضواء وظلال . فيها انتصارات ونكسات . فيها ما هو عظيم جداً وما كان يجب ألا يحدث .

وقررت أن أحول الملاحظات التى سجلتها على دفاتر « نوتة » إلى كتاب عن عصر جمال عبد الناصر يعالج التجربة من زاوية جديدة . ووجدت نفسى أتوقف عند كل ملاحظة قليلا وأقول أنه قبل أن أكتب من الضرورى أن أستفسر من محمد حسنين هيكل عنها .

لماذا منه فقط ؟

إن محمد حسنين هيكل هو « صحافى العصر » . وهو أحد أبرز الظواهر فى التجربة الناصرية . وكما أن الناصرية هى الرائدة فى مضمار استخدام الانقلاب العسكرى لإحداث ثورة ، فإنها أيضاً الحركة الأولى أو الثورة الأولى فى التاريخ التى اتخذت من صحيفة نوعاً من البديل للحزب ، وهذا ناتج عن ارتباط من نوع

استثنائى بين شخص قائد الثورة جمال عبد الناصر وشخص محمد حسنين هيكل . وقد تحولت « الاهرام » منذ أن تولاها هيكل ، وبفضل العلاقة ذات الطبيعة الخاصة بينه وبين عبد الناصر ، إلى ما يشبه الحزب لعبد الناصر .

ومحمد حسنين هيكل هو الشاهد الوحيد القوى الذاكرة للتجربة الناصرية . هنالك شهود آخرون كثيرون إلا أن الامتياز الذى لهيكل هو أن اقترابه المستمر من عبد الناصر وقراراته واختياراته وتكتيكاته جعل منه شاهداً تاريخياً على أهم تجربة شهدها العالم العربى . . . والعـالم الثالث .

ومحمد حسنين هيكل كان كبير الطهاة فى مطبخ السياسة المصرية فى عصر عبد الناصر ، وكان هو الذى يعد المسرح السياسى لجمال عبد الناصر البطل التراجيدى للظاهرة الناصرية .

ولعل فى هذه الادوار التى مارسها محمد حسنين هيكل الجواب عن لمـاذا عودتى إلى هيكل فى كل إيضاح أو استفسار .

لقد وجدت بالفعل أن كل الملاحظات التى دونتها على دفاتر « نوتة » تحتاج إلى استفسار حولهـا من محمد حسنين هيكل . وليس بالضرورة أن يكون الهدف من الاستفسار تأكيد واقعة أو نفيها ، وإنما المجال رحب جداً . يمكن الهدف أن يكون الاستقصاء عن ظروف أحاطت بقرار اتخذ أو اجراء نفذ . ويمكن الهدف أن يكون مسح الغبار عن خطوات أو قرارات معروفة منها بعض الجوانب ومجهولة الجوانب الاخرى . ويمكن الهدف أن يكون الإجابة عن أسئلة هى فى الواقع اتهامات .

وكنت كلما ألتقى بمحمد حسنين هيكل وأسأله عن واقعة ما ، بعد أن اقلب فى الدفاتر التى سجلت عليها الملاحظات والمعلومات ، اكتشف أن هنالك دائماً الجديد .

. . . إلى أن كان يوم قلت له : إننى أسأل واستوضح وأستفسر . هل توافق على أن نعيد النظر قليلا فى الأمر فتخصص بعض الوقت لمناقشة وقائع ومعلومات ، بل واتهامات أيضاً لعبد الناصر وتجربته . ثم تصدر هذه المناقشة فى كتاب ؟

وأضفت : إن التجربة الناصرية تحتاج إلى مناقشات طويلة . على الأقل يكون هذا العمل معك بداية لهذه المناقشات المطلوبة .

وفى بادئ الأمر تردد هيكل . لكن تردده لم يحملنى على أن أطوى دفاتر « النوتة » الكثيرة التى فتحتها .

وهكذا لم ألتق به مرة إلا وحاولت إقناعه بضرورة المناقشة .

مع بداية صيف ١٩٧٤ كان محمد حسنين هيكل اقتنع بالفكرة . ولمجرد أن أوحى لى بذلك بدأت عملية استقصاء وجدت أنها ضرورية للمناقشة التى سأجريها معه . سألت عشرات الأخوة العرب ، وأستطيع الجزم بأنهم يمثلون الوطن العربى من المحيط إلى الخليج ، عن علامات الاستفهام التى لا زالت ترتسم فى أذهانهم حول عبد الناصر وتجربته ولا يجدون جواباً عنها . ولقد راوحت علامات الاستفهام بين الأمور السياسية والأمور الشخصية .

وقبل أن تبدأ المناقشة واجهتنا مشكلة . أن القلم فى مثل هذه الحال لا يساعد ما فيه الكفاية إلا إذا كان محمد حسنين هيكل سيتحدث بتمهل ويبحث عن الكلمة التى يريد أن يقولها . وأنا بعدما أوحى لى بموافقته على أن تتم المناقشة لمست منه استعداداً لمناقشة فيها الحد الأدنى من التحفظ والتهيب .

ولأن القلم لا يمكن أن يساعد ما فيه الكفاية فإن التسجيل هو الحل الأمثل . لكن محمد حسنين هيكل تردد فى البداية ثم لم يمانع . ثم لمجرد أن بدأت المناقشة أسقط كل التحفظات إلى درجة بدا المسجل فى جلسات المناقشة كما لو أنه وضع خفية عنا .

والحكم على هذه المناقشة الطويلة متروك لمن يقرأها لكننى أجد من حقى أن أقول أنها كانت رائعة . ولقد تألق فيها هيكل ، واكتشفت فيه بعض النواحى التى لم اكتشفها على مدى عشر سنين هى عمر معرفتى به .

إن هذا الكتاب عبارة عن عشرين ساعة من المناقشات المسجلة حول عشرين سنة من جمال عبد الناصر . عبد الناصر يوم كان يفكر فى الثورة والتغيير . وعبد الناصر

يوم قام بالثورة . وعبد الناصر بعد أن رسخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى رحيله المفاجئ يوم ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ .

وهذه المناقشات تمت فى جلسات خلال أيلول (سبتمبر) وتشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٤ . بعضها فى شرفة منزل هيكل المطل على النيل ، وبعضها الآخر تحت شجرة مانغا فى عزبة هيكل فى برقاش على بعد نصف ساعة من القاهرة .

وكانت المناقشات عفوية . يعنى أن محمد حسنين هيكل شاء ألا يستعين بأوراق وتواريخ .

كذلك كانت المناقشات بالعامية ثم صغتها بالفصحى بعد تفريغ الأشرطة التى سجلت عليها هذه المناقشات .

إن محمد حسنين هيكل هو الشاهد التاريخى على التجربة الناصرية . ومن هنا أهمية هذا الكتاب — الحوار .

هكذا تحدث هيكل .

. . . ولقد تحدث فعلا بصراحة .

فؤاد مطر

بيروت — أول كانون الثانى (يناير) ١٩٧٥

الفصل الأول

من اللقاء الأول
إلى ليلة الثورة

فؤاد مطر : كيف تعرفت إلى جمال عبد الناصر ؟

محمد حسنين هيكل :

قبل أى شئ يجب أن أفرق بين التعارف والصداقة . لقد رأيت جمال عبد الناصر للمرة الأولى فى صيف ١٩٤٨ خلال حرب فلسطين . يومها لم يكن هنالك مراسلون صحافيون مع الجيش المصرى الذى ذهب إلى فلسطين لأن وزير الحربية آنذاك الفريق حيدر باشا كان من رأيه ألا يرافق الصحافيون القوات المصرية الذاهبة إلى الحرب ، وأن يكتفى هؤلاء بالحصول وهم فى القاهرة من إدارة الشؤون العامة فى الجيش على البيانات التى تصدرها القيادة . لكننى رفضت بينى وبين نفسى مثل هذا الأسلوب . كان يجب أن أذهب إلى فلسطين بدل أن أبقى فى القاهرة فى انتظار صدور بيانات رسمية . والذى جعلنى أتمسك بضرورة السفر هو أننى قبل ذلك بمدة طويلة رافقت قوات المقاومة التى نفذت عمليات على أرض فلسطين . رافقت جيش اليرموك الرابع ، وقوات الفداء ، وقوات الجهاد المقدس . وهذه المرافقة أمنت لى معرفة مداخل فلسطين ومخارجها وطرقها .

وعلى هذا الأساس انتقلت من القاهرة إلى عمان بالطائرة . ومن عمان استخدمت سيارة نقلتنى إلى القدس ... ومن القدس إلى بيت لحم عن طريق « سور باهر » وطريق المستعمرات « مستعمرة الزراعة » ، ومستعمرة « رامات راحيل » . ومن بيت لحم توجهت إلى الخليل مع القوات التى قادها أحمد عبد العزيز وكانت قوات شبه نظامية . وأتذكر أن كمال الدين حسين كان قائد مدفعية هذه القوات .

وأنا أروى ذلك لأحدد تماماً المنطقة التى التقيت فيها جمال عبد الناصر . كنت كما قلت أتوجه إلى بيت لحم ومنها إلى الخليل عبر « بيت جبريل » و « عراق المنشية » ثم إلى « المجدل » حيث كانت ترابط مجموعات من الجيش المصرى .

وذات يوم من يونيه (حزيران) كنت متوجهاً من القدس إلى المجدل بسيارة

جيب تابعة لقوات أحمد عبد العزيز . فجأة توقفت السيارة قرب « عراق سويدان » حيث تقع مستعمرة صغيرة تدعى « جات » . وهـــذه المستعمرة كبرت بعد ذلك وأصبحت شهيرة فى صنع المـاس وصقله .

بعد توقف السيارة بسبب معركة كانت دائرة آنذاك توجهت نحو « عراق المنشية » مشياً . وفى مركز البوليس هناك عرفت تفاصيل كثيرة . عرفت أن الكتيبة السادسة التابعة للقوات المصرية التى حولت المركز إلى مقر قيادة للمعركة انتصرت بفضل قائدها الذى تمكن من صد هجوم يهودى مباشر كان يستهدف السيطرة على « عراق المنشية » و « عراق سويدان » . وقال لى الضباط والجنود الذين كانوا فى غاية السعادة أن الذى قاد العملية هو الصاغ جمال عبد الناصر أركان حرب الكتيبة السادسة .

وسألت عنه ، وأين هو .

وأجابونى : أنه فى المكان الفلانى من المركز .

ونزلت إلى حيث كان الصاغ الذى قاد عملية ممتازة . ووجدت أمامى شاباً طويل القامة . افترش بطانية وآثار التعب بادية على وجهه . وكان يستعد للنوم .

وقدمنى أحدهم إليه . قدمنى على أساس أننى مهتم جداً بأخبار فلسطين. وكنت يومها أكتب فى « أخبار اليوم » تحقيقات عن فلسطين .

استمرت جلستنا زهاء ثلث ساعة ولم أخرج بنتيجة . رفض الصاغ أن يتحدث . صحيح أنه كان مرهقا جداً وأنه لم ينم منذ خمسة أيام لـكن رفضه كان ناجماً عن غضبه مما تنشره الصحافة المصرية ومن طريقة معالجة الصحف المصرية لحرب فلسطين .

وتركته لأكمل مهمتى المتعلقة بتغطية أخبار الحرب . وشاءت الصدف أن أراه ثانية عند عودتى إلى المنطقة من جديد .

ثم اجتمعنا بعد الهدنة الأولى . وفى هذا الاجتماع لاحظت أنه مهتم بتحقيقات كتبتها من باريس عن الدورة الخاصة التى عقدها مجلس الأمن فى قصر شايو لمناقشة القضية الفلسطينية ووقف إطلاق النار .

وانتهت لقاءاتنا التى فرضتها ظروف الحرب . وبعد حصار الفالوجة لم نعد

نجتمع ، إلى أن التقينا أواخر عام ١٩٤٩ . وهذا اللقاء جاء فى أيام الانقلابات فى سـوريا .

كيف ؟

فى تلك الفترة كنت فى تركيا لتغطية أخبـار الانتخابات . وبعدها انتقلت إلى اليونان لتغطية ذيول الحرب الأهلية . ومن اليونان انتقلت إلى دمشق لأكتب عن الانقلابات التى شهدتها سوريا من انقلاب حسنى الزعيم إلى الانقلاب الذى قام به أديب الشيشكلى مروراً بانقلاب سامى الحناوى .

وبعد أيام من نشر التحقيقات المتعلقة بالانقلابات السورية فوجئت ذات يوم بصلاح سالم يزورنى فى « أخبار اليوم » ومعه جمال عبد الناصر . وكنت اجتمعت فى السابق مرتين بصلاح سالم .

وكان الغرض من الزيارة على ما أذكر هو التحدث معى فى مسألة خاصة بسلاح الحدود ، لأن صلاح سالم بدأ الحديث حول هذه المسألة . ثم تبدل مجرى الحديث وبدأ جمال عبد الناصر يسأل عما جرى فى سوريا . وكان مركزاً على نقاط معينة . سألنى عن شكل الذين قاموا بالانقلابات وعن أهدافهم وكيف يتصرفون وكيف استقبلت الجماهير السورية هذه الانقلابات وهل حدثت اضطرابات ومدى حجمها ... وأسئلة أخرى كثيرة من هذا القبيل .

وخلال الحديث تناولنا بشكل عابر الاجتماعين اللذين تعارفنا خلالهما على أرض فلسطين .

وغادر جمال عبد الناصر وصلاح سالم مكتبى . ومرت فترة طويلة لم نجتمع إلى أن زارنى عبد الناصر يوماً بشكل مفاجئ فى « أخبار اليوم » . كان ذلك بعد عودتى من تغطية أزمة إيران التى بدأت عام ١٩٥١ بقتل رئيس الوزراء على رزم ارا ، وانتهت بظهور الدكتور محمد مصدق ثم سقوطه . وقال لى أنه جاء ليحصل على نسخة من كتاب كنت ألفته وهو بعنوان « إيران فوق بركان » . وقال أنه لم يعثر على نسخة ليشتريها فجاء يطلبها منى . وفى خلال نصف ساعة استغرقتها الزيارة تحدثنا عن إيران وعن أمور كثيرة .

بعد ذلك التقيت جمال عبد الناصر فى منزل اللواء محمد نجيب . كان ذلك يوم ١٨ يوليو (تموز) ١٩٥٢ . ويومها كانت هناك أزمة سببها أن الملك أصدر قراراً بحل نادى الضباط بعدما فازت لجنة إدارة النادى التى تبين أنها مجموعة كان الضباط الاحرار صدروها لخوض الانتخابات . وكان محمد نجيب كبير هذه المجموعة . وتبين أن الضباط الأحرار فضلوا البقاء بعيدين عن الانتخابات والاكتفاء بالمجموعة التى صدروها لأسباب مستقبلية . وكانت الانتخابات عملية اختبار للقوى داخل الجيش .

عندما وصلت إلى منزل محمد نجيب وكان جالساً معه يوسف منصور صديق ، سألته وكنت من المتضايقين لأسلوب حل النادى ، ما الذى ستفعلونه ؟

أجابنى محمد نجيب : سنرفع دعوى أمام مجلس الدولة .

فى هذا الوقت دخل منزل محمد نجيب شخصان . الأول كان جمال عبد الناصر ومعه شاب يرتدى قميصاً أبيض وبنطلوناً رمادياً عرفت فى حينه أنه عبد الحكيم عامر الذى لم أكن قد تعرفت إليه .

وتردد عبد الناصر فى الدخول . ولما كان لا يريد التحدث مع محمد نجيب أمام أحد ، فإنه أشار على نجيب وغادرا المكان معاً يرافقهما عبد الحكيم عامر . وبعد نحو ربع ساعة عادوا .

ودارت مناقشة بينى وبين جمال عبد الناصر . قلت مستفزاً : إذا كان الجيش لم يتمكن من الدفاع بالقدر الكافى عن البلد فعليه على الأقل أن يدافع عن نفسه وعن كرامته .

ورد عبد الناصر : ما الذى يمكن أن يفعله الجيش ؟

أجبته : لا أدرى ، إنما من المهم بعد الذى فعله الملك أن يدافع الضباط عن أنفسهم وكرامتهم .

وقال عبد الناصر : هل يعنى أن يقوم الضباط بانقلابات كتلك التى حدثت فى سوريا ؟

قلت : لا ، أنا لست مع فكرة القيام بانقلاب .

رد عبد الناصر : ما الذى نفعله إذاً ؟

وأتذكر أننى عرضت فكرة ساذجة . قلت له : ما الذى يمنع من أن يتوجه الف ضابط إلى السرايا ، ويكتبوا فى سجل الزيارات أن الموقف تردى وأنه لابد من معالجة هذا الموقف .

وأتذكر أيضاً أن جمال عبد الناصر رد على هذه الفكرة بقوله : هذا سيعتبر عصياناً . وكأننا بهذه الفكرة نقول علانية أننا نحن ضباط الجيش سنقوم بانقلاب .

وعدت أقول لعبد الناصر : أنا شخصياً ضد الانقلاب . ولكن لابد من حدوث شئ .

وأجابنى : أنت تكتب فى السياسة . هل لك أن تحدد لى ما الذى يمكن أن يفعله الجيش .

وكان عبد الحكيم عامر يسمع المناقشة من دون أن يشارك فيها . أما محمد نجيب فقال أنه فى صدد إعداد مذكرة تمهيداً لرفع دعوى لدى مجلس الدولة ، وأن رفع الدعوى سيكلف ثمانية جنيهات .

وأتذكر أنه مد يده إلى جيبه فوجد فيه ستة جنيهات أعطاها لمحمد نجيب .

تحدثنا عشر دقائق بعد ذلك وغادرت منزل نجيب لأركب سيارتى (أوبل كابيتان لونها أسود) وأعود إلى مكتبى . وعلى زاوية الشارع لمحت جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر واقفين كما لو أنهما فى انتظار أحد ، أو فى انتظار سيارة تاكسى .

وقلت لهما : هل تريدان أن أوصلكما ؟

وسألنى عبد الناصر : إلى أين أنت ذاهب ؟

قلت : إلى وسط البلد .

وركب الاثنان سيارتى . عبد الناصر إلى جانبى . وعبد الحكيم عامر فى المقعد الخلفى . ونزلنا من الزيتون حيث منزل محمد نجيب إلى وسط القاهرة .

فى الطريق قال لى عبد الناصر : إنكم تتكلمون . كل واحد منكم يتكلم ، إنما لم يقدم أحدكم حلا . إن الانقلاب غير ممكن . من الذى سيقوم بالانقلاب ؟

بعد نصف ساعة من الكلام قال عبد الحكيم عامر لجمال عبد الناصر : سننزل هنا فى محطة باب الحديد .

لم أكن أتصور أن الشاب الذى لقيته مرات قليلة قبل ذلك والذى يحدثنى الآن يقود حركة سرية داخل الجيش . ولم يدر فى خلدى أن هذا الشاب الطويل القامة ذا الشاربين الرفيعين الذى يرتدى قيصا أبيض وبنطلوناً رمادياً يتحرك بصمت .

لكننى كنت وهو يتحدث ويناقش ألاحظ أن عينيه تلمعان . وكنت ألاحظ أنه يريد أن يسمع أكثر مما يتكلم .

لقد حدث وأنا أوصله مع عبد الحكيم عامر أن قال لى أنه ضحك كثيرا لمنظرى وأنا أحيي الإمام آية الله الكاشانى وهى صورة ضمنتها كتابى « ايران فوق بركان » .. لكنه انتقل إلى الحديث عن الانقلاب وكيف أن الانقلاب سيؤدى بالبلد إلى كارثة .

وفجأة سألنى : هل تظن أن الانكليز سيتدخلون لو حدث انقلاب فى مصر ؟ ولاحظت أنه يصغى باهتمام كلى إلى الجواب .

أجبته أن الانكليز لن يتدخلوا . وعندما سمع هذا الجواب المقتضب أراد المزيد من التفاصيل . وعندها أوردت له ما أتصوره . قلت له أن الانكليز لا يمكن أن يتدخلوا لأسباب عدة منها أنه ليست لديهم قوات كافية للسيطرة على كل المدن المصرية . بالإضافة إلى ذلك أن السفير البريطانى فى اجازة والملحق العسكرى فى اجازة .. حتى أننى عرفت من أحد الاصدقاء أن قائد القوات البريطانية فى الاسماعيلية موجود خارج مصر فى اجازة . إن الموسم هو موسم اجازات . والتدخل يحتاج إلى وقت .

قبل أن ينزل عبد الناصر من سيارتى فى محطة باب الحديد قال لى : من الضرورى أن نكمل الحديث .

قلت : ما رأيك لو نكمله فى مكتبى فى « أخبار اليوم ؟ »

وسألنى : هل عندك تليفون فى منزلك ؟

وأعطيته رقم الهاتف .

كان ذلك يوم ١٨ يوليو (تموز) ١٩٥٢ . وفى اليوم التالى اتصل عبد الناصر هاتفيا وقال : أنا الذى التقاك أمس . هل تذكر ؟

وتقابلنا يوم ١٩ يوليو (تموز) . جاءنى عبد الناصر وبدأ الحديث فى قضايا عادية جداً . حدثنى مثلا عن الصحافة وعن المجلة التى كانوا يصدرونها فى الفالوجة .

وعن فلسطين وعما جرى فى الفالوجة . تحدث لمدة نصف ساعة تقريباً ثم وجه سؤالا شعرت أنه الغرض الأساسى من زيارته لى .

قال : كنا نتحدث أمس عن الانكليز وإمكان تدخلهم . هل يمكن أن تحدد لى بطريقة مرتبة الأسباب التى أوردتها أمس وانتهيت منها إلى أن الانكليز لا يمكن أن يتدخلوا لو حدث انقلاب أو شئ من هذا القبيل فى البلد ؟

وعرضت له ما طلبه . كان ذلك فى وقت مبكر من يوم ١٩ يوليو (تموز) ، وشعرت أن الصلة بيننا بدأت منذ انتهى هذا اللقاء الذى سافرت بعدما أنهيناه إلى الاسكندرية .

فى ذلك الوقت كنت معجباً بنجيب الهلالى الذى كان آخر رئيس وزراء قبل الثورة « عليه القيمة » . وكنت أتردد عليه مع صهره (زوج ابنته) الدكتور محمود محفوظ وزير الصحة السابق ، حيث كنا نتحدث معه فى أوضاع البلد . وهو الذى علمنا تدخين السيجار .

ولقد جئ بنجيب الهلالى رئيسا للوزراء فى ظروف مهمة . بعد حريق القاهرة أقال الملك مصطفى النحاس وأوكل إلى على ماهر تأليف حكومة جديدة . بقى على ماهر شهراً ثم جئ بنجيب الهلالى . بعد مجيئه بدأ الهلالى مطالبة « عبود باشا » بالضرائب المستحقة عليه . ومطالبته كانت ضمن خطة تحرير وتطهير أراد أن ينفذها لكن « عبود باشا » انتصر بعد صفقة مع الياس اندراوس كانت حصة الملك منها مليون جنيه .

ونتيجة لذلك أقال الملك حكومة نجيب الهلالى وجئ بحسين سرى ليؤلف حكومة لم تتمكن من البقاء . ثم أعاد الملك تكليف الهلالى .

وأتذكر أنه بعد قليل من مغادرة جمال عبد الناصر بيتى يوم ١٩ يوليو (تموز) اتصل بى فريد زعلوك الذى كان وزير دولة فى حكومة الهلالى وهو قريب منه . واتصل بى أيضا محمود محفوظ . وقال لى الاثنان « نجيب باشا عايزك فى الاسكندرية وهو سيكون فى بيت حافظ عفيفى باشا بعد الغداء مباشرة » .

وكان ذلك بعد إقالة حسين سرى وإعادة تكليف نجيب الهلالى تأليف الوزارة . بعد وصولى إلى الإسكندرية توجهت إلى منزل حافظ عفيفى أسأل عن الهلالى

فقيل لى أنه ذهب إلى قصر المنتزه ليقسم اليمين . عندها توجهت إلى منزل الهلالى الذى كان قريباً من المنتزه ننتظر عودته . وعندما دخل كنت أتحدث مع محمود محفوظ وفريد زعلوك .

سألته عن الأخبار فقال إن الملك كلفه تأليف الوزارة . قلت : هل قبلت ، وهل وضعت شروطاً ، وهل ستجاب طلباتك ؟

وأخرج الهلالى من جيب صدريته ورقة صغيرة وقرأ شروطه على الملك للموافقة على تأليف الوزارة . وكان من جملة هذه الشروط عدم تدخل غير المسؤولين فى السياسة ، والقيام بحملة تطهير ، وإبعاد بعض أفراد الحاشية .

وقلت له : ولكن ما هى الضمانات أن هذه الشروط ستنفذ من جانب الملك ؟

ورد الهلالى بلهجة اسكندرانية : يعنى حاناخدو عالملك كمبيالة يا هيكل ؟

المهم أن الهلالى بدأ بعد ذلك يسأل : هل تعرفون وزير صحة كويس ، هل تعرفون وزير تربية كويس ، هل تعرفون وزير داخلية كويس . . . الخ .

كان فى صدد تأليف وزارة وكان يبحث عن أشخاص جديرين بإسناد حقائب وزارية إليهم .

وأذكر أن على حمدى الجمال كان يومها فى منزل الهلالى وحدث بالفعل أن سألته إذا كان يعرف شخصاً ما لتعيينه وزيراً للشؤون البلدية (يتذكر على حمدى الجمال الواقعة ويقول أنه فى ذلك الوقت كان يعمل فى صحيفة « أخبار اليوم » وأنه اقترح مريت غالى ليكون وزيراً للشئون البلدية) .

وأنهى الهلالى اختيار أعضاء حكومته . وفى الليل عدت إلى القاهرة . وبعد قليل من وصولى اتصل بى ضابط كان يعمل وقتها فى المخابرات وهو سعد توفيق . وكنت عرفته من قبل عندما كنت أتابع حرب فلسطين وآثارها . ومرة أعطانى إذناً لدخول قطاع غزة .

قال لى سعد توفيق أنه يريد أن يمر على بعد قليل . وعندما جاء قال لى : الشخص الذى قابلته أمس مرتين يسأل أين ستكون غدا . سأل عنك ولم يجدك .

قلت : أمضيت يوماً فى الإسكندرية وعدت منذ قليل .

سأل سعد توفيق : هل يعنى أنك لن تغادر القاهرة خلال الأيام الثلاثة المقبلة ؟

قلت : أنا باق فى القاهرة ولن أغادرها إلى الإسكندرية .

وتركنى سعد توفيق الذى كان يتكلم بطريقة مشدودة وبغمغمة بعدما أعطانى أرقام تلفوناته . ثم جاءنى يوم ٢١ يوليو (تموز) وكان الهلالى ألف حكومته وأشرك فيها مرتضى المراغى كوزير للداخلية واختار بعد ذلك اسماعيل شيرين (صهر الملك) كوزير للحربية . وتحدثنا فى الأوضاع العامة وكان رأيى أن نجيب الهلالى ممتاز .

ويوم ٢٢ يوليو (تموز) جاءنى سعد توفيق للمرة الثالثة . وكالعادة تكلم فى العموميات ثم قال : أين ستكون لأن صديقك قد يحتاج إليك . ويحتمل أن نتصل بك هاتفيا .

قلت له أننى سأكون فى « أخبار اليوم » حتى التاسعة والنصف وبعد ذلك سأتناول العشاء فى بيت ماهر دوس .

وحدث أنه بعد وصولى إلى منزل ماهر دوس اتصل سعد توفيق هاتفيا وقال لى : هل يمكن أن تذهب إلى بيتك ؟

وتوجهت إلى بيتى . حتى ذلك الوقت لم يكن خطر فى بالى أن ثورة سيقوم بها البكباشى الذى أصبح صديقى . كنت أشعر أن أمراً ما سيحدث . لكنى لم أتصور أن هذا الأمر هو الذى حدث بعد ذلك .

فى العاشرة والنصف ليلا كنت فى منزلى ، عندما اتصل بى فريد زعلوك من الإسكندرية . وفريد صديقى ومقرب من نجيب الهلالى وهو وزير دولة فى حكومته . وفوجئت به يقول لى : يبدو أن هناك أمرا ما داخل الجيش . ولقد بلغت نجيب الهلالى عن طريق السرايا أخبار عن أمر ما داخل الجيش . وهو يسأل عما إذا كانت لديك معلومات فى هذا الشأن .

قلت : ليست لدى معلومات . ما هى بالضبط المعلومات المتوافرة لدى الهلالى ؟

أجاب فريد زعلوك : يبدو أن بعض الضباط تركوا الثكنات .

لقد طلب نجيب الهلالى من فريد زعلوك الاستفسار منى لأنه كان يعرف أن لى صلة ببعض الضباط ، ومنهم محمد نجيب الذى كنت رشحته ليكون وزيرا

الحربيــة فى حكومة الهلالى الأولى لأن الهلالى كان يبحث عن ضابط محبوب فى الجيش ليشركه فى الحكومة وزيراً للحربية .

وعندما عرض الهلالى اسم محمد نجيب سأله الملك ما إذا كان يعرفه . وقال الهلالى إنه لا يعرفه . وأجابه الملك : كيف تضمنه وأنت لا تعرفه ؟

كان نجيب الهلالى يعرف مدى معرفتى بمحمد نجيب . ومن أجل ذلك طلب من فريد زعلوك الاستفسار منى عما حدث داخل الجيش . وأنا بعدما انتهت مكالمة فريد زعلوك قررت مغادرة المنزل من دون أن أعرف إلى أين أذهب .

وفجأة رن جرس الهاتف . وكان المتحدث سعد توفيق . قلت له : ما هى الأخبار ؟

أجاب : يظهر فى هيصة . هناك أمور كثيرة . وإذا كنت تريد كتابة شئ عما يحدث فهذه حكاية كبيرة جداً .

واتفقنا على أن نلتقى فى العباسية . ثم توجهت إلى منزل محمد نجيب . وكان سهرانا ويرتدى قميصا وبنطلوناً وينتعل شبشباً .

وعندما كنت فى منزل محمد نجيب اتصل به أحدهم هاتفيا وفهمت أنه مرتضى المراغى . واتصل المراغى مرة أخرى وقال ما معناه أن بعض الضباط تركوا الثكنات وأن ذلك سيحدث فوضى فى البلد . وتبعا لذلك سيتدخل الإنجليز ، ولذا فإن الملك يفوض إليه (أى يفوض إلى نجيب) الاتصال بـ« العيال المجانين » وينهى المسألة بالتى هى أحسن .

ورد عليه محمد نجيب بما معناه أن لا معلومات لديه حول الأمر . وأعتقد أن محمد نجيب لم تكن لديه بالفعل معلومات وأن كل ما عرفه من جمال عبد الناصر هو أن هناك حركة داخل الجيش . وكان عبد الناصر عندما تحدث معه عن تلك الحركة بشكل مقتضب سأله إذا كان يريد الانضمام إليها . وأبدى نجيب حماسة . وانتهت الاتصالات بين عبد الناصر ومحمد نجيب عند هذا الحد يوم ١٨ يوليو (تموز) ١٩٥٢ .

كرر محمد نجيب لمرتضى المراغى أنه لا يعرف شيئا عن مسألة ترك الضباط للثكنات . وفوجئت به يقول أيضا : حتى أنا عندى الآن الأستاذ هيكل بتاع « أخبار اليوم » .

وبعد ما سألته عن سبب قوله ذلك للمراغى تركت منزل محمد نجيب للقاء سعد توفيق فى المكان الذى اتفقنا على اللقاء فيه . وأخذنى سعد توفيق إلى القيادة .

كانت الساعة نحو الثالثة فجر ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ . الشخص الأول الذى شاهدته كان عبد الحكيم عامر . وجدته واقفا على الباب . وعندما رآنى قال لى : خلاص . القاهرة كلها ...

وقلت : إيه يعنى القاهرة كلها ... ؟

أجاب : أخذناها . القوات مسيطرة على كل القاهرة .

قلت له : هل هذا انقلاب ؟

بعد ذلك تطلعت إلى حوش القيادة فوجدت بعض الضباط والجنود يفترشون الأرض ويأكلون . وهؤلاء كانوا أفراد الكتيبة ١٣ التى قبضت خطأ على عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ثم تعرف إليهما يوسف منصور صديق وأفرج عنهما .

هل أبقى حيث أنا أم أنزل إلى الضباط والجنود الذين كانوا يغمسون أرغفة الخبز بالفول وأتحدث إليهم لأعرف منهم ما الذى جرى ؟

إن سعد توفيق اختفى . وعبد الحكيم عامر اختفى . وخلال ثوان من هذه الحيرة عاد عبد الحكيم عامر ليقول لى : إيه رأيك . هل يتدخل الإنجليز ؟

وأشار لى قائلا : صاحبك ينتظرك فوق ؟

وصعدت لأجد جمال عبد الناصر ومعه كمال الدين حسين الذى كان ما يزال عاتباً على مقال كتبته فى « آخر ساعة » عام ١٩٤٩ .

قلت له : ما الذى حصل ؟

أجاب : خلاص ...

قلت له : خلاص إيه ... ؟

أجاب : كنت تقول أن الجيش عجز عن رد شرف البلد عام ١٩٤٨ ، هل الذى فعله الجيش الآن كويس ؟

قلت له : ما الذى حدث . ما الذى تقول أن الجيش فعله ؟

أجاب وكانت برقيات التأييد بدأت تصل من المناطق : يعنى لسه مش فاهم ؟

وأضاف : لا يهم ما الذى سيحدث . المهم أننا صممنا ونفذنا وأكدنا أن فى مصر شبانا رفضوا المهانة وتحركوا .

فى تلك اللحظة ظهرت بعض صفات عبد الناصر القيادية . وفى تلك اللحظة شعرت أنه الرقم واحد فى الحركة ، وأن كل الذين حوله يلجأون إليه فى أى قرار . لم أكن حتى تلك اللحظة أعرف أنه قائد الثورة لكننى كنت أشعر أنه هو القائد بالفعل . كل واحد كان يهمس فى أذنه أو يأخذه على جنب ليحدثه فى أمر ما . كان محور كل الاتصالات . وبعد قليل أرسل وراء محمد نجيب وجاء نجيب مستغرباً .

وفكرت فى أن أتصل بصحيفة « الأخبار » لأعرف الجو داخل الصحيفة والمعلومات التى وصلتها . رد على سكرتير التحرير حسين فريد . سألته عن أحواله فأجابنى : يظهر إنو فى دوشة ...

قلت له : ما الذى ستكتبه ؟

أجاب : لا أعرف ، اتصل بى مصطفى بيه (يقصد مصطفى أمين) وقال انه يبحث عنك .

قلت له : ما الذى سنفعله ؟

أجاب : لا أعرف . ما الذى حدث بالضبط ؟

قلت : الذى حدث هو أن الجيش ترك الثكنات وقام بحركة ... هل أنجزت الطبعة الأولى ؟

فى هذا الوقت دخل موظف الهاتف فى « الأخبار » حامد الشوبرى الذى أصبح بعد ذلك عاملا فى مطبعة « الأهرام » وقال لى : أستاذ هيكل . مصطفى بيه بيتكلم من اسكندرية ويسأل عنك يريد التحدث إليك هل أصلك به ؟

وأجبته : أيوه .

وسألنى مصطفى أمين عن الذى حدث . وسألنى أين أنا الآن . وقال : يبدو أن فى الجيش حركة عصيان . هل عندك معلومات ؟

قلت : لا ليس عندى معلومات .

قال : إزاى ما عندكش . أنت فين دى الوقت ؟

أجبته : أنا فى رحاب العصيان .

قال : الخط وحش . ممكن تدينى نمرة التليفون وأنا حاطلبك ؟

قلت : لا . لا أستطيع أن أعطيك رقم الهاتف حيث أنا الآن .

وأصر مصطفى أمين على أن أعطيه رقم هاتف القيادة فطلبت منه أن ينتظر قليلا .

كان فى الغرفة سعد توفيق وعبد الحكيم عامر . وكان جمال عبد الناصر فى الخارج . لا أعرف أين . وشعرت أننى لا يمكن أن أعطيه من دون أن أستأذن . قلت لسعد توفيق أن مصطفى أمين يتحدث من الإسكندرية ويريد أن أعطيه رقم الهاتف . وسمع عبد الحكيم عامر كلامى فقال مستهجنا : إيه ؟ ...

وكان عبد الناصر فى طريقه عندئذ إلينا وسمع عبد الحكيم عامر يعبر عن استغرابه بعبارات قاسية . وضحك عبد الناصر وقال لى : اعطه الرقم . وقال لسعد توفيق : شوف النمرة كام . وأعطانى سعد الرقم فأعطيته لمصطفى أمين .

وأغلقت سماعة الهاتف بينما كان عبد الحكيم عامر يقول لعبد الناصر : إزاى ده يحصل . السرايا حتعرف .

ورد عبد الناصر : مش مهم يا حكيم . يجب أن نعرف كيف يفكرون . المهم أن يتصل وهيكل يعرف منه ، مش هو يعرف من هيكل .

هذه الحادثة كشفت لى عن ظاهرة مهمة بالنسبة إلى جمال عبد الناصر وهى سرعته فى اتخاذ القرار .

منذ اليوم الأول وجدت نفسى وسط القيادة . أشرح كيف أن الإنجليز لن يتدخلوا . أعطى رقم هاتف القيادة لمصطفى أمين . أسمع كل الأحاديث من كل المشاركين فى الثورة .

بعد قليل من إعطائى رقم الهاتف اتصل بى فريد زعلوك . ثم اتصل مصطفى أمين يسأل عن التفاصيل وعن مكان وجودى .

وقلت له لا تفاصيل حتى الآن وإننى موجود فى « مبنى من مبانى الهيصة إللى احنا فيها » .

وقلت له أيضا : حنكتب حاجة ؟

أجابنى : لا . لا . مش مسألة كتابة . استنى لما نشوف حيحصل إيه . إيه اللى حصل ؟

قلت له : أرى دبابات كثيرة تخرج وعربات عسكرية تدخل .

قال : هل اللواء محمد نجيب عندكم . هل هو مشترك فى الحركة ؟

أجبته : رأيته منذ قليل ولا أعرف إلى أين ذهب .

قال : هل يمكن أن تستقصى لنا الأمر وتلم بالصورة كاملة وتخبرنا ؟

كانوا يريدون أن يعرفوا الموقف منى . وهم سألوا عن محمد نجيب لأنه كان مكلفا من الملك أن يتصل بقيادة الحركة و يهدئ الوضع .

بعد ذلك اتصل فريد زعلوك ثانية وكان حصل على رقم الهاتف من مصطفى أمين . وقال فريد : إن الهلالى باشا عاوز يكلمك .

وسألنى نجيب الهلالى عن الحالة والأخبار وعما إذا كنت أعرف أحداً من أركان الحركة .

وقلت له إننى أعرف بعضهم . وسأل عن محمد نجيب وطلب أن أتحدث إليه . وبعد ذلك طلب منى أن أتصل بالذين أعرفهم من أركان الحركة وأسألهم ماذا يريدون ، وأوضح لهم أن المسألة فى منتهى الخطورة لأن الإنكليز سيتدخلون . وكرر الهلالى الطلب : انت يا محمد لازم تكون على معرفة بالناس دول . أنا عاوز تقول لهم هم عاوزين إيه .

فى هذه اللحظة دخل أنور السادات فكلفه عبد الناصر التوجه إلى محطة الإذاعة لقراءة البيان الأول للثورة .

وقال لى عبد الناصر : قل لهم أن يسمعوا بياناً من الإذاعة سيذاع فى الساعة السابعة صباحا .

كان الوقت عندئذ نحو السادسة إلا الربع ، أى قبل الوقت المحدد لإذاعة البيان بساعة وربع ساعة .

وعدت إلى سماعة الهاتف أقول عبرها للهلالى ما قاله عبد الناصر بخصوص البيان من دون أن أذكر اسم عبد الناصر .

قال الهلالى : لا يامحمد . مفيش داعى للفرقعة . هل عرضت الفكرة التى قلتها لك على أحد من الأركان فيهم ؟

قلت : أظن أن الذى تحدثت إليه هو من المسؤولين فى الحركة .

ورد الهلالى : اذهب وقل لهم أنه لا داعى للتسبب فى حدوث فرقعة ، وأن الملك مستعد لإجراء أى تعديلات يريدونها إذا كانوا يريدون تعديلات داخل الجيش . هل هم يريدون إجراء تعديلات فى الجيش . وأين هو محمد نجيب ؟

قلت : موجود معهم ، أظن أنه منضم إليهم .

قال : هل اتصل نجيب بأحد فيهم ؟ أين هو نجيب . أريد أن أتحدث إليه .

وقلت للهلالى أن يتصل بى مرة ثانية . وبدأت أفكر برد عليه . انه يسأل عن محمد نجيب . وأنا قلت له أن محمد نجيب مع الحركة لأننى كنت اطلعت على البيان الذى طلب جمال عبد الناصر إذاعته فى السابعة صباحا والبيان بتوقيع محمد نجيب .

واتصل الهلالى مرة ثانية وكنت محرجاً بالفعل . سأل أيضا عن محمد نجيب وقال : هل يمكن أن تبلغ جماعة الحركة أن الحكومة مستعدة لاستصدار مرسوم من الملك بتعيين محمد نجيب قائداً عاماً للقوات المسلحة على أن يجرى هو التعديلات التى يريدونها داخل الجيش . إننا لا نريد فرقعة .

ومرة أخرى قلت للهلالى أن ينتظر . وذهبت لأتحدث مع جمال عبد الناصر فى العرض . وقلت له ، وكان إلى جانبه محمد نجيب وزكريا محيى الدين : ان نجيب الهلالى على الخط ويعرض عليكم استعداد حكومته لاستصدار مرسوم من الملك بتعيين محمد نجيب قائدا عاماً للقوات المسلحة على أن يجرى وفق الأصول الدستورية التعديلات التى تريدونها داخل الجيش .

ولمجرد أن سمع محمد نجيب العرض رحب به وقال لعبد الناصر : إيه رأيك يا جمال بيه ؟ فكرة معقولة نوافق عليها وبلاش فرقعة .

أما جمال عبد الناصر فقال لا ، ثم نظر إلى محمد نجيب وقال يخاطبنى : لا .

وأضاف : الفرقعة مطلوبة بحد ذاتها لإعلان التغيير وإشعار الناس بما حدث .

وكرر محمد نجيب ترحيبه بالعرض المقدم من الهلالى ، فكرر عبد الناصر تمسكه بضرورة أن تحدث الفرقعة . وعدت إلى سماعة الهاتف أروى للهلالى ما حدث .

وقال لى الهلالى : إننى لا أستطيع تحمل الموقف ما دام ليس عندى حل . وأنا على أى حال سأتحدث مع الملك فى الأمر .

وأغلق الهلالى سماعة الهاتف . وذهبت إلى جمال عبد الناصر أقول له ان الهلالى رجل نظيف وأنه فى موقف لا يحسد عليه .

ورد عبد الناصر : لا يهمنى أنه نظيف ، الذى يهم هو أن تستقيل الحكومة لأنه عندما تستقيل الحكومة منذ اليوم الأول للثورة يكون ذلك إثباتا عمليا بأننا مسيطرون على الموقف وأن هنالك قوة جديدة فى البلد .

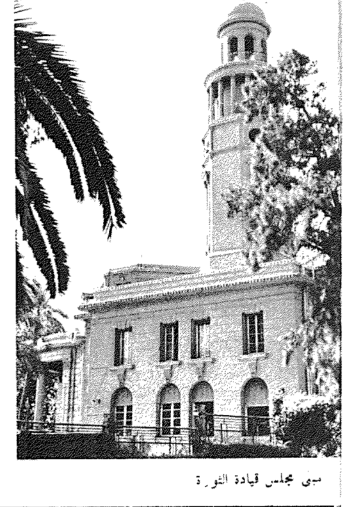
وأعود لأشدد على القول ان الحادثتين : إعطاء رقم الهاتف لمصطفى أمين ، وضرورة استقالة الحكومة ، أكدتا سرعته فى اتخاذ القرار ، من دون أن يكون هنالك أى تردد . وكل ذلك قبل قليل من إذاعة البيان الأول .

... وفى السابعة صباحا أذيع البيان .

وهكذا عرفت جمال عبد الناصر . منذ اللقـــاء الأول على أرض فلسطين إلى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

الفصل الثانى

مراحل تأسيس التنظيم
ودور محمد نجيب



مبنى مجلس قيادة الثورة



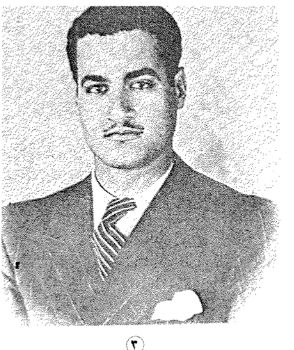
هنا تليفونات
عبد الناصر وكرسيه
فى مبنى قيادة الثورة

وهنا كان يرأس اجتماعات مجلس قيادة الثورة ...

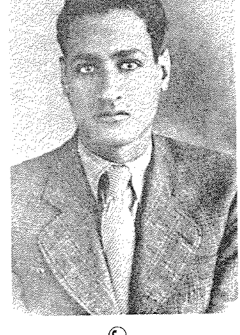
وهنا كانت جلسته المفضلة فى المبنى فى الأيام الأولى من الثورة



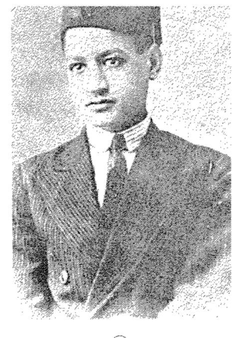
صورتان من السنين الأولى للثورة التقطتا لعبد الناصر فى يوغوسلافيا عام ١٩٥٥



③



②



①

① حلوان الثانوية لسنة واحدة عام ١٩٣١

② البكالوريا : مدرسة النهضة بالظاهر عام ١٩٣٦

③ كلية الحقوق فى بداية عام ١٩٣٧

الاسم جمال عبد الناصر حسين

الوظيفة والمهنة رئيس الجمهورية العربية المتحدة

محل الإقامة ١ شارع منشية الطيران - منشية البكري

محل العمل القصر الجمهوري بالقاهرة

فصيلة الدم

توقيع صاحب البطاقة

الإقليم المصري

بطاقة إثبات شخصية

رقم واحد

قسم مصر الجديدة

محافظة القاهرة

تحريراً فى

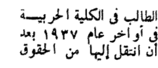
توقيع الموظف

توقيع المراجع

بصمة عبد الناصر على أول بطاقة تصدر فى القاهرة لإثبات الشخصية عام ١٩٥٨



الملازم أول فى الخرطوم فى مايو عام ١٩٤٠



الطالب فى الكلية الحربية فى أواخر عام ١٩٣٧ بعد أن انتقل إليها من الحقوق



١٩٥٨ : عبد الناصر مع أنور السادات يتمشيان ويضحكان ...

١٩٦٥ : عبد الناصر يؤدى الصلاة فى الكعبة وهو بثياب الإحرام وإلى جانبه زكريا محيي الدين وأنور السادات

فؤاد مطر : لماذا لم يأخذ جمال عبد الناصر المبادرة ويظهر كرجل أول فى الثورة ، ولماذا حرص على تصدير محمد نجيب واكتفى هو بدور الرجل الثانى ، ولماذا البيان الأول صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الذى صدر عن الثورة كان بتوقيع محمد نجيب وصوت أنور السادات ؟

محمد حسنين هيكل :

لماذا تصدير محمد نجيب ؟ إننا نتكلم عن هذه المسألة بعدما أصبح لموضوع الشباب مفهوم جديد . أما فى ذلك الحين فإن مسألة السن كانت أمراً أساسياً . كل القياديين والزعماء السياسيين لم يكونوا فى سن الشباب . باشاوات مصر ليسوا من الشباب . أقطاب حزب الوفد ليسوا من الشباب . رجالات السياسة البارزون آنذاك من النحاس باشا إلى فؤاد سراج الدين وإبراهيم عبد الهادى ليسوا من الشباب . أقطاب الحزب الدستورى ليسوا من الشباب . أقطاب الأحرار ليسوا من الشباب . باختصار كان رجال السياسة والحكم فى ذلك الوقت فى سن معينة . كلهم فوق الخمسين . وبعض هؤلاء تجاوز الستين . وبعضهم الآخر كان فى السبعين . كانت السن علامة من علامات النضج والاحترام .

وبالنسبة إلى تلك الفترة لم يكن إلى حد مقبولا أو مرحبا به على الأقل ، أن يكون الحاكم فى سن جمال عبد الناصر آنذاك ، أى فى الثانية والثلاثين . بعد جمال عبد الناصر أصبحت المسألة طبيعية . وفى معمر القذافى مثال على ذلك . لقد قام القذافى بالثورة فى ليبيا وهو فى السابعة والعشرين .

ومسألة السن لم تكن واردة فى ذهن جمال عبد الناصر وهو يقوم بعملية تنظيم الضباط الأحرار . ولم تخطر هذه المسألة لدى الضباط الأحرار فى زمن التحضير للثورة . ويبدو أن مسألة السن لم ترد فى أذهان عبد الناصر ورفاقه فى الأيام الأولى للثورة . لقد كنت قريبا منهم وتابعت الموقف والتطورات طوال أيام ٢٣ و ٢٤

و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ يوليو (تموز) ولم ألحظ اهتماما بأمر الحكم والسلطات . بعد اليوم السادس لقيام الثورة بدأت مسألة السن يحسب لها حساب .

فؤاد مطر : أليس من الجائز الافتراض أن جمال عبد الناصر فضل تصدير محمد نجيب والاكتفاء بممارسة دور الرجل الثانى لأنه حسب حسابا للفشل ، وبذلك يتحمل الفشل غيره ؟ ثم ألم يذكر لك عبد الناصر أنه أورد احتمال الفشل فى حسابه وأنه فى حال فشل الثورة كان سيدفع الثمن غالياً ؟

محمد حسنين هيكل :

بمنتهى البساطة لم يكن الافتراض واردا عند جمال عبد الناصر . فعندما قامت حركة الضباط الأحرار كان واضحاً أن محمد نجيب ليس معرضا للخطر لأن الضباط الأحرار عرضوا عليه تصدر الحركة ، وفى الوقت نفسه كلفه الملك عبر الحكومة تسوية الأمور . وفى الحالتين ان الحماية متوافرة لمحمد نجيب . أما عبد الناصر ورفاقه فكانوا معرضين للخطر .

وعبد الناصر كان يحسب حسابا للفشل . وكان يتوقع الفشل أكثر من النجاح . وقبل أن يتم التنفيذ رأى أن من واجبه تبصير أعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار . واستعمل للتبصير ببساطة قوله : إننا سنغامر . فإما أن ننجح وإما ستعلق جثثنا بالفوانيس (أى بأعمدة الكهرباء) . وروى لى عبد الناصر أنه فى تلك الجلسة وهى الأخيرة التى عقدتها اللجنة التأسيسية قبل أن تبدأ ساعة الصفر عقب جمال سالم على كلام عبد الناصر قائلا : المسألة مش صعبة . الواحد بدل ما تبقى فيه كرافاته متعلقة برقبته ، تبقى رقبته متعلقة بكرافاته .

فؤاد مطر : من أين كانت تنبع قوة جمال عبد الناصر فى تلك المرحلة لأنه لم يكن معروفا ، بمعنى أنه لم تكن له شعبية خارج الجيش وداخله .

محمد حسنين هيكل :

لو تكلمنا بمنطق الانقلاب لكان ذلك صحيحا ، أى أنه لم تكن لعبد الناصر شعبية ومن أجل ذلك يبدو مستغربا نجاحه . أما بمنطق الثورة فإن الأمر يختلف .

إن قوة جمال عبد الناصر هي في ما قام به يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وهو ردد أكثر من مرة ما معناه أن الثورة نفذت على مرحلتين . الأولى هي أن حركة الضباط الأحرار سيطرت على الجيش . أما المرحلة الثانية فهي أن تتحول القوات المسلحة إلى أداة تغيير .

كان عبد الناصر يقول في تلك الفترة أن الجماهير جاهزة لاستقبال الثورة ، لكنها خائفة . خائفة من أى شئ ؟ خائفة من الملك لأن العصاية في يده والسلاح في يد العصاية والعصاية هي الجيش . ولكي يتبدد خوف الجماهير فإن الخطوة الأولى المطلوبة هي تجريد الملك من سلاحه القوى أى أخذ الجيش منه . وهكذا كان . وبعد ذلك لابد من زيادة طمأنة الجماهير وهذا حدث بأن قام الجيش بضرب الملك ... الجيش الذى كان يضرب به الملك الجماهير تحول إلى ضرب الملك .. وتبدلت نظرة الناس تبعا لذلك . لم يعد عصاية . أصبح كما أراده جمال عبد الناصر أداة تغيير .

نعود إلى السؤال الأساسي : من أين كانت تنبع قوة عبد الناصر ؟

إن قوة عبد الناصر هي أنه كان النواة الأولى لحركة الضباط الأحرار . وعندما قرر الرئيس أنور السادات تشكيل محكمة شعب بعد ١٤ مايو (آيار) ١٩٧١ اختار حسن التهامى ليكون عضواً في المحكمة . لماذا فعل ذلك ؟ لأن حسن التهامى كان أحد أعضاء الخلية الأولى لحركة الضباط الأحرار . وهذه الخلية انبثقت منها خلايا . والخلايا انبثقت منها خلايا .. وهكذا . وفي النهاية وصل الأعضاء إلى عدد معين من الضباط وبعض ضباط الصف ومجموعة صغيرة العدد من المدنيين . وكانت هناك قيادة مركزية . بعض الأعضاء يعرف هذه القيادة والبعض الآخر لا يعرف . وعن القيادة المركزية كانت تصدر الأوامر والتعليمات والمنشورات .

... وكانت قوة عبد الناصر أن الخلية الأولى كانت رأس الحركة ، وكانت عصبها الحساس .

فؤاد مطر : من هم الضباط الأحرار . كم كان عددهم . وكيف كانوا موزعين داخل الجيش ؟ وهل ان عبد الناصر بعد قيام الثورة سجل كوثيقة لاتحتمل النقاش أسماء الضباط الأحرار ؟

محمد حسنين هيكل :

تنظيم الضباط الأحرار عبارة عن لجنة تأسيسية وخلايا ضباط أحرار . كل عضو فى اللجنة التأسيسية مسئول عن لجنة فرعية . وكل مسئول عن لجنة فرعية مسئول عن لجنة أخرى . وهكذا ... تكتمل الخلايا .

أما عدد الضباط الأحرار فسألة لا يمكن تحديدها تماماً ، وتكثر فى شأنها الأقوال والتفسيرات . المعروف بشكل محدد هو اللجنة التأسيسية أما بالنسبة إلى الضباط الأحرار فإن الذى حدث أن هناك ضباطاً انضموا إلى خلايا ثم تركوا هذه الخلايا وعادوا بعد ذلك إليها . وهنالك ضباط استمروا أعضاء فى الخلايا لبعض الوقت ثم تخلوا . هنالك ضباط قاموا ليلة الثورة بأدوار أساسية ومهمة فأصبحوا تبعا لذلك أعضاء فى التنظيم . إن يوسف منصور صديق مثلا عين فى مجلس قيادة الثورة ليلة ٢٣ يوليو لأن كتيبته (الكتيبة الرقم ١٣) قامت بالدور الأكبر فى عملية السيطرة على الجيش .

وفى اعتقادى ان أعضاء التنظيم الذين استمروا منتظمين طوال سنوات ١٩٤٩ و ١٩٥٠ و ١٩٥١ ونصف سنة ١٩٥٢ ، لا يزيد عددهم على ٩٠ ضابطاً . لكن هذا العدد يتضاعف ربما إذا أضفنا إليه المتعاطفين والذين اشتركوا لبعض الوقت فى خلايا أو الذين دخلوا فى التنظيم وخرجوا منه ثم عادوا إليه .

فؤاد مطر : هل روى لك جمال عبد الناصر كيف أنشأ تنظيم الضباط الأحرار ، ومتى فكر بالثورة ولماذا ، ومتى روى لك ذلك ؟ ثم إنك تتحدث عن لجنة تأسيسية للضباط الأحرار . من هم أعضاء هذه اللجنة وعلى أى أساس تم اختيار أعضاء التنظيم ؟

محمد حسنين هيكل :

روى لى جمال عبد الناصر قصة حركة الضباط الأحرار وكيف أنشأ التنظيم . وحدث ذلك فى الفترة التى كنا نلتقى لإعداد « فلسفة الثورة » . كان ذلك فى فبراير (شباط) ١٩٥٣ . وكان عبد الناصر يومها فى غاية الراحة وهو يروى . وكان

يعود أحيانا وهو يتكلم إلى محاضر لحركة الضباط الأحرار كانت تسجل بعد الاجتماعات . وكان عبد الناصر يأخذ المحاضر ويحتفظ بها . وهي موجودة إلى الآن في خزانة عبد الناصر الخاصة المغلق عليها . وهي في منزله .

وهنالك أيضا أوراق فيها مجموعة نقاط وملاحظات كان يكتبها على عجل . ولا أعرف السبب الذي جعل عبد الناصر يحتفظ بهذه النقاط والملاحظات ، أو بالأحرى محاضر جلسات اللجنة التأسيسية لأن ما عرفته عنه بعد ذلك أنه لا يحب كثيرا الاحتفاظ بالأوراق .

فؤاد مطر : هل احتفظ عبد الناصر بهذه الأوراق على أساس أن تؤرخ الثورة يوماً، أو على أساس أن يكتب مذكراته ذات يوم فيستعين بها ، ولماذا لم يكن يحب — كما تقول — الاحتفاظ بالأوراق ؟

محمد حسنين هيكل :

يبدو أن جمال عبد الناصر لم يكن يكتب هذه النقاط والملاحظات بهدف أن يؤرخ ذات يوم لأنه كان يتصور أن عملية كتابة التاريخ مرتبطة بما سيحدث . من خلال قراءتي لبعض الأوراق تبين لي أن ما يسجله كان بمثابة تحديد مهمات . في إحدى هذه الأوراق ملاحظة من ثلاث كلمات فقط . ومعظم الأوراق أو أكثرها كان كذلك . كان يسجل نقاطا لتحديد مهمات لابد من القيام بها . وهو احتفظ بهذه الأوراق لكي يتذكر ويناقش اللجان الفرعية أو يتحدث مع لجان أخرى غير اللجنة التأسيسية عن المهمات التي توكل إلى هذه اللجان .

وحرصه على عدم الاحتفاظ بالأوراق ناتج عن طبيعة العمل السري . فهو كان يعمل بشكل سري . ومثل هذا النوع من العمل يجعل صاحبه يعيش دائما في جو من القلق والحذر ، ويجعله يتفادى الاحتفاظ بأوراق مكتوبة .

وروى لي عبد الناصر أن رئيس أركان الجيش الصادق المهدي باشا استدعاه مرة وقال له ان رئيس الوزراء آنذاك إبراهيم عبد الهادي يريد أن تقابله . واستغرب عبد الناصر ذلك ثم دخل مع رئيس الأركان مبنى مجلس الوزراء لمقابلة إبراهيم عبد الهادي .

كانت وصلت إلى رئيس الوزراء بعض التقارير حول نشاط عبد الناصر . ولأنه كان معروفا بأنه من أبطال الفالوجة فإن إبراهيم عبد الهادى ارتأى أن يستجوبه بنفسه بدل أن يحقق معه وفق أساليب الجيش .

وانتظر جمال عبد الناصر طويلا لأن رئيس الوزراء كان فى اجتماع وكان طول الوقت قلقا بسبب ورقة صغيرة فى جيبه . وانتظر أكثر من ثلاث ساعات ليقابل إبراهيم عبد الهادى . وطوال هذا الوقت كان قلقا بسبب الورقة الصغيرة . ولم ينته قلقه إلا بعدما دخل دورة المياه ورمى الورقة وشد « السيفون » لكى تختفى الورقة إلى الأبد . وبعد ذلك عاد مستريحاً وانتظر إبراهيم عبد الهادى .

ومثل هذا التصرف منطقى من شخص يؤمن بالعمل السرى . ومن هنا من الطبيعى ألا يكون جمال عبد الناصر احتفظ بأوراق كثيرة . معظم الأوراق التى احتفظ بها هى تلك التى سجلت عليها أدوار وتكليفات بالنسبة إلى أعضاء الخلايا .

وحدث فى النصف الثانى من عام ١٩٥٢ أن قيلت وكتبت أمور تتعلق بالثورة . كان عبد الناصر يقرأ ما ينشر ويبدى استغرابه .

وعندما بدأت معه عام ١٩٥٣ التحضير لـ « فلسفة الثورة » التى صدرت فى كتيب بعد ذلك قلت له أن من الضرورى تسجيل ما حدث على حقيقته .

وخلاصة الأمر أن عبد الناصر احتفظ بالأوراق التى سجل عليها الملاحظات والأوامر والتكليفات وهذه موجودة فى الخزانة المغلقة .

فؤاد مطر : أعود إلى سؤال يبدو بالغ الأهمية . على أى أساس اختار عبد الناصر أعضاء تنظيم الضباط الأحرار ومن هم هؤلاء الأعضاء ؟

محمد حسنين هيكل :

فى تقديرى ان اختيار أعضاء الخلية الأولى تم على أساس الصداقة والتعاطف الشخصى بين مجموعة متجانسة من ضباط الجيش . والخلية الأولى تألفت من ستة أو سبعة ضباط بينهم عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وخالد محيى الدين وحسن إبراهيم وحسن التهامى . بعد ذلك تم ضم عدد من أعضاء الخلايا الأخرى إلى اللجنة التأسيسية .

على أى أساس تم ضم هؤلاء ؟

الآن بعد خمس وعشرين سنة لا يمكن أن نقول على أى أساس تم ضم هؤلاء ، إنما يجب أن ننظر إلى الأمر من زاوية الظروف آنذاك . مثلا زكريا محيي الدين لم يكن من أعضاء الخلية الأولى لكنه كان من الضباط الذين يتمتعون بشعبية داخل الجيش . وحيال ذلك أيده الضباط الأحرار فى انتخابات نادى الضباط . وساهم هذا التأييد فى إنجاحه . وتبعا لذلك اتسعت دائرة شعبيته فى الجيش . وهكذا انتقل إلى اللجنة التأسيسية . يعنى أن زكريا محيي الدين كان أصلا فى الحركة ثم صعد فيها إلى أن أصبح عضوا فى اللجنة التأسيسية .

بالإضافة إلى ذلك هنالك أشخاص تم ضمهم إلى اللجنة التأسيسية على أساس أنهم يمثلون حركات سياسية داخل الجيش والمجتمع . وعشية قيام الثورة أصبحت اللجنة التأسيسية تضم عناصر تمثل معظم التيارات السياسية فى مصر . هنالك من يمثل اليسار . وهنالك المتعاطف مع الاتجاه الإسلامى . وهنالك المقرب من الوفد . وهذا التمثيل ضمن لحركة الضباط الأحرار تمثيلا عريضاً من الرأى العام . وسواء جاء هذا التمثيل بشكل عفوى أو كان متعمدا فإنه أفاد كثيراً . لقد استقطبت الحركة قبل أن تقوم الثورة معظم التيارات السياسية فى مصر . وهكذا أصبحت اللجنة التأسيسية عشية قيام الثورة مؤلفة من ثلاثة أنواع من الناس :

النوع الأول — أعضاء الخلية الأولى الذين استمروا أعضاء فيها حتى النهاية .

النوع الثانى — عدد من الضباط كانوا فى الأصل داخل الحركة وبرزوا نتيجة ظروف معينة ، كانتخابات نادى الضباط مثلا .

النوع الثالث — عناصر تمثل اتجاهات سياسية . وأهمية هذه العناصر إنها أفادت فى أن تكون هنالك اتصالات مستمرة بين الحركة وقوى أخرى .

كيف استطاعت حركة الضباط الأحرار أن تستكشف القوى السياسية المنظمة فى ذلك الحين ؟ تلك مسألة مهمة . الحركة كانت تعمل بالسر . أو تحت الأرض ، كما هو الوصف المترجم الشائع Underground . واليساريون كانوا أيضا يعملون بالسر . كذلك الحال بالنسبة إلى الأخوان المسلمين . وهذه القوى كانت ناشطة

داخل الجيش وكانت اتجاهاتها عنيفة أو فى الطريق إلى أن تكون عنيفة . واكتفت الحركة بأنها اتصلت بالقياديين فى تلك القوى من دون أن تقودها الاتصالات إلى التحالفات . ابتعدت عن التحالف واختارت الطريق المستقل . لم تتحالف مع قوى اليسار بمعنى التحالف وإن كان خالد محيي الدين استمر عضوا فى اللجنة التأسيسية . وابتعدت عن الأخوان المسلمين وإن كان بعض أعضاء اللجنة التأسيسية من الذين لهم صلة بالأخوان استمروا فى اللجنة .

فؤاد مطر : من الواضح أن عام ١٩٥٣ كان بداية مرحلة تعمير البيت وظهور جمال عبد الناصر . ففى ٢٣ يناير (كانون الثانى) من ذلك العام تم إعلان تأسيس هيئة التحرير . وفى ٣٠ يناير (كانون الثانى) ظهر عبد الناصر للمرة الأولى كزعيم سياسى حيث طالب بالجلاء البريطانى الكامل . وفى ١٠ فبراير (شباط) أذيع دستور فترة الانتقال وفيه السيادة العليا لمجلس قيادة الثورة وأن مجلس الوزراء يتولى السلطة التشريعية إلى جانب السلطة التنفيذية . وفى فبراير (شباط) تم توقيع الاتفاق المصرى ـ البريطانى بشأن السودان الذى ضمن للشعب السودانى حق تقرير مصيره (الاتحاد مع مصر أو الانفصال) . وفى ٢٣ فبراير (شباط) ألقى عبد الناصر خطابا خلال مؤتمر شعبى فى شبين الكوم أطلق فيه شعاره الشهير « على الاستعمار أن يحمل عصاه ويرحل ، أو يقاتل حتى الموت دفاعا عن بقائه » .

هل معنى هذا أن عبد الناصر قرر أن يتولى مسؤولية قيادة الثورة علانية بشقيها الرسمى والشعبى لمواجهة ما قد يكون اعتبره انحرافات من جانب محمد نجيب ؟

وما هى هذه الانحرافات ، وكيف استقبل أعضاء مجلس الثورة ، والشعب ، ذلك ؟

محمد حسنين هيكل :

ما اتخذه جمال عبد الناصر آنذاك ليس قراراً . وأنا ضد المفاجآت فى التاريخ ، لأن التاريخ عبارة عن خمائر وإيماءات تنضجها الظروف .

لقد قامت الثورة وليس فى ذهن جمال عبد الناصر أنه سيحكم ، ثم بدأت التطورات تفرض نفسها بحيث أن الثورة وجدت نفسها مضطرة إلى أن تمارس الحكم . لقد أنهت سلطة الملك فمن الطبيعى أن تنتقل السيادة إلى طرف آخر . وحلت الثورة الأحزاب وبالتالى لم يعد هنالك برلمان أو دستور . وبدأت الثورة تنفيذ الإصلاح الزراعى ووجدت نفسها فى مواجهة مع الطبقة . ثم وجدت نفسها فى مواجهة مع الإنجليز .

ومن هنا كان لابد من استصدار قوانين لتثبيت السلطة الوطنية ولتأكيد اتجاهات الثورة .

وكانت الثورة معتمدة إلى حد فى البداية على الجماهير غير المنظمة . وكان الاخوان المسلمون يحاولون لكن التطورات أكدت أن الاخوان المسلمين لا يمكن أن يكونوا القوة التى يصبح الاعتماد عليها لأنهم كانوا يسعون إلى احتواء الثورة أو وضعها تحت وصايتهم . إذاً كان لابد من تنظيم .

فؤاد مطر : استكمالا لذلك هناك مسائل أخرى تحتاج إلى إيضاح . فمن المعروف أنه فى ٢٤ فبراير (شباط) ١٩٥٣ استقال محمد نجيب وتولى جمال عبد الناصر المسئولية كاملة كقائد فعلى للثورة . وفى ٨ مارس (آذار) ١٩٥٣ أعيدت الأوضاع من جديد إلى ما كانت عليه وعاد محمد نجيب رئيساً للجمهورية ورئيساً لمجلس قيادة الثورة ورئيساً للوزراء وأعلن عبد الناصر « إننا طوينا الخلاف وتناسينا أسبابه من أجل مصر » . وفجأة فى ٢٥ مارس (آذار) ١٩٥٣ يحل مجلس قيادة الثورة نفسه باعتبار أن الثورة قد انتهت ويسمح بقيام الأحزاب وبانتخاب جمعية تأسيسية . باختصار أصبحت الثورة مهددة واستمرارها موضع شك . ومن الواضح أن هذا اليوم كان من أهم الأيام فى تاريخ الثورة وفى تاريخ عبد الناصر ومصيره ومستقبله شخصياً .

كيف كان عبد الناصر فى ذلك اليوم . رؤيته للأمور . تكتيكاته . استراتيجيته ؟

وماذا كان ينتظر له من مستقبل لو أن محمد نجيب كسب ذلك اليوم ؟

وهل أن إعلان مجلس قيادة الثورة مثل هذه القرارات الحادة كان نوعاً من التكتيك الذى يستهدف استقطاب القوى وجمعها لضرب الخصم ؟

وما هى الخلافات التى قال عبد الناصر أنه طواها من أجل مصر ؟

وهل أن التصرف الذى اتخذه عبد الناصر قبل أن تنتهى السنة الثانية للثورة مشابه موضوعياً للتصرف الذى اتخذه يوم ٩ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ بإعلانه تنحيه عن منصبه إثر الهزيمة ؟

وإذا لم يكن مشابهاً فما هى الفوارق ؟

محمد حسنين هيكل :

أود أن أسجل قبل كل شئ أن محمد نجيب لم يكن أبداً قائداً فعلياً للثورة . ومنذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى حين استقالته لم يشترك محمد نجيب فى أكثر من اجتماع أو اثنين لمجلس قيادة الثورة . والمسائل التى تقررت كانت معدة سلفاً .

واستمرت اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار تعقد اجتماعاتها تحت اسم مجلس قيادة الثورة برئيسها المنتخب جمال عبد الناصر .

ثم إن محمد نجيب لم يستقل إنما أجبر على الاستقالة . وتكتمل الصورة إن نحن بسطنا الأمور مرحلة مرحلة .

أتذكر أنه فى اليوم الثانى أو الثالث لقيام الثورة كنت عند محمد نجيب . وكان معنا سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة . وقال لنا إن الناس تصفق له من دون أن يستحق التصفيق لأن لا علاقة له بما حدث وأنه يقطف ثمرة من المفروض أن يقطفها الذين أحدثوا التغيير .

وهذا صحيح . وخرجت مرتاحاً جداً إلى هذا الكلام الذى يقوله محمد نجيب . وتحدثت فى الأمر مع جمال عبد الناصر وقلت له إن اختيار محمد نجيب للدور المطلوب

منه تنفيذه كان اختياراً جيداً لأن الرجل نظيف ولأنه يعرف حدوده . لكن محمد نجيب بعدما وجد الأضواء تسلط عليه وتلتف حوله القوى القديمة بدأ يتغير . وكان التفاف الطبقة القديمة حوله أمراً طبيعياً لأنه منها فكراً وسناً وانتماء . وهو كان يريد أن يصبح وزيراً فى حكومة الملك . ولقد ارتاح إلى هذا الالتفاف حوله ، وبدأ يصغى إلى النصائح التقليدية ويتضايق من استعمال كلمة ثورة .

وقد أصدر محمد نجيب فى تلك الفترة بصفته مسئولا عن الرقابة تعليمات إلى الصحف بعدم استعمال كلمة الثورة والاستعاضة عنها بتسمية « حركة الجيش » . وعندما لاحظ أن عبد الناصر متضايق من هذه التسمية أصدر تعليمات بأن تكون التسمية « حركة النهضة المصرية » . وقد استعملنا هذه التسمية فى الصحف بعض الوقت بينما كان عبد الناصر فى غاية الضيق ويقول : لماذا الخوف من كلمة « الثورة » .

وكان منطق محمد نجيب — الذى هو ترديد لمنطق القوى القديمة التقليدية — أن كلمة « الثورة » تضعف الثقة وأنها لن تجعل الاستثمار الأجنبى يأتى . وفى إحدى المرات استعمل تعبيراً غريباً هو أن تسمية ما حدث « ثورة » تسمية « وحشة قوى وحتبهدل الدنيا كلها وتشيع الفوضى » . واعتمد على بعض القانونيين الذين أفتوا له بأن الثورة انتهت يوم ٢٣ يوليو وأن دورها انتهى بالتغيير الذى حدث .

أذاً ، إن الخلافات بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر إنما كانت خلافات بين جيلين . وكانت أيضاً خلافات بين السلطة الحقيقية والسلطة الفعلية . بين الواجهة والواقع . بين التغيير والتقليد .

وأمام هذه الحال اجتمع مجلس قيادة الثورة وقرر عزل محمد نجيب لأنه خرج عن مبادئ الثورة .

وجاء القرار فى وقت غير مناسب لأن محمد نجيب كان كسب قواعد شعبية ، ولأن عدداً من الضباط الذين ليسوا من حركة الضباط الأحرار أو ينتمون إلى الطبقة القديمة كانوا قاموا بحركة التفاف حوله . وهو كان استغل هذا الالتفاف وأنشأ من هؤلاء الضباط تنظيما داخل الجيش .

ويومها قلت لعبد الناصر إن إخراج محمد نجيب بهذا الشكل سيجعل الأمر معقداً

لأن الرجل اكتسب شعبية ، وانه ليس من السهل إقناع الجماهير بأنه ليس بطلا . وقلت له أيضاً إن محمد نجيب هو الذى وقع الإنذار الذى وجه إلى الملك وهذا أكسبه شعبية ضخمة . ولو أن أى شخص وقع ذلك الإنذار لأصبح بطلا . حتى لو حمل الإنذار توقيع راقصة فإنها كانت ستصبح جان دارك مصر . وتأتون الآن وبهذه البساطة وتقررون عزل الرجل .

وكان رأى عبد الناصر أن محمد نجيب خرج على مبادئ الثورة .

وقلت له : أنتم الآن فى وضع مختلف . إن مثل هذا الأمر سهل لو كنتم مازلتم تعملون تحت الأرض . لكنكم الآن بعدما خرجتم إلى العلن يجب أن تأخذوا فى الإعتبار الطرف الآخر فى المسألة وهو الرأى العام .

ولقد حدث بالفعل يومها انشقاق فى مصر . وقفت قطاعات من الرأى العام إلى جانب محمد نجيب . وحاول جماعة التنظيم الذى أنشأه داخل الجيش أن يتحرك ويحدث صداماً . وتطور الأمر فى اليومين الثانى والثالث لاستقالة محمد نجيب . تحركت جماهير كثيرة تأييداً له . وتحرك الاخوان المسلمون تأييداً له . وتعاطف معه كل هؤلاء من منطلق أنه لماذا يحدث ذلك للرجل الذى أخرج الملك .

وجرى هذا التحرك لأن أحداً لم يكن يعرف حقيقة الوضع وحجم القوى .

وأمام هذا التحرك الذى اتسع حجمه اضطر مجلس قيادة الثورة إلى أن يتراجع . وكانت تلك الفترة فترة خيبة أمل ، لأن البطل الحقيقى للثورة مهاجم من الناس ، ولأن الرجل الواجهة هو البطل فى نظر الناس .

وكان الذين يدافعون عن محمد نجيب وفرحوا لعودته يقولون ان عبد الناصر رجل غامض فى شخصيته ونياته وقد جاء ليستولى على أراضينا ، فى حين ان محمد نجيب سمح الوجه وقريب من القلب ولا يريد المشاكل .

وبالفعل انقسم المصريون فى ذلك الوقت فريقين . وكان الفريق الذى يدافع عن محمد نجيب هو الأقوى . وتحولت مناقشات الناس داخل منازلهم أو مكاتبهم إلى نوع من التحزب .

أمام هذا الوضع كان لابد من المناورة . وهذا ماحدث . وإعلان مجلس قيادة

الثورة حل نفسه كان مناورة مبنية على أساس . ولقد قصد عبد الناصر من وراء ذلك أن يقول للقوى الجديدة التي وجدت أملا فى الثورة : تريدون محمد نجيب ؟ تفضلوا . إنه يريد عودة الأحزاب . تفضلوا رجعوا الأحزاب .

وكان عبد الناصر قبل أن يقدم على المناورة مطمئناً إلى أن الجيش فى يده .

ولقد كانت المناورة من شقين : الأول أن يعلن مجلس الثورة حل نفسه . أما الثانى فهو أن يعود عن القرار ويعيد محمد نجيب ، وذلك لكى يتفادى حدوث حرب أهلية أو صدامات داخل الجيش .

وفى الواقع ان محمد نجيب بعدما عاد كان شبه معزول . وفى ظل عودته أمكن حصر الجيوب المؤيدة له داخل الجيش ، ثم طوقت هذه الجيوب .

وبذلك لم تعد المسألة تشكل أى خطر لأن الجيش أصبح كله فى يد الثورة بعدما انتهى أمر تلك الجيوب التى كانت ملتفة حول محمد نجيب .

يبقى أنه عيب القول أن عبد الناصر كان يناور عندما قرر التنحى إثر هزيمة ١٩٦٧ . عيب بالفعل .

فى العام ١٩٥٣ لجأ عبد الناصر إلى المناورة ليكشف محمد نجيب وليقول للناس ان الرجل ليس سوى امتداد للنظام القديم وإن كانت الثورة اضطرت إلى الاستعانة به كواجهة .

أما فى ٩ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ فإن عبد النـــاصر قرر أن يتنحى بالفعل وكان مستعداً لأن يتقبل المحاكمة ؛ لكن الجماهير التى خرجت ترفض أصدرت الحكم بالبقاء . ولولا خروج جماهير ٩ و ١٠ يونيو لكان عبد الناصر تنحى بالفعل .

فؤاد مطر : عام ١٩٥٤ بدأ الخلاف بين محمد نجيب وسائر أعضاء مجلس قيادة الثورة يطفو إلى السطح . ظهر محمد نجيب مظهر المدافع عن الديموقراطية وتعالت صيحات شعبية تطالب بعودة الجيش إلى ثكناته . ووجدت أرضية مؤيدة لذلك داخل مجلس قيادة الثورة وبالذات فى سلاح الفرسان الذى كان يتزعمه خالد محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة . وفى الوقت نفسه خرجت تظاهرات تهتف

بسقوط الحرية وسقوط الدستور واعتدى على الدكتور عبد الرزاق السنهورى رئيس مجلس الدولة فى ذلك الوقت والذى كان يمثل الخط الديموقراطى واتهم بذلك طعيمة والطحاوى (من أقرب المقربين إلى عبد الناصر بدليل أنه عهد إليهما فى تأسيس هيئة التحرير أول تنظيم سياسى للثورة) .

كيف كان وضع عبد الناصر أنذاك ؟

محمد حسنين هيكل :

باستثناء خالد محيى الدين الذى كان موقفه منسجماً مع مفاهيمه السياسية والعقائدية فإن أحداً داخل مجلس قيادة الثورة لم يقف مع محمد نجيب . وفى تلك الفترة التى التقدميون واليساريون والشيوعيون مع الطبقة القديمة فى المطالبة بعودة الأحزاب وعودة الجيش إلى الثكنات . وهذا الموقف من القوى القديمة طبيعى . أما موقف التقدميين واليساريين والشيوعيين فسببه أنهم لم يكونوا قادرين فى تلك الفترة على تحليل الدور الذى يمكن أن يقوم به الجيش فى حركة الثورة الوطنية وفى العالم الثالث كله فى ظروف معينة .

وقد سلم الاتحاد السوفياتى بعد ذلك بدور الجيش كأداة تغيير ، وأنه يمكن أن يكون تقدمياً ، بعدما كان لا يرى فيه سوى أداة الردع الأساسية فى يد الدولة .

ولو افترضنا أن الجيش عاد إلى ثكناته وحل مجلس الثورة نفسه وعادت الأحزاب وجرت انتخابات فمن الذى سيفوز فى هذه الانتخابات ؟

إن الوضع كان سيعود إلى ما كان عليه عشية الثورة . وبذلك لا يكون حدث تغيير . إنما عاد كل شئ إلى ما كان عليه باستثناء أن الملك لم يعد موجوداً .

وفى اعتقادى ان القوى الجديدة بعد تأمل لهذا الواقع اختارت الوقوف بقوة إلى جانب الثورة .

الفصل الثالث

مسلسل الأزمة مع:
الأحزاب والإخوان والشيوعيين

فؤاد مطر : الآن بعد ٢٢ سنة على قيام ثورة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ ، هل يمكن أن تتذكر كيف استقبلت مصر والعرب والعالم هذه الثورة ؟ وهل الأحزاب آنذاك فى مصر لم تتحرك ؟

محمد حسنين هيكل :

استقبل الرأى العام فى مصر قيام الثورة بفرح كبير جداً لأن الأحوال السائدة آنذاك كانت فى منتهى التدهور . وفى البداية لم تكن الثورة ضد الأحزاب على الإطلاق. كانت الثورة ضد الملك ولم تكن ضد الأحزاب . حتى أن عدداً من الضباط الأحرار وبينهم جمال عبد الناصر نفسه كانوا يعتقدون أن حزب الوفد يمثل الغالبية فى مصر وأن الملك قام بعد ٢٦ يناير (كانون الثانى) ١٩٥٢ بانقلاب ضد حزب الغالبية وأتى بأحزاب الأقلية لكى تحكم . وهذه الأحزاب وسعت رقعة الفساد .

ويوم قامت الثورة كان مصطفى النحاس فى أوروبا . وقد استدعاه رجال الثورة من أوروبا لأنهم فى ذلك الوقت كانوا متصورين أن فى الإمكان إجراء انتخابات حرة . ومن الطبيعى مادام الوفد هو حزب الغالبية أن يتسلم السلطة بعد ذلك . وجاء النحاس من أوروبا ولم تكن عنده أى فكرة عن الثورة ولا عن المعنى الحقيقى لها . وبعد وصوله قابل محمد نجيب بحضور جمال عبدالناصر وجمال سالم وعدد آخر من الضباط . وأنا حضرت هذا الاجتماع ولا تزال الصورة ماثلة تماماً فى ذهنى . كان عبد الناصر ورفاقه متهيبين أمام الرجل الذى استدعوه من أوروبا وكانت أفكارهم تجاهه طيبة . ولم يتكلموا . تركوه يتكلم مع محمد نجيب ، لكنه لمجرد أن بدأ الكلام أصيبوا بشئ من الذهول . وهو بدأ حديثه قائلا لمحمد نجيب : « أهلا وسهلا . هه . . . بقى أنت قائد ستين ألف وأنا قائد تمانتعشر مليون » . وكان مصطفى النحاس يقصد أن محمد نجيب هو قائد الستين ألف الذين هم أفراد الجيش المصرى آنذاك ، وأنه — أى النحاس — قائد الثمانية عشر مليوناً الذين هم شعب مصر .

بعد ذلك راح النحاس يشتم الملك . ولم يقل له محمد نجيب شيئاً إنما أوضح له أن الثورة قامت ومن أهدافها تحقيق الإصلاح الزراعى وقضايا أخرى على صعيد التحول الاجتماعى . ورد النحاس على الفور : لا . لا . لا .

والواقع أن جمال عبد الناصر صدم بالنحاس . إذا كان زعيم الغالبية هكذا فكيف إذاً زعماء بقية الأحزاب . وصدم أيضاً بالسياسيين القدامى وهذا ظهر خلال الفترة القصيرة التى ألف فيها على ماهر حكومته .

صدم عبد الناصر ورفاقه بالنحاس لأنهم عندما حدثوه عن الإصلاح الزراعى كان يتكلم كأنه فى ملكوت آخر . وصدموا بعدما ألف على ماهر الحكومة بالأسلوب الذى اتبعه ، وبالأسماء الطنانة الرنانة . وصدموا أيضاً لأن القوى السياسية والأحزاب عموماً لم تكن عندها فكرة عن أى عمل إصلاحى أو تغيير .

لكن الرأى العام المصرى عموماً ، استقبل الثورة برنة فرح لأنها خلصت البلد من الملك ، يضاف إلى ذلك أن هذا الرأى العام افترض أنه يمكن حدوث تغيير .

واستقبال الرأى العام للثورة بالفرح والتظاهرات التى سارت فى الشوارع هو الذى جعل الملك يشعر أن الشارع بعد الجيش ضده بالكامل .

وحدث شرخ فى الأحزاب . القيادات مترقبة . والقواعد مهتمة بالتغيير الذى حدث ومؤيدة إلى حد له . وبدأت الأحزاب تسعى للوصول بشكل أو بآخر إلى مجلس قيادة الثورة ، وبعضهم وصل عبر المستشارين الذين اختارهم المجلس . وعلى سبيل المثال السنهورى باشا الذى كان أقرب المستشارين فى ذلك الوقت إلى مجلس قيادة الثورة . وكان السنهورى رجلا ممتازاً وقانونياً ضليعاً وإن كان هناك من أخذوا عليه أنه كان تقليديا فى آرائه وهذا معقول بالنسبة إلى إنسان لا يستطيع إلا أن يعبر عن تجربته وثقافته وتعليمه وانتمائه الطبقى . . . إلخ .

وفى ذلك الوقت أيضاً حدث اجتماع بين جمال عبد الناصر وفؤاد سراج الدين . وتكررت الاجتماعات بينهما . وحاول عبد الناصر إقناع فؤاد سراج الدين بأنه مستعد لإعطائهم الحكم على شرط أن يوافقوا على تطبيق الإصلاح الزراعى . وكما رفض مصطفى النحاس رفض أيضاً فؤاد سراج الدين .

ونعود إلى موضوع الأحزاب . إن الثورة فى البداية لم تكن ضد الأحزاب . لقد

حدثت اتصالات بينها وبين الأحزاب . وطلبت من قيادات هذه الأحزاب أن تطهر نفسها . ووجهت الطلب إلى الوفد قبل أى حزب لأنها كانت تتصور أن الوفد مؤهل لتسلم الحكم . ولما لم يتجاوب أى حزب أقدمت على حل الأحزاب فى ١٥ يناير (كانون الثانى) ١٩٥٣ .

كانت الأوضاع متدهورة عشية قيام الثورة ولذلك فإن الجماهير استقبلتها برنة فرح . أما الجماهير فى العالم العربى فإنها استقبلت الثورة فى البداية بشئ من التشكيك وهذا سببه خيبة الأمل فى الانقلابات التى شهدتها سوريا . ولقد حكمت هذه الجماهير ، أو القطاع العريض منها ، على ثورة ٢٣ يوليو سلفا وتصورتها مجرد انقلاب مثل انقلاب حسنى الزعيم أو انقلاب سامى الحناوى أو انقلاب أديب الشيشكلى . كانت هذه الجماهير ضد الوضع القائم فى مصر وتتوق إلى تغيير يحدث . و لما قامت الثورة تحفظت هذه الجماهير لأسباب عدة منها أنها لا تعرف شيئا عن الذين قاموا بالتغيير ، وإلى أى مدى يذهبون فى انتمائهم إلى العروبة .

أما الولايات المتحـــدة فتقديرى أنها رأت فى الثورة عندما قامت نوعا من الانقلابات التى تشهدها دول أميركا اللاتينية .

فؤاد مطر : هل كان عدم تحرك القوات البريطانية لمواجهة الثورة مسألة عجز أم ماذا ، خصوصا إذا أخذنا فى الاعتبار أن بريطانيا شنت بعد ذلك حرباً على مصر لأن عبد الناصر أمم قناة السويس ؟

محمد حسنين هيكل :

فى رأيى ان القوات البريطانية التى كانت فى مصر عند قيام الثورة لم تتحرك لأكثر من سبب . من هذه الأسباب ان الاتجاه الشعبى يوم ٢٣ يوليو جعل الانكليز يحسبون ألف حساب للتدخل . أن تدخلهم كان سيجعل مصر تقوم بثورة ضد تدخل القوات البريطانية لضرب الثورة . من الأسباب أيضا أن الملك كان مكروهاً ونظامه أصبح مهترئاً إلى درجة أن أى طرف سيهرع لمساندة الملك والنظام سيقع تحت الانقاض . بالإضافة إلى ذلك ان الجيش بعدما سيطر الضباط الأحرار عليه أصبح قوة لا بأس بها .

فؤاد مطر : هل معنى ذلك أن ثمانين ألف عسكرى بريطانى مزودين بأسلحة ممتازة ولديهم طائرات خافوا من جيش مصر العائد مهزوما من حرب فلسطين والذى كانت أسلحته فاسدة ؟

محمد حسنين هيكل :

الجيش المصرى يوم قامت الثورة لم يكن الكتائب التسع التى خاضت بها مصر حرب فلسطين . ذلك أنه بعد حرب ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٢ تطور الجيش وزاد عدده . هذه ناحية . أما الناحية الأخرى فإننا يجب أن لا نفترض أن الثمانين ألف عسكرى بريطانى الذين كانوا فى مصر كلهم من الصنف المقاتل . لقد كانوا ثمانين ألفاً بمن فيهم المقاتلون والعمال والكتبة وعمال صيانة القاعدة الخ . . . إن عدد المقاتلين فى هذه القوات لم يتجاوز الثلاثين ألفا . وبالتالى فإن التدخل العسكرى فى مثل هذه الحال لم يكن مضمونا لأن الجيش المصرى بالمساندة الشعبية يستطيع أن يتصدى آنئذ للقوات البريطانية .

وهنالك أمر مهم . ان القوات البريطانية لو قررت التدخل كان عليها أن تحتل القاهرة . ويلزمها لتحقيق ذلك إمدادات ضخمة . ثم انها ماكانت تستطيع معالجة المشاكل السائدة آنذاك والناتجة عن حريق القاهرة . كان التدخل مغامرة عسكرية وعبئا على صعيد الوضع الاجتماعى .

وأنا قبل أن أعرف أن جمال عبد الناصر يقوم بالإعداد لثورة افترضت أن الانكليز لايمكن أن يتدخلوا . وقد تناقشت معه فى ذلك كثيراً من دون أن أعرف سر هذه المبالغة منه فى الحرص على أن يعرف ما الذى يمكن أن تفعله القوات البريطانية الموجودة فى مصر . لقد فضل الانكليز عدم التدخل على رغم أن الملك طلب منهم أن يتدخلوا .

فؤاد مطر : هنالك كلام كثير قيل من باب الافتراض ، وهو أن القوات البريطانية لم تتدخل لأن الولايات المتحدة كانت ضد هذا التدخل . ومثل هذا الكلام أعطى انطباعا أن الثورة منذ قيامها قريبة من الأميركان . الآن بعد٢٢سنة ما الذى

يمكن أن تقوله فى هذا الخصوص ، وأنت الذى رافق الثورة منذ أن كانت فكرة فى رأس عبد الناصر ؟

محمد حسنين هيكل :

كان الأميركان فى ذلك الوقت ميالين جداً إلى نظام الملك . والكلام الذى تشير إليه مستند إلى ما كتبه مايلز كوبلاند فى كتابه « لعبة الأمم » . ومايلز كوبلاند كان يعمل فى وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية C.I.A وهو نفسه يعترف بذلك . وليس هنالك شخص عمل فى الوكالة يستطيع أن يكتب أو يتحدث عن أمور متصلة بالوكالة إلا بإذن منها . معنى هذا أنه سمح للرجل ، أو طلبت الوكالة منه أن يكتب ما تضمنه كتابه .

ومايلز كوبلاند حاول كثيراً أن يبيع نفسه لثورة ٢٣ يوليو . ولدى شخصيا — وفى ملفات الدولة المصرية أيضا — مئة رسالة أو أكثر بخط مايلز كوبلاند يطلب تعيينه خبير علاقات عامة فى الخارج للثورة أو لنظام عبد الناصر . وفى بعض هذه الرسائل يقترح إصدار صحيفة فى لندن أو نشرة إعلامية ويطلب المال لتحقيق ذلك . وكل عروضه رفضت . رفضت الثورة شراءه لأنه كان على علاقة بالاستخبارات الأميركية . والكتاب الذى أصدره بتكليف على ما يبدو هدفه التشكيك بالثورة وبعبد الناصر . ومثل هذا الكلام يصدر عن شخص باع نفسه يبدو طبيعياً ، خصوصا انه يتحدث عن ثورة رفضت أن تشتريه ، والدليل على ذلك رسائله . ولكن من المؤسف ألا يعى بعض العرب مثل هذه الحقيقة .

فؤاد مطر : المعروف أن جمال عبد الناصر أجرى اتصالات مع الأحزاب السياسية قبل أن تقوم الثورة . إلى أى مدى كانت هذه الاتصالات جادة ؟

محمد حسنين هيكل :

هناك فارق بين الاتصالات ومحاولة تحسس حجم التعاون مع القوى السياسية المتعددة الميول والاتجاهات وأهميته وإمكانه . وتنظيم الضباط الأحرار كان حركة

تعمل تحت الأرض ولذا لا يمكن أن تكشف عن نفسها أمام أى حزب لأن معنى ذلك أن تعرض نفسها للخطر ، إذ قد يبلغ حزب ما عن هذا التنظيم فتتدخل السلطة وتنهى أمر التنظيم .

وكل ما حدث أن حركة الضباط الأحرار كانت تتحسس القوى السياسية لتستكشف من هذا التحرك العناصر التى يمكن أن تشارك بشكل أو آخر . لقد كانت هنالك قوى تعمل وحدها وللهدف نفسه . ولذا كان هنالك نوع من التفاهم التام غير المعلن معها .

ولنأخذ مثلا أحمد فؤاد . كان فى ذلك الوقت يعمل قاضيا . وبفضل صداقته لبعض أعضاء التنظيم فإن الآلة التى طبعت عليها المنشورات وضعت عنده بعدما تزايدت القيود من السلطة على هذه الآلات وبعدما ضاعف البوليس السياسى مراقبته .

ولنأخذ مثلا أيضاً خالد محيى الدين . انه مثل أحمد فؤاد من جماعة اليسار . ولكن هل إن خالد محيى الدين اتصل بالتنظيم اليسارى وقال لأعضائه أو للقياديين فيه أن هنالك تنظيما للضباط الأحرار داخل الجيش وأنه عضو فى هذا التنظيم ؟ أبداً لم يحدث ذلك .

إن الأحزاب كانت مخترقة من جهات كثيرة . من جماعة الملك . من الانكليز ... وبالتالى فإن الاتصالات المعلنة معها كانت خطرة . لذلك لم يحدث سوى نوع من التحسس ، وبصمت . ولم تعرف الأحزاب ولا السلطة شيئاً عن تنظيم الضباط الأحرار إلا قبل ساعات قليلة من قيام الثورة وبعدما كان التنظيم سيطر على الجيش . الأمر الوحيد الذى عرف كان أن هنالك منشورات صدرت . هذا كل شىء .

فؤاد مطر : هنالك الصدام الأول الذى حدث فى كفر الدوار بين الثورة والعمال . هل كان هذا الصدام نتيجة ضيق صدر من الثورة بالمطالب العمالية والاصلاحية مع أنك تقول أن عبد الناصر كان مستعداً لتسليم السلطة إلى من يتعهد بتطبيق الإصلاح الزراعى ، أم أنه كان مؤامرة دبرت لجعل الثورة تصطدم بالعمال وتنزلق وتشتق بعضهم ؟

محمد حسنين هيكل :

عندما بدأت ثورة يوليو (تموز) ١٩٥٢ لم تكن ثورة بالمعنى العميق . وهى عن طريق الممارسة وبالأصالة اكتشفت الواقع الاجتماعى فى مصر .

صحيح أن الثورة فى اللقاء الأول مع مصطفى النحاس طلبت تطبيق الإصلاح الزراعى . وصحيح أنها كانت مستعدة لتسليم السلطة إلى من يوافق على تطبيق الإصلاح الزراعى . لكن اصطدام الثورة بالعمال لم يكن اصطداماً بالمعنى الحقيقى .

وقبل أن نعالج هذه المسألة أرى أن نتحدث قليلا فى مسألة الإصلاح الزراعى لأنها تقودنا إلى مشارف الاصطدام الذى حدث مع العمال .

إن جمال عبد الناصر لم يكن المبادر فى طرح مسألة الاصلاح الزراعى . وقبل الثورة طرحت فكرة تحديد الملكية . طرحها محمد خطاب فى مجلس الشيوخ . وعلى رغم أن الرجل اتهم فى ذلك الوقت بالجنون فإن الدعوة لقيت استجابة كمنطق إصلاحى .

وفى البداية جاءت الثورة بمنطق الحركة الاصلاحية وليس بمنطق الثورة . المنطق الاصلاحى هو إصلاح ما هو قائم . والمنطق الثورى هو تغيير ما هو قائم . وهناك فارق كبير بين المنطقين . جاءت الثورة متمردة على ما هو قائم راغبة فى التصحيح والاصلاح . طالبت بتطبيق الإصلاح الزراعى لأنه كان فكرة مطروحة .

ان صورة الوضع الاقتصادى والسياسى والاجتماعى فى مصر لم تكن واضحة تماماً أمام الذين قاموا بثورة ٢٣ يوليو . كانوا متمردين على أوضاع قائمة من دون أن تكون لديهم عقيدة أو فكرة عقائدية واضحة أو تصور عقائدى واضح لما يجب أن تكون عليه الأوضاع .

وتدليلا على أن الثورة بدأت بالمنطق الإصلاحى ، أن الشعار الذى طرحته فى البداية كان : « الاتحاد . النظام . العمل » . ومثل هذا الشعار ليس ثورياً إنما هو شعار إصلاحى . ولو كان منطق الثورة ثورياً لكانت طرحت شعاراً آخر .

باختصار كانت رؤية الثورة فى البداية إصلاحية ، أى تحسين ما هو موجود ، وتصحيح ما هو خطأ ، وجمع شمل الناس الذين تمزقهم الأهواء ، والتيارات والخلافات ، وتشغيل الذين يبحثون عن عمل ولا يجدونه .

وعلى رغم انتماء جمال عبد الناصر الطبقى إلا أن الرجل فى البداية كانت تنقصه العقيدة المتكاملة . وهو فى هذه الفترة اصطدم بالعمال لكنه كان اصطداماً فى الظلام . عملياً لم يكن هنالك تناقض بين جمال عبد الناصر والعمال كطبقة بدليل أن العمال بعدما عرفوا أفكاره أصبحوا الركيزة الأساسية لنظامه .

حدث الصدام فى الظلام بين طرفى قضية واحدة . بين جمال عبد الناصر والعمال لماذا ؟ لأنه لم يحدث حوار بين الطرفين . حتى لو حدث الحوار بين عبد الناصر والقيادات العمالية لما كان انتهى إلى غير الصدام . وهذا سببه نوعية القيادات .

من كانت تلك القيادات ؟

كان زعيم العمال الذى يتصدر الحركة النقابية فى يوم من الأيام هو النبيل عباس حليم الذى يمثل الأسرة المالكة . أليس غريباً أن يكون ممثل الطبقة العاملة المقهورة هو عباس حليم ؟ أليس غريباً جداً أن يكون القاتل والقتيل هو شخص واحد . بالإضافة إلى ذلك ان فؤاد سراج الدين باشا بويع زعيما للحركة العمالية فى مصر مدى الحياة . وأنا شخصياً أعتبر فؤاد سراج الدين صديقاً لى ولكن هذه مسألة شخصية تختلف عن رأيى فى مسألة مبايعته زعيما للحركة العمالية .

فى ذلك الوقت كانت الحركة العمالية عبارة عن نحو ١٨٠ ألف عامل تضمهم نقابات هزيلة .

وكان الشيوعيون من أنشط العناصر فى هذه الحركة العمالية . وكانت نظرة الشيوعيين إلى الثورة عندما قامت أنها مجرد انقـــلاب فاشيستى وهو التصنيف الماركسى التقليدى ، وأن الجيش هو أداة قهر وليس أداة تغيير . لم ينظر الشيوعيون إلى احتمالات التطور الممكنة وحكموا سلفاً بقساوة على الثورة . وبدأوا يصدرون المناشير التى تهاجم الثورة . كذلك نشطوا وسط القواعد الشعبية وقادوا حملة ضد الثورة . وهذه النظرة تبدلت بعد ذلك . وكانت فى الأصل متوافقة مع نظرة الاتحاد السوفياتى الذى بدل نظرته أيضاً إلى دور الجيوش فى العالم الثالث كأداة تغيير فى ظل اشتراطات معينة .

ولو حدث حوار بين الثورة والعمال لما كان للصدام أن يحصل ، ولكان

الطرفان اكتشفا أنهما ليسا متناقضين . ومن هنا القول ان ما حدث فى كفر الدوار كان نوعاً من الصدام فى الظلام بين طرفين يحملان الأمانى نفسها تقريباً لكن الافتقار إلى الحوار جعلهما يظهران ، بل يتصرفان كخصمين .

لقد طرحت الثورة شعار « الاتحـــاد والنظام والعمل » . ووقع التصرف فى كفر الدوار بشىء من التحدى للسلطة الجديدة . ووجدت السلطة فيه ما يتنافى والشعار المطروح . ورأت فيه عملا يخل بالوحدة الوطنية ويعطل العمل والانتاج . وبالتالى حدث الصدام .

فؤاد مطر : حدث بعد ذلك أن وضع تشريع بمنع الفصل التعسفى . وهو تشريع لمصلحة العمال فى الدرجة الأولى . هل كان ذلك ردا على أحداث كفر الدوار وعملية تكفير ، أم أنه كان من جملة قناعات جمال عبد الناصر كموضوع الاصلاح الزراعى مثلا ؟

محمد حسنين هيكل :

فى تقديرى ان التشريع لم يكن ردة فعل أو عملية تكفير . أبداً. إن جمال عبد الناصر عندما قام بالثورة كانت تدور فى ذهنه بعض المبادىء والأفكار الإصلاحية . وبالتحديد كانت هنالك ستة مبادىء وأفكار . والتشريع الذى يمنع الفصل التعسفى كان استيحاء من مضمون أحد هذه المبادىء .

ولقد سمعت من عبد الناصر مرارا أنه لم يكن هنالك وقت لدى الثورة للمناقشات وأنه ليس عندها برنامج محدد ، باستثناء بعض الأمور الأساسية ومنها تطبيق الإصلاح الزراعى وحماية حقوق العمال .

إذاً لم يجمع عبد الناصر أعضاء مجلس الثورة ليناقش معهم موضوع إيجاد خطوة ترضى العمال فى أعقاب ما حدث فى كفر الدوار . ولو كانت مثل هذه المناقشة حدثت لما كان حصل إجماع عليها . كان التشريع عفوياً . وكان أحـــد المبادىء الستة . وكان جمال عبد الناصر سيضعه موضع التنفيذ سواء أحدثت عملية كفر الدوار أم لم تحدث .

فؤاد مطر : عام ١٩٥٢ بدأ الصراع حول الموقف من كبار ملاك الأرض . وكان هنالك اتجاهان . اتجاه يرى تحديد الملكية بمئتى فدان (الإصلاح الزراعى الأول) . واتجاه ينادى بإحداث ضرائب تصاعدية .

ما مدى ما كشف عنه الصراع داخل مجلس قيادة الثورة حول الاتجاهين ... وبالذات اتجاه الملكية ؟ وماذا كانت آثار الصراع على علاقة الثورة بالقوى السياسية والأحزاب التى كانت قائمة وبالتحديد حزب الوفد الذى كانت الثورة ميالة إلى التعامل معه ؟

محمد حسنين هيكل :

تقتضى الإجابة عن ذلك إلقاء نظرة سريعة على حكومة على ماهر وكيف ألفها لأن ما نتحدث عنه جرى خلال الولاية القصيرة لهذه الحكومة .

إن على ماهر كان فى استمرار رجل القصر . وهو ليس له حزب لكنه فى أواخر عمله السياسى سجن واتخذ موقفا من الإنكليز واتهم بالتواطؤ مع الألمان . وفى النهاية أنشأ تجمعاً ، أو حزباً ، سماه « جبهة مصر » وتقدم ببرنامج إصلاحى . وقبل أن يقصيه القصر على إثر عمليات صراع على السلطة مع أحمد حسنين باشا ، كان له بعض الشأن . ولم يفده إنشاء « جبهة مصر » فى شىء .

وكان الانطباع السائد عن على ماهر فى ذلك الوقت أنه يستطيع تأليف حكومة ائتلافية بصرف النظر عن عدائه المستجد للقصر .

ولما كانت لدى الثورة رغبة فى أن تتبدل حكومة نجيب الهلالى لأن فى ذلك تأكيداً لكون سلطة جديدة بدأت وفرضت قراراتها ...

ولما كان المؤهلون لتأليف حكومة جديدة قلة وأفضلهم على ماهر ، فقد طلب منه تأليف حكومة جديدة .

ولم يكن على ماهر فى ذلك الوقت يعرف شيئاً عن الثورة ولا يعرف من هى قيادتها . فى بدء الأمر تصور أن محمد نجيب قائد الثورة ووثق صلته به . وافترض بعد هذا التوثيق أنه حقق ما يريد وما يجعله يبقى رئيساً للوزراء طويلا . ثم اكتشف

أن هنالك آخرين يأخذ محمد نجيب برأيهم ويسمع كلامهم ودخـــل فى دوامة من الحيرة .

وبعد أيام حمل على ماهر الذى كان رجل القصر الإنذار إلى الملك فاروق وكان سعيداً جداً بهذه المهمة .

وبدأ أعضاء مجلس قيادة الثورة يتساءلون : الملك غادر وانتهى أمره . وهنالك حكومة جئنا بها ويجب أن تقوم بدورها المطلوب .

وكما عرض على مصطفى النحاس وعلى فؤاد سراج الدين موضوع تطبيق الإصلاح الزراعى فإن مجلس قيادة الثورة طلب من حكومة على ماهر أن تباشر العمل لتطبيق الإصلاح الزراعى .

وقال على ماهر : لا . إن تحديد الملكية مسألة ضد الدستور وليس ممكناً أبداً تطبيق ذلك . الأفضل العمل بمبدأ الضرائب التصاعدية .

وعرض مجلس قيادة الثورة وجهة نظره . وكانت مناقشة من النوع المحتدم استغرقت عشرة أيام . ولم يتراجع على ماهر عن رفضه .

وحدث بعد ذلك اتصال مع فؤاد سراج الدين . عرض عليه أن يؤلف الوفد الحكومة وفضل أيضا فكرة الضرائب التصاعدية .

وجاء على ماهر بالتعاون مع بعض الفنيين واقترح أن يكون الحد الأقصى للملكية ٥٠٠ فدان . وقال عبد الناصر أنه مصمم على أن يكون الحد الأقصى ٥٠ فداناً فقط . ثم تساهل ووافق على أن يكون الحد الأقصى مئة فدان . واحتدمت المناقشات من جديد وتقرر أن يكون الحد الأقصى ٢٠٠ فدان .

ولم يكن على ماهر راضيا فى قرارة نفسه عن ذلك . وقد ظهر ذلك عندما طلب منه إدراج قانون الإصلاح الزراعى الذى صاغه سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة آنذاك ، فى جدول أعمال مجلس الوزراء ، رفض على ماهر إدراج القانون .

وأذكر أننى توجهت إلى على ماهر فى ذلك الوقت . كان عنده إدجار جلاد باشا . وهو كان يعرف أن هنالك صلة بنى وبين ضباط الثورة وأننى أقابلهم .

كنت متحمسا فى ما مضى بعض الشئ لعلى ماهر خصوصا بعدما سجن . وبعد خروجه من السجن زرته مع السيدة روز اليوسف ، التى حاولت إقناعى

وقتها بأنني سأرى فيه « نمر » السياسة المصرية ، لكنني بعد اجتماعي به فقدت إعجابي به وحماستي له .

فى ذلك الاجتماع سألني : هم أصحابك دول مصممين على تحديد الملكية ليه ؟

وحاولت أن أوضح له أن المسألة جزء من مخطط اجتماعي . ولم يقتنع . بعد ذلك سألني عن القائد الحقيقي للثورة . ولكى لا يحرجني قال لى إنه يعتقد أن القائد الحقيقي هو جمال عبد الناصر وقال أيضا إنه بالملاحظة عرف ذلك . فهو اجتمع بهم ثلاث مرات قدموا خلالها إليه تصوراتهم لما يريدون من الحكومة تحقيقه مثل الإصلاح الزراعي وكهربة خزان أسوان ، فلاحظ أنه عندما يقول شيئا لم يكن محمد نجيب يرد عليه قبل أن ينظر إلى جمال عبد الناصر . وعندما كان على ماهر يرد على محمد نجيب يتطلع فى وجه عبد الناصر ليرى رد فعله على كلام رئيس الوزراء .

وبعدما وافقته على أن ملاحظته فى محلها وأن عبد الناصر بالفعل هو القائد الحقيقي للثورة طلب منى أن أبلغه موافقته — أى موافقة على ماهر — على إدخال قانون الإصلاح الزراعي فى جدول أعمال الجلسة المقبلة لمجلس الوزراء .

وأبلغت عبد الناصر ما حدث خلال اجتماعي بعلى ماهر .

لكن على ماهر لم ينفذ ما تعهد به ، ذلك أن كبار الملاك ومنهم وزراء فى حكومته ووجهاء عائلات إقطاعية كثيرة ، أقاموا الدنيـــا لمجرد أن عرفوا بأن على ماهر سيدرج قانون الإصلاح الزراعي فى جلسة مجلس الوزراء .

واتصل بى عبد الناصر آنذاك وقال : لقد عقد مجلس الوزراء جلسة ولم يدرج قانون الإصلاح الزراعي فى جدول أعمال الجلسة كما تعهد على ماهر . هل هذا معقول ؟

وقرر مجلس قيادة الثورة بعد التشاور أن التعاون غير ممكن مع على ماهر . وقال سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة لعبد الناصر والآخرين ان موضوع تطبيق الإصلاح الزراعي لن ينفذ إلا إذا تولى رئاسة الوزراء أحدكم .

وأذكر ان مجلس قيادة الثورة قرر بعدها أن يتولى محمد نجيب رئاسة الوزراء وأن عليه إبلاغ على ماهر الأمر .

وتحمس محمد نجيب فى البداية وتوجه لإبلاغ على ماهر ما تقرر لكنه خلال اجتماعه به تهيب وقال له ما معناه ان رأى الأخوان فى المجلس هو ... ولم يكمل العبارة . ورد عليه على ماهر بما معناه ان الحكومة تنفذ كل شئ . وقال له محمد نجيب عند ذلك : « طيب حاضر يا فندم » . وغادر محمد نجيب الاجتماع من دون أن يبلغ على ماهر ما قرره مجلس الثورة .

فى اليوم التالى طلب عبد الناصر من محمد نجيب التوجه إلى على ماهر لإبلاغه وكلف بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة مرافقته .

وهذه المرة قال محمد نجيب لعلى ماهر : إن أخواننا يرون أن المسائل بهذه الطريقة لا تسير كما يجب ويرون أنه لابد من التغيير .

وقال على ماهر : لا . أبداً . ليطمئن الأخوان إلى أن كل الأمور ستسير على ما يرام . وفى الجلسة المقبلة لمجلس الوزراء سننفذ كل شئ يريدونه . وستتحرك البلد . وعليهم ألا يقلقوا . حنعمل كل حاجة إن شاء الله .

وخرج محمد نجيب ومن معه من دون أن يوضحوا لعلى ماهر أن القرار المتخذ هو أن يترك رئاسة الحكومة . إلى أن تولى المهمة جمال سالم . ذهب مع محمد نجيب إلى على ماهر وقال له إننا كمجلس قيادة ثورة نرى أنه يجب تغيير الحكومة .

حتى تلك اللحظة كان على ماهر متصورا أن مجلس قيادة الثورة يرى أن تتبدل الحكومة بحيث يؤلف حكومة جديدة يخرج منها عددا من الوزراء .

وتدليلا على ذلك فإنه قال لجمال سالم : طبعا إذا كان فى الحكومة عناصر لا تريدونها فمن السهل الاستغناء عنها . وإذا كان من رأيكم إدخال عناصر معينة فى الحكومة فهذا أمر سهل .

وفى هذه اللحظة تدخل محمد نجيب وقال لعلى ماهر : اخواننا رأيهم إننى أنا أمسك .

وقال له على ماهر : تمسك إيه ؟

فرد جمال سالم : يعنى يمسك الوزارة .

وقال على ماهر : يبقى رئيس وزارة يعنى . وأنا أستقيل ؟

ولم يستوعب على ماهر أن المطلوب منه أن يستقيل سوى فى الاجتماع الثالث .

فؤاد مطر : نلاحظ أن جمال عبد الناصر كان يستعجل إلغاء الألقاب . ما تفسير هذا الاستعجال ؟

محمد حسنين هيكل :

مادام الملك هو الذى كان يوزع هذه الألقاب ، وما دامت الثورة استهدفت النظام الملكى معتبرة أنه فاسد .. فمن الطبيعى إذاً إلغاء الألقاب التى كانت مظهرا بشعاً من مظاهر الملكية فى مصر .

لقد قامت الثورة وأصبح من غير الطبيعى الإبقاء على الألقاب التى أعطاها حاكم مطرود . يضاف إلى ذلك أن جمال عبد الناصر كان يرى أن الألقاب مظهر من مظاهر التمييز والتفرقة بين الناس .

والقرارات الأولية التى صدرت هى فى الواقع إيماءات وإشارات إلى نزعات فى نفس عبد الناصر لكنها ليست متبلورة على أساس علمى . إن تطبيق الإصلاح الزراعى واستعجاله التنفيذ ، وإلغاء الألقاب واستعجاله إصدار القرار ، هذه الأمور وغيرها قيمتها الحقيقية أنها كانت إيماءات مبكرة إلى أمور كثيرة تحققت بعد ذلك ومحورها المساواة .

فؤاد مطر : لو عدنا إلى بداية الثـــورة لوقفنا على حقيقة مثيرة بعض الشئ . ان المعركة التى خاضتها الثورة مع الأحزاب شملت كل الأحزاب الوطنية والرجعية .. حتى الشيوعيين ، فى حين ان الثورة هادنت الأخوان المسلمين وأخرجتهم من إطار الأحزاب إلى إطار الجمعيات كى لايطبق عليهم قانون تنظيم الأحزاب .

لماذا فعلت الثورة ذلك ؟ وهل أن إفراغ الحقل السياسى من كل الأحزاب ما عدا الأخوان المسلمين يمثل خطة للثورة فى ذلك الوقت وهى الاعتماد عليهم ؟

وإذا كانت تلك خطة محددة فعلى أى أساس كانت الثورة تتصور إمكان الوئام بينها وبين الاخوان . هل على أساس أن هنالك أفكارا واتجاهات مشتركة . أم نتيجة الارتباطات التى كانت بين الاخوان وكل من جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين وآخرين .

حتى أن هنالك من يؤكد أن عبد الناصر قبل أن يقوم بالثورة شارك فى إنشاء الميليشيا السرية المسلحة للاخوان ؟

وثمة نقطة أخيرة : إذا كانت تلك خطة محددة ، ما سبب عدم نجاحها بدليل التصادم الذى حدث بعد ذلك بين الثورة والاخوان ؟

محمد حسنين هيكل :

الحديث عن هذا الأمر يقتضى إلقاء نظرة على الساحة السياسية عام ١٩٥٢ . فى تلك الفترة كانت هنالك قوى عدة : الإنكليز والقصر على القمة . والأحزاب التقليدية الأربعة للطبقة المتوسطة : الوفد ، الأحرار الدستوريون ، السعديون ، الكتلة) . ثم هنالك الأخوان والشيوعيون : الأحزاب الأربعة تمثل تقريبا طبقة واحدة مع اختلافات طفيفة فى الواقع . وكان الوفد أقرب الأحزاب الأربعة إلى جماهير الشعب . أما الأخوان المسلمون فيمثلون التيار الدينى ويتخذون موقفاً على اليمين فى حين أن الشيوعيين يقفون إلى اليسار .

وكانت الأحزاب الأربعة شبه متهالكة فى حين أن الأخوان المسلمين كانوا يتحركون بشكل منظم . كذلك الحال بالنسبة إلى الشيوعيين .

وكان الأخوان المسلمون فى تلك الفترة يحاربون الفساد المستشرى فى الدولة وينادون بمبادئ . ثم دخلوا فى عمليات إرهابية دفعوا ثمنها غاليا لأن حكومة إبراهيم عبد الهادى ضربتهم بقسوة انتقاماً لاغتيال النقراشى على يد شاب متحمس من الأخوان ربما للقسوة التى مارسها النقراشى مع الأخوان . وربما لأن دوره فى حرب فلسطين كان متخاذلا .

وبلغ الانتقام ذروته عند اغتيال المرشد العام للأخوان حسن البنا أمام جمعية الشبان المسلمين . وقد أطلق عليه الرصاص بتدبير من القائمقام « وصفى بك » ونقل إلى مستشفى القصر العينى . وبدلا من أن يسعفوه فى المستشفى تركوه ينزف بقصد أن يموت . وكانت تلك مأساة هزت كثيرين .

كان الأخوان المسلمون ينادون بإصلاح الدولة ويحاربون الفساد وقد لجأوا إلى العنف لتحقيق دعوتهم . صحيح أن حسن البنا لم يكن بعيدا عن عملية اغتيال النقراشى لكن هنالك فارقاً بين أن يخطط زعيم حزب لاغتيال رئيس الوزراء وبين أن يتولى رئيس وزراء إعداد عملية لاغتيال زعيم حزب .

ومعرفة عبد الناصر بالأخوان المسلمين تعود إلى حرب فلسطين . كان الأخوان أرسلوا متطوعين من تنظيمهم إلى فلسطين . وقد شارك عبد الناصر فى ذلك الوقت فى تدريب هؤلاء المتطوعين . والفارق كبير بين أن يدرب متطوعين من الأخوان ، وأن يشارك فى إنشاء الميليشيا السرية الاخوان كما تقول . درب عبد الناصر هؤلاء المتطوعين وأعطاهم السلاح . وكان هذا موقفاً طبيعياً من ضابط وطنى مثل جمال عبد الناصر .

وفى العام ١٩٥١ أعطى عبد الناصر السلاح لمتطوعين من الأخوان حاربوا فى القناة . وهنالك ضباط آخرون فعلوا الشئ نفسه وكانوا مهتمين بدعم الأخوان لأنهم يحاربون الإنجليز . عبد اللطيف البغدادى مثلا واحد من هؤلاء .

أكرر أن عبد الناصر درب متطوعين من الأخوان ، وأعطاهم السلاح . أما أن يكون بين هؤلاء من هو فى الجهاز السرى للأخوان فتلك مسألة أخرى .

وعندما قامت الثورة كان الوضع السياسى كالآتى : طلب من الأحزاب التقليدية أن تنفذ الأفكار الإصلاحية كالإصلاح الزراعى ، فرفضت هذه وبدأت تعرقل التنفيذ . وفوق ذلك ان قضايا الفساد والرشوات وصفقات القطن كانت منسوبة إلى شخصيات كبيرة أو وزراء فى هذه الأحزاب . أما الشيوعيون فإن مشكلتهم كانت فى الموقف العدائى الذى اتخذوه واستعجلوا اتخاذه ، والذى قاد إلى الصدام الأول فى كفر الدوار . يبقى الأخوان المسلمون . هؤلاء هادنوا وكانوا فى نظر الناس ونظر الثورة نفسها قوة وطنية لاقت الكثير من الاضطهاد فى الحكم الملكى ، فضلا عن أنها شاركت فى حرب فلسطين وحاربت الإنكليز فى القناة .

وعندما طلبت الثورة من الأحزاب أن تطهر صفوفها كان رد فعل تلك الأحزاب مضحكا . وكان واضحا أنها لا تريد أن تتجاوب مع الثورة أو أنها تحاول نصب المكامن لها .

وكان طبيعياً أن يكون هنالك لفترة نوع من التفاهم أو التعايش بين الثورة والشيخ حسن الهضيبى الذى انتخب مرشداً عاما للأخوان المسلمين خلفاً لحسن البنا .

واستمر هذا التعايش إلى أن بدأ الصدام لأن الثورة قررت حل الجهاز السرى للأخوان ، ولأنها فى مرحلة من الحوار رفضت أن تطبق مبادئ الأخوان ، واعتبرت أن هنالك نوعا من محاولة فرض الوصاية عليها .

... وتطور الصدام أكثر فأكثر .

الفصل الرابع

الصراع مع الأميركان
وصفقة السلاح الروسي

فؤاد مطر : فى الرؤيا الأولية لجمال عبد الناصر أنه لم يكن يرى الاستعمار إلا فى « الاستعمار الانكليزى » . وكان يستعمل من حين إلى آخر عبارة « الاستعمار الروسى » . وفى الوقت نفسه لم يكن يعتبر أن الولايات المتحدة ذات مصالح استعمارية فى المنطقة .
على أى أساس كانت هذه الرؤيا وكيف تغيرت بعد ذلك . وهل التغيير شمل كل أعضاء مجلس قيادة الثورة أم اقتصر على عبد الناصر وحده ؟

محمد حسنين هيكل :

الولايات المتحدة فى الخمسينات غير الولايات المتحدة بعد ذلك . كانت الولايات المتحدة خارجة من الحرب العالمية الثانية ، والعالم معجب بها . وظهرت أمام الناس مظهر الساعية من أجل تحرير العالم من الجوع ومساعدة حركات الاستقلال الوطنى . وقد اتخذت موقفا إيجابيا فى هذا الاتجاه عندما وقفت ضد فرنسا فى مسألة الهند الصينية ، واتخذت موقفا آخر لمصلحة أندونيسيا ضد هولندا .

كانت الفكرة السائدة عن الولايات المتحدة أنها مع حركات الاستقلال . ولم يكن أحد يتصور أن أميركا تحارب الدول الاستعمارية التقليدية لكى تحل محلها . ولم يكن فى قدرة أحد أن يتحدث عن استعمار لم يره إنما يتحدث عن استعمار يعيشه . غاندى لم يتحدث إلا عن الاستعمار الانكليزى . نهرو لم يتحدث إلا عن الاستعمار نفسه . وجمال عبد الناصر قام بالثورة والاستعمار الانكليزى قائم فى مصر . ولذا فن الطبيعى أن يركز على هذا الاستعمار الذى يعيشه .

وقبل فترة كنت أقرأ وثائق الخارجية الأميركية من ١٩٤٥ إلى ١٩٧٠ ولاحظت أن الصراع بين الانكليز والأميركان فى تلك الفترة كان حول قضيتين ، يريد الأميركان تسهيلات مرور فى المنطقة . هذه قضية . والقضية الأخرى هى اندفاعهم

للحصول على امتيازات للتنقيب عن النفط فى المنطقة . وكل المراسلات بين وزيرى خارجيتى البلدين متعلقة بهاتين القضيتين .

ومثل هذا الصراع لم يكن يعنى لعبد الناصر شيئاً . الذى يعنيه هو أن الاستعمار الانكليزى يطبق منذ سبعين سنة على صدور المصريين ومهمته أن يخلص البلد من هذا الاستعمار .

كان عبد الناصر يرى الأمر ببساطة كالآتى . ان مصر تحت ظل الاستعمار الانكليزى . وكانت قبل ذلك تحت السيطرة العثمانية . والفرنسيون حاولوا غزو مصر .

كان يرى الاستعمار متمثلا فى الدول الأوروبية التقليدية . يراه فى انكلترا . فى البرتغال . فى فرنسا . فى هولندا .

أما أميركا فكانت فى تلك الفترة شيئاً آخر . كانت فى سبيل تحقيق نوع من الاستعمار المتطور هو الاستعمار المالى . ولذا كان من الطبيعى ألا ينظر إليها عبد الناصر نظرته إلى انكلترا مثلا . الشىء نفسه حدث مع نهرو . وحدث مع سوكارنو . كلهم تحدثوا عما هو قائم وليس عما هو محتمل الحدوث .

أما بالنسبة إلى روسيا فإن استعمال عبد الناصر عبارة « الاستعمار الروسى » كان له أيضاً ما يبرره . فى تلك الفترة كان هنالك نوع من التغلغل الروسى . وكانت حدثت حرب أهلية فى إيران بسبب مساندة الروس لجمهورية جعفر بيشفارى . لذلك ظهر واضحا فى تلك الفترة أن الروس ينشطون لتوسيع نطاق نفوذهم .

وبدأت الولايات المتحدة تتغير . وأذكر أنه عندما جاء جون فوستر دالس وزير خارجية أميركا إلى القاهرة عام ١٩٥٥ تحدث مع عبد الناصر فى مسألة الاشتراك فى حلف ضد روسيا .

وأجابه عبد النـــاصر أنه لا يفكر الآن إلا بالثمانين ألف عسكرى انكليزى المرابطين فى مصر .

ورد عليه دالس قائلا ما معناه أن الخطر الروسى يهدد الجميع . وهنا قال له عبد الناصر : أنا مستعد للتسليم معك بأنه خطر . ولكن كيف تطلب منى أن أحارب الخطر البعيد خمسة آلاف ميل عنى وأترك الواقف على بعد مئة ميل منى ؟

ان عبد الناصر لم يكن يتحدث إلا عن « الاستعمار الانكليزي » لأنه لم يكن يشعر إلا بالاستعمار المنظور . وأميركا في تلك الفترة كانت القوة التي تشجع حركات الاستقلال . وكانت أيضا القوة التي لعبت الدور الأكبر في القضاء على الفاشية والنازية .

وعندما بدأت الولايات المتحدة تمارس دورها الامبريالي تصدى لها جمال عبد الناصر وعاملها على أنها الاستعمار الجديد .

فؤاد مطر : من الواضح أن عبد الناصر كان يركز كمهمة أولى للثورة على تصفية الاستعمار البريطاني الذي دام أكثر من ثمانين سنة .

على أي أساس وضع عبد الناصر هذه القضية في رأس الأولويات؟ وماذا كانت خطته في ذلك سواء في حال الفشل أو قبول حل وسط . وعلى أي قوى وأسس كان يبني هذه الخطة . وماذا كان سيحدث لو لم ينجح ؟

وما هي آثار المعاهدة التي تم توقيعها في ١٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٤ على الواقع المصري والقوى المتصارعة فيه ، وعلى الواقع العربي ... ثم على عبد الناصر كقيادة داخل مجلس الثورة وكقيادة شعبية أمام الجماهير ؟

محمد حسنين هيكل :

كان الهدف الأول للثورة هو تحقيق آمال الشعب المصري . وقبل أن يقوم جمال عبد الناصر بالثورة كان يرى أن الذي يحول دون تحقيق أماني الشعب المصري عبارة عن عقبتين : الأولى هي الوضع الداخلي المصري بسلطته المحلية المتمثلة بالقصر ، والأحزاب التي هي في الواقع أحزاب الطبقة الغنية المتعاونة مع الاستعمار . أما العقبة الثانية فكانت الاحتلال البريطاني . وهنالك بالطبع العقبة الثالثة وهي التخلف .

وعندما قرر عبد الناصر أن يقوم بالثورة كانت وجهة نظره أن العقبتين الأولى والثانية هما مصدر الخطر على الثورة وتشكلان قلقاً عليها . فالسلطة المحلية يمكن أن تواجه الثورة بالمعارضة المسلحة تدعمها الأحزاب . ويأتي الاحتلال

الانكليزى بعد ذلك كاحتمال وارد للتدخل وإن كانت حساباته فى الأيام التى سبقت الثورة أن احتمال التدخل ليس قوياً .

وعلى هذا الأساس قرر أن يزيل العقبات واحدة بعد الأخرى .

كان هذا منطقه يوم قامت الثورة . وحول هذا المنطق قال أنه فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قام بانقلابين . الأول كان استيلاء الجيش على السلطة . وهذه عملية استغرقت نحو ثلاث ساعات ، من منتصف الليـــل إلى الثالثة فجر اليوم الأول للثورة . أما الانقلاب الثانى فكان نقل الجيش من سلطة الملك إلى الشعب وهذه عملية استغرقت تسع ساعات من الثالثة فجر يوم الثورة إلى الثانية عشرة ظهراً . والجيش كان العصا التى يضرب بها الملك قوى الشعب .

وكما أن الخطوة الأولى نجحت فإن الخطوة الثانية نجحت أيضا حيث أن الجماهير قامت بتظاهرات تأييد لما حدث من دون أن يتعرض لها الجيش وأصبح الملك فى عزلة تامة ليس عنده ما يقاوم به .

وبعدما تحقق هذا الوضع شعر عبد الناصر أن الثورة فى مأمن . وفى الوقت الذى بدت الثورة مطمئنة إلى أنها تجاوزت حقل الألغام الكبير بانتزاعها الجيش من الملك ، كان الملك يجرى اتصالات بالأميركان والانكليز لمساعدته . وعندما توجه إليه رئيس الوزراء آنذاك نجيب الهلالى قال له : أنت أمام أمرين . إما أن تتعاون مع هذه الحركة العسكرية التى تستهدف إصلاح الجيش وإما أن تفعل ما فعله عمك توفيق باشا أى تستعين بالانكليز . وأشك أن الانكليز فى قدرتهم أن يساعدوك

وكان الانكليز أبلغوا الملك بعدما أوفد مبعوثاً إليهم لطلب النجدة ، أن أقرب مدمرة لهم موجودة فى مياه مالطه .

تلك كانت صورة الموقف يوم قام عبد الناصر بالثورة . وبعدما أزيلت العقبة الأولى بسهولة أصبحت العقبة الثانية ، أى الاحتلال الانكليزى ، شـــاغله الأساسى . وبعد مغادرة الملك الأراضى المصرية وتهاوت كل القوى التى يمكن أن تشكل معارضة أساسية للوضع الثورى الجديد ، أصبح عبد الناصر يرى أن المهمة الأساسية هى أن يواجه الاحتلال .

وتدليلا على أن هذه المهمة أساسية وأنها الهـــدف الأول للثورة ، لم ينتظر عبد الناصر كثيراً ليبدأ حربه على الاحتلال الانكليزى . ونجده فى نوفمبر (تشرين

الثانى) ١٩٥٢ يحدد الهدف نهائياً فى الخطبة التى قال فيها ان على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل .

وبدأ عبد الناصر يبحث عن السلاح للجيش . وفى ذلك الوقت كان أمامه مصدران . بريطانيا التى لايمكن أن تعطيه . وأميركا التى أظهرت فى بداية الثورة نوعاً من حسن النية . أما الاتحاد السوفياتى فكان مشغولا بإزالة آثار الحرب العالمية الثانية ، وكان كل هم ستالين أن يعزز مواقعه فى شرق أوروبا . وباختصار لم يكن للاتحاد السوفياتى أى دور خارجي فى تلك الفترة .

ما الذى يفعله عبد الناصر إذاً ما دام وضع هدفاً أساسياً للثورة هو إنهاء الاحتلال الانكليزى لمصر ، وما دام أمام مصدرين للسلاح هما — بريطانيا — التى لن تعطيه — وأميركا ؟

وجد عبد الناصر أن عليه تحقيق ما يريده وهو الحصول على السلاح من خلال التحرك فى دائرة التناقضات الأميركية — البريطانية . وفى تلك الفترة كانت التناقضات بين أميركا وبريطانيا بدأت تأخذ حجماً معيناً . ووثائق الخارجية الأميركية التى نشرت قبل سنة عن تلك الفترة توضح أن التناقض كان يدور حول أمرين : المواصلات ، وامتيازات البحث عن النفط .

وكان الصراع صامتاً بينهما لكنه فى حدود مصلحة مشتركة لا تخلو من التناقضات وكان عبد الناصر فى حاجة إلى السلاح لمقاومة الانكليز لأن مقاومة اسرائيل كانت مؤجلة فى تفكيره آنذاك . ومنطقه فى ذلك أن الجيش المصرى المتوجه لمقاومة اسرائيل عليه أن يمر فى منطقة قناة السويس ، ومعنى هذا أنه مكشوف لأن الاسرائيليين أمامه والانكليز وراءه .

وحاول الأميركان استغلال هذه الرغبة فى نفس عبد الناصر فأوفدوا وليم فوستر وكيل وزارة الدفاع الذى لم تكن مهمته ناجحة ، والذى ترك انطباعاً سيئاً لدى عبد الناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة الذين اجتمع بهم خلال زيارته للقاهرة فى عشاء خاص .

وحدث فى تلك الزيارة أن وليم فوستروعد بأن تقدم أميركا أسلحة إلى مصر فى مقابل بضائع ، لكن حكومته قالت بعد ذلك أن وليم فوستر أعلن ما أعلنه وهو يدخن السيجار بعد العشاء وخرج كثيراً عن اللازم .

المهم أنه بعد زيارة وليم فوستر إلى القـاهرة حدثت خطوتان . الأولى أن عبد الناصر أوفد إلى واشنطن سكرتيره لشؤون الطيران على صبرى لكى يطلع على أنواع الأسلحة التى نريدها من الأميركان . وفى ذلك الوقت ذهبت أنا إلى واشنطن . ويوم زيارتى لواشنطن كانت أميركا مشغولة بالانتخابات لأن ولاية ترومان قاربت على الانتهاء ، وهناك ايزنهاور الذى رشح نفسه . وفى تلك الفترة كان وزير خارجية أميركا هو دين اتشيسون . وكان واضحاً أنه ما دام هنالك عهد جديد فإن عهد ترومان لن يقرر شيئاً بالنسبة إلى مسألة السلاح الذى نريده . وبعد اجتماع فى وزارة الخارجية قيل لى أنهم تركوا توصية للإدارة الجديدة لتنظر فى طلب مصر الحصول على السلاح . ثم أبلغونى أنهم رتبوا لى مقابلة مع الجنرال أولمستيد الذى كان يشرف على برامج المساعدات الخارجية العسكرية .

وقابلت الجنرال أولمستيد فى البنتاغون ولاحظت اهتمامه بأسئلة غريبة . سأل مثلا عن الأحوال والنظام الجديد فى مصر . وقلت له أنه نظام وطنى يعبر عن أمانى الشعب المصرى .

بعد ذلك سألنى ما الذى نريده وأجبته بأننا نريد السلاح . وسأل عن أنواع السلاح ، وأجبته أن المهم الآن هو مبدأ الحصول منكم على السلاح . وقال أنه لا خلاف على المبدأ ولـكن . . .

وتصرف الجنرال أولمستيد عند ذلك تصرفاً غريباً . وقف أمام خريطة للشرق الأوسط معلقة على حائط مكتبه وعليها دبابيس وأزرار وأعلام صغيرة . وقال لى أنه حيث توجد هذه الدبابيس والأعلام والأزرار يكون للولايات المتحدة مكان وقواعد ، وأن ذلك قائم فى اليابان وآسيا وكوريا وغيرها . ثم أشار إلى منطقة الشرق الأوسط حيث لا أعلام ولا أزرار ولا دبابيس وقال انهم يريدون أن يحدث فيها ما حدث بالنسبة إلى المناطق الأخرى التى أشار إليها .

وسألته : كيف ستضعون هذه الأعلام والأزرار والدبابيس ؟

أجابنى : ان العنصر الأساسى فى دول تلك المنطقة هو الإسلام . ما رأيك فى حلف إسلامى يضم تركيا أكثر الدول الإسلامية تقدماً ، وباكستان أكثر الدول الإسلامية ازدحاماً ، وفى الوسط مصر أكثر الدول الإسلامية تميزاً بالتقاليد حيث الأزهر . إن مثل هذا الحلف يصبح فى رأينا المحور المناسب .

قلت : ولماذا كل ذلك ؟
أجاب : للدفاع عن الشرق الأوسط .
قلت : للدفاع عنه ، ممن ؟
أجاب : ضد الخطر الشيوعى .
قلت : القضية المستحوذة على اهتمام الثورة الآن هى وجود احتلال إنكليزى فى مصر . ثم عندنا قضية أخرى هى القضية الفلسطينية . القضية ليست قضية أعلام وأزرار ودبابيس . القضية قضية أرض وشعوب وفقر وجوع وآمال وأحلام . الموضوع ليس بهذه البساطة . ثم أننى ألاحظ أن هنالك مشاكل فى بعض الدول التى وضعت على الخريطة الأعلام والدبابيس والأزرار فوقها .

وعاد إلى الحديث عن الحلف الإسلامى . قال : كم هو عدد المسلمين فى الصين ؟ أليس فيها نحو ثمانين مليون مسلم . ثم أليس فى الاتحاد السوفياتى نحو أربعين مليون مسلم ؟ ألا تعتقد أن الحلف الإسلامى يمكن أن يكون قوة جذب لهذه الملايين بحيث يمكن عند ذلك التأثير على الاتحاد السوفياتى والصين ؟

عدت إلى القاهرة أروى لعبد الناصر فرح الأميركان بلعبة الدبابيس والأزرار والأعلام على خريطة العالم . وعاد على صبرى من دون أن يأتى بالسلاح .

وبدأ عبد الناصر يسعى من جديد لحصول على السلاح لانه كان معتقدا أن الإصطدام مع الاحتلال الانكليزى سيحدث عاجلا أم آجلا . واستطاع الحصول على بعض الأسلحة القديمة اشتراها من إيطاليا .

ولما لم يكن الحصول على السلاح سهلا وجد عبد الناصر نفسه أمام الواقع الآتى : هنالك ثمانون ألف عسكرى بريطانى فى منطقة قناة السويس . والقوة العسكرية المصرية مؤلفة من سبعة ألوية . إذاً فإن ميزان القوى لمصلحة الانكليز . وهنالك الحرب الشعبية . إن منطقة القناة من السهل عزلها بسبب وجود الصحراء . ولو أمكن تنشيط الحرب الشعبية لربما وصلنا فى النهاية إلى الهدف المطلوب . لكن الحرب الشعبية تحتاج إلى مساندة من القوة العسكرية ، حتى إذا تمثلت هذه المساندة بالضغط . إن الحرب الشعبية بما يرافقها من قطع المياه عن الانكليز وقطع خطوط التموين أيضاً من شأنها أن تجعلهم لا يحتملون الإقامة فى القاعدة . ولكن قد يكون

رد الانكليز فى مثل هذه الحال اللجوء إلى مواجهة عسكرية . قد يحتلون القاهرة أو أى منطقة أخرى بغرض المساومة . والمواجهة العسكرية من غير سلاح للجيش غير محتملة .

ومن هنا بدأ عبد الناصر إتباع استراتيجية مرنة ووضع هدفاً مرحلياً هو العمل لخفض حجم القوة البريطانية فى القاعدة . وقصده من ذلك أنه إذا كان حجم هذه القوة قليلا يمكن عندئذ مواجهتها بحرب العصابات من دون أن تكون الحاجة ضرورية إلى جيش قوى . يضاف إلى ذلك ، أنه ربما تمر فترة طويلة قبل أن يكون تأمن السلاح للجيش . وإلى أن يتأمن السلاح يجب إيجاد حل ما لمسألة الاحتلال .

ومن هذا المنطلق جاء الاتفاق الأول مع الانكليز الذى نص على أن يبقى فى القاعدة ستمائة خبير هم فى الواقع تحت رحمة الشعب المصرى وقبضة الجيش . وكان الإتفاق جزءا من الإستراتيجية المرنة التى سببها أن الحصول على السلاح لم يكن ممكنا من أميركا ولا من غيرها لإنهاء الإحتلال بالقوة .

وكان الإتفاق الأول خطوة سياسية ناجحة جداً . ورداً على تساؤل بهذا الشأن كان عبد الناصر يقول إن الذين بقوا فى القاعدة من الممكن أن نمسك بهم كالفراخ ونرميهم خارج القاعدة ، لكن من المستحيل أن نفعل ذلك مع ثمانين ألف عسكرى .

والإتفاق لم يتحقق بسهولة . ولولا وسائل الضغط التى سبقته من قطع مياه إلى عمليات فدائية محدودة إلى قطع خطوط تموين ، لما كان للإتفاق ، ربما أن يتم .

ولقد أقر الإتفاق فى حينه كل أعضاء مجلس قيادة الثورة . ولم يكن هنالك خلاف على الإستراتيجية التى اختارها عبد الناصر . حتى محمد نجيب كان بين الذين أقروا الإتفاق . ومحاضر المفاوضات التى جرت توضح كم أن التفاوض كان مسألة شاقة . ولولا العمليات التى كانت تحدث ضد رجال القاعدة لما أمكن الحديث حول طاولة المفاوضات أن يستمر . أما رد فعل الجماهير فكان حماسة وترحيبا .

والإتفاق فى أى حال كان إنجازاً لانه نص على أن منشآت القاعدة ستسلم بما فيها من مخازن أسلحة وأعتدة إلى الجيش المصرى بعد سبع سنوات . أما الشق الآخر من الإتفاق والمتعلق بتنشيط القاعدة فى حال وقوع عدوان على إحدى الدول العربية أو على تركيا أو إيران ، فإنه كان مرفوضا بالممارسة من دون أن ينص على ذلك صراحة . كيف ؟

إن المعركة الأساسية التي خاضها عبد الناصر في ذلك الوقت كانت معركة حلف بغداد . وإذا كان عبد الناصر وافق على تنشيط القاعدة لو حدث عدوان ما على تركيا وإيران والدول العربية الدائرة في فلك بريطانيا وفي الوقت نفسه رفض الدخول في أحلاف ... فمعنى ذلك أنه كان ينظر إلى الشق المتعلق بتنشيط القاعدة على أنه حالة مؤقتة لن يلتزم بها عندما تسمح الظروف .

وكل تصورات عبد الناصر كانت في محلها . فهو ألغى المعاهدة قبل أن يعرف نتيجة حرب السويس . ولمجرد أن وجهت بريطانيا الإنذار أمر بالقبض فورا على الستمائة إنكليزي الذين كانوا في القاعدة . وهو لم يقبض عليهم كرهائن للمساومة إنما اعتبر أن الإتفاق ألغي ، وأنه بعد الإنذار لم يعد مقيدا . وأمر بترحيل هؤلاء . ... وانتهى الأمر . وأثبتت الإستراتيجية المرنة فعاليتها .

فؤاد مطر : أصبح من المعروف أن قيادة الثورة كانت على اتصال مع الأميركان قبل ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ خصوصاً من خلال علي صبري الذي كلف ليلة الثورة الإتصال بالملحق العسكري في السفارة الأميركية .

وخلال الأيام الأولى للثورة بدا السفير الأميركي كافري أقرب دبلوماسي في القاهرة إلى رجال الثورة إلى درجة أن الملك فاروق عند عزله استنجد به . ومع ذلك حدث عند زيارة فوستر دالاس وزير خارجية أميركا في ١١ مايو (آيار) ١٩٥٣ الصدام بينه وبين جمال عبد الناصر بسبب رفض عبد الناصر الإشتراك في حلف بغداد الذي كان يدعو إليه الأميركان كإحدى حلقات سلسلة الأحلاف والقواعد العسكرية المحيطة بالإتحاد السوفياتي .

ما الذي عجل الصدام بين الأميركان والثورة ؟ وهل يعني هذا الصدام أن عبد الناصر لم يكن على علم باتصالات علي صبري مع الأميركان وبلور كافري واتصالاته مع أعضاء مجلس قيادة الثورة ، أم أنه كانت هنالك خطة من الثورة لتخدير أميركا وتنويمها حتى إذا جاء دالاس بمشروع كان لا مفر من الصدام ؟

وكيف راوحت قصة الثورة مع الأميركان بين الود والصداقة

فى البداية ، من الصدام بسبب حلف بغداد ، إلى ذروة العداء بسبب موقف دالاس من سحب تمويل مشروع السد العالى وتأميم قناة السويس ، ثم العودة إلى الصداقة من جديد عندما وقف إيزنهاور ضد العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، ثم العودة إلى العداء بعد رفض مشروع إيزنهاور ؟ فمن الواضح أن ميزان الصداقة والعداء بين عبد الناصر وأميركا ظل متأرجحا إبتداء من تولى عبد الناصر مسؤولياته حتى قبوله بادرة روجرز قبل وفاته بنحو ثلاثة أشهر.

وعلى أى أساس بنى عبد الناصر خطته تجاه أميركا وما كانت تكتيكاته فى هذا المجال ؟

محمد حسنين هيكل :

ليس صحيحا أن قيادة الثورة كانت على اتصال مع الأميركان قبل ٢٣ يوليو (تموز)١٩٥٢ . والإتصال الذى حدث كان ليلة الثورة ولم يكن مع الأميركان وحدهم . وكان الهدف من الإتصال التأكيد للدول الكبرى أن الثورة قضية داخلية . تماماً كما يحدث بالنسبة إلى أى نظام جديد .

ولكى لا يتم الإتصال بدولة قبل الأخرى فإن الثورة أوفدت فى وقت واحد (الثالثة صباحا) مبعوثين إلى سفارات أميركا وبريطانيا وفرنسا . وطلب من قائد المنطقة الشرقية اللواء أحمد شوقى عبد الرحمن الإتصال بقائد الحامية البريطانية لإبلاغه أن التغيير مسألة داخلية وليحذر من أى تدخل ضد الثورة .

وفى تلك الفترة كان على صبرى فى مخابرات الطيران . ولما فكر مجلس قيادة الثورة فى الشخص الذى سيتولى الإتصال بالأميركان اقترح عبد اللطيف البغدادى — كما أظن — اسم على صبرى الذى كان معروفاً عنه أنه شخصية اجتماعية ويعرف كثيرين من الدبلوماسيين وبينهم الأميركان ، وأن هذه المعرفة ناتجة عن كون على صبرى يحضر فى استمرار الحفلات الاجتماعية وحفلات الكوكتيل . وكان البغدادى يعرف على صبرى من سلاح الطيران .

وطلب مجلس قيادة الثورة من على صبرى التوجه إلى السفارة الأميركية لإبلاغ السفير كافرى أن الثورة مسألة داخلية وأن النظام الجديد سيحافظ على التزامات

مصر الخارجية وميثاق الأمم المتحدة ... إلخ ، من الكلام الذى يقال للبعثات الدبلوماسية عندما يسقط نظام ويقوم محله نظام جديد .

ولم يتمكن على صبرى من مقابلة السفير الأميركى وقابل أحد الملحقين فى السفارة وأبلغه ما كلف إبلاغه .

وفوق ذلك ان كافرى كانت تربطه علاقة خاصة بالملك . وتجدر الإشارة هنا إلى أن حزب الوفد كان يستخدم الأميركان للضغط على الانكليز . كما أن كل أحزاب الأقلية كانت تستخدم الأميركان للضغط على الانكليز . والملك استحدث العلاقة الخاصة مع السفير كافرى ليستخدمه فى الضغط على الانكليز ولحماية نفسه منهم .

وكانت الخطوة الأولى التى قام بها السفير كافرى هى أنه اتصل برئيس الوزراء على ماهر وقال له ان الملك اتصل به وأبلغه أنه تلقى إنذاراً وأنه — أى الملك — طلب من السفير أن يأتى إليه . وعندما توجه السفير إلى الملك لم يذهب إليه مفوضاً من مجلس قيادة الثورة إنما ذهب بدعوة من الملك نفسه . وكان على ماهر اتصل أيضاً بالسفير الأميركى فقال له السفير ان الملك اتصل به وأنه كان مذعوراً من منظر الدبابات التى تحاصره ، وأنه مستعد للخضوع للإنذار لكنه يريد أن تضمن الولايات المتحدة سلامته الشخصية .

ورد على ماهر بأن سلامة الملك ليست فى خطر وأنه سيغادر البلاد بكل مظاهر التكريم . وتوجه السفير كافرى إلى الملك الذى طلب منه من أجل الحماية أن يبقى معه إلى أن يغادر . وقبلت الثورة على أساس أن السفير الأميركى شاهد مقبول على خروج الملك .

إذاً ، إن مركز كافرى كان قوياً قبل الثورة . وعلاقته الخاصة بالملك كانت معروفة . أما الحرص على أن يستمر مركز السفير قوياً بعد الثورة ، فكان لأسباب تكتيكية وللإستعانة به كقوة للضغط على الانكليز .

وفى تلك الفترة لم يكن الإتحاد السوفياتى قوة مؤثرة فى دنيا الكتلة الشيوعية ، أو يمكن الاستعانة به كوسيلة ضغط . كما أن أميركا فى تلك الفترة غير أميركا بعد ذلك . فى تلك الفترة كانت أميركا خارجة من الحرب منتصرة . كانت أقوى

قوة فى العالم . عندها القنابل الذرية والهيدروجينية . وفى الوقت نفسه كان الأميركان يبدون من خلال الأفلام السينمائية بالمظهر الطيب ، وكانت حياتهم توحى بالاطمئنان إليهم . بمعنى آخر ان صورة الأميركى بعد الحرب العالمية الثانية كانت تتميز بالطيبة وليست كصورته بعد ذلك فى أواخر الخمسينات وكل الستينات .

وبالممارسة بدأت الثورة تكتشف الصورة الحقيقية لأميركا . أميركا التى تخفى تحت مظاهر البحبوحة ومضغ اللبان حب السيطرة على العالم . بالممارسة والتفاعلات تكشفت أطماع أميركا وأهدافها ، وحدث الصدام . فعلى أساس التفاعلات تبنى المواقف ، والتفاعلات تفرز تفاعلات .

وفى الأشهر الأربعة الأولى للثورة كانت هنالك قناعة بأن أميركا يمكن أن تفعل شيئاً إيجابياً ، ثم بدأ التلاعب وظهرت نيات أميركا تجاه الثورة وظهرت خططها فى مسألة حلف بغداد . وعندما عقدت صفقة الأسـلحة التشيكية كان الصدام بلغ الذروة ، وكانت الإنذارات تنهمر على الثورة إنذاراً بعد إنذار . لكن عبد الناصر وقف وتصدى بشجاعة .

وبعد إعلان صفقة الأسلحة جاء إلى القاهرة كيرميت روزفلت وقال لى قبل أن يقابل عبد الناصر ان الموقف خطير جداً وان أميركا ستفرض حصارا على الشواطئ المصرية وتمنع وصول السفن السوفياتية التى تحمل السلاح وتقطع كل المساعدات وتوقف معونات القمح .

ثم أوفد جون فوستر دالاس إلى القاهرة جورج ألن وكيل وزارة الخارجية آنذاك لتسليم رسالة إلى عبد الناصر .

ولم يكن أحد يعرف مضمون الرسالة . وكانت مهمة جورج ألن تسليم الرسالة يدا بيد .

وتحدثت فى الأمر مع عبد الناصر ثم قلت لكيرميت روزفلت أن عبد الناصر فى حال تضمين رسالة دالاس إنذاراً سيستدعى صلاح الشاهد — تشريفاتى الرئاسة آنذاك — ويطلب منه إخراج جورج ألن ، وليحدث ما يحدث .

وعلى الفور توجه كيرميت روزفلت إلى المطار وبعث باللاسلكى من طائرته برسالة إلى جورج ألن يطلب فيها منه عدم الإدلاء بأى تصريحات عند وصوله

إلى مطار القاهرة قبل أن يجتمع به . وبالفعل لم يصرح ألن بشئ ، وتوجه بعد وصوله إلى السفارة الأميركية وعقد اجتماعاً مع كيرميت روزفلت الذى أطلعه على موقف عبد الناصر إذا كانت رسالة دالاس تتضمن إنذاراً .

وتم الإتفاق على أن يبقى جورج ألن الرسالة فى جيبه عند اجتماعه بعبد الناصر ولا يسلمه إياها . وهذا ما حدث بالفعل . تمت المقابلة ولم تسلم الرسالة . وتحدث عبد الناصر مع وكيل الخارجية الأميركية عن الوضع بصفة عامة .

ولم يعرف ما الذى كانت تحويه تلك الرسالة .

وفى حين أن العلاقات بين الثورة وأميركا كانت متأزمة عام ١٩٥٥ وكادت تصل إلى صدام مخيف جداً ، إلا أنه بعد الموقف الذى اتخذته أميركا خلال حرب السويس حدث نوع من الإنفراج .

واعتمد عبد الناصر بعد ذلك شيئاً من الليونة على رغم تأكده أن هدف أميركا هو تنفيذ العدوان بوسائل أخرى . ثم جاء مشروع إيزنهاور والحصار على الأدوية كإحدى هذه الوسائل .

وفى كل المراحل كان الصراع مستمراً وإن تغيرت أساليبه تبعاً للظروف .

فؤاد مطر : منذ ١١ مايو (آيار) ١٩٥٥ (مقابلة عبد الناصر ودالاس فى القاهرة) حتى آخر يناير (كانون الثانى) ١٩٥٥ (عندما رفضت مصر مشاريع نورى السعيد لدخول العرب فى أحلاف مع تركيا وإيران وباكستان وإيران وأميركا وبريطانيا) ، وإصرار عبد الناصر متواصل على رفض سياسة ربط العرب بأى دولة أجنبية أو أحلاف باعتبار ذلك استعمار مقنع وأن البديل لذلك هو الجامعة العربية .

هل كانت سياسة الصدام إستراتيجية مخططة من جانب عبد الناصر منذ البداية ، أم أن الظروف هى التى فرضت ذلك وتطورت فى ما بعد إلى سياسة مرسومة ؟

وهل أن عبد الناصر كان فى ذلك الوقت واعيا للبعد القومى لمعاركه أم أنه اكتشف هذا البعد فى ذلك الوقت ؟

محمد حسنين هيكل :

لقد حضرت مقابلة عبد الناصر لدالاس . ومن شأن الحديث عن هذه المقابلة إعطاء صورة واضحة . وعندما تمت المقابلة كانت سبقتها خطوتان هما زيارة على صبرى لواشنطن للبحث فى المسائل العسكرية ، وزيارة فى الوقت نفسه قمت بها بغرض استكشاف التفكير السياسى الأميركى حيال الثورة المصرية .

ولقد حدث إشكال منذ اللحظة التى وطأ فيها دالاس مطار القاهرة لأنه أدلى بتصريح قال فيه أنه قادم إلى مصر وأنه يتطلع إلى الدور الذى ستقوم به مصر فى الدفاع عن العالم الحر . وكانت بريطانيا فى ذلك الحين تتحدث فى استمرار عن ضرورة استمرار القواعد من أجل الدفاع عن العالم الحر .

ولما بلغ عبد الناصر ما صرح به دالاس قال : إنه اقترف غلطة من اللحظة الأولى .

وبعد ذلك قابلت أحد المسؤولين فى السفارة الأميركية وأبلغته ملاحظة عبد الناصر على تصريح دالاس فأصدر دالاس بعد ذلك تصحيحاً أوضح فيه أنه لم يقصد بالعالم الحر سوى الديموقراطية والسلام ...

وفى الاجتماع الأول بين عبد الناصر ودالاس وكان ذلك بعد عشاء حضره كثيرون بينهم كافرى واندرسون والدكتور محمود فوزى ومحمد نجيب وصلاح سالم وآخرون ، طرح وزير الخارجية الأميركية مشروع الأحلاف .

ورد عليه عبد الناصر : أحلاف ضد من ؟

وأجاب دالاس : ضد الاتحاد السوفياتى والشيوعية .

وقال عبد الناصر : التهديد الذى أشعر به ناتج عن وجود قاعدة إنكليزية فى منطقة قناة السويس ، أما الشيوعية فإنها لا تهددنى ، ولا الإتحاد السوفياتى يهددنى . وإذا كان الإتحاد السوفياتى ليس قادراً على أن يؤثر فى الدول الملاصقة له فكيف يؤثر علينا . إن على أرض الملعب فى منطقتنا حالتين هما الإستعمار والوطنية تتباريان فى الكرة .

وقال دالاس : لكن الإتحاد السوفياتى قريب من العراق .

ورد عبد الناصر ؛ لا أعتقد أن الإتحاد السوفياتى سيرسل فرقاً من الجيش الأحمر لتغزو العراق عبر إيران .

وأضاف عبد الناصر أنه لا يستطيع أن يحدث المصريين عن خطر الإتحاد السوفياتى البعيد عنهم خمسة آلاف ميل ويتجاهل الحديث عن القاتل المتربص بهم المرابط فى قاعدة على بعد كيلو مترات من القاهرة .

ثم بدأ دالاس يروى لعبد الناصر أموراً عن الشيوعية وأخطارها وما حدث لجون مازاريك فى تشيكوسلوفاكيا ، وكيف أن السوفيات لا يؤمنون بشئ اسمه الإستقلال ، وكذا ...

وعاد عبد الناصر يقول له أن المهم الوحيد بالنسبه إليه وإلى الشعب المصرى هو وجود الإنكليز فى القاعدة .

وقال له دالاس أنه فى الوقت الذى يوافق على الأحلاف فإن القوة البريطانية الموجودة فى مصر ستعتبر منتهية ، وأنه سيرفع العلم المصرى على القاعدة ويتحول الجنود الانكليز إلى جزء من النظام الدفاعى .

وقال عبد الناصر : بهذه البساطة ؟ هل أن ما سنقوله للناس أننا أنزلنا العلم الانكليزى ورفعنا العلم المصرى فوق القاعدة وأبقينا الانكليز فيها لأنهم أصبحوا زملاء لنا فى مواجهة الشيوعية والإتحاد السوفياتى ؟ إننى إذا فعلت ذلك سيقتلنى الشعب المصرى بالنكات . من المستحيل أن أفعل ذلك .

كان دالاس يعتقد أن المشكلة الأساسية فى المناقشة هى أن عبد الناصر غير مدرك لخطر الشيوعية . وهو عندما قال لعبد الناصر إذا كنت ضد الأحلاف . فما هو البديل إذاً ؟ أجابه عبد الناصر : عندنا الجامعة العربية . وكل الدول العربية ممثلة فى هذه الجامعة . وهنالك ميثاق الدفاع العربى الذى يحتاج إلى تنشيط .

وقال له دالاس : دفاع ضد من ؟

أجابه عبد الناصر : يدافع ضد أى خطر يهدد المنطقة أياً كان مصدره .

وانتهت المناقشة من دون التوصل إلى نتيجة .

فؤاد مطر : يوم ٢٧ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٥ أعلن جمال عبد الناصر عقد صفقة الأسلحة التشيكية . وأعلن فى ١٠ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٥ أن مصر عقدت الصفقة حين أدركت نيات إسرائيل العدوانية ولئلا تتكرر مأساة فلسطين . كذلك أعلن رفضه لأسطورة

توازن القوى التى يروج لها الإستعمار فى الشرق الأوسط وأنذر الدول الغربية بأنه إذا تلقت إسرائيل أسلحة من الغرب فإن الدول العربية وعلى رأسها مصر ستدخل فى سباق حقيقى للتسلح فى الشرق الأوسط . وقال أن فى استطاعة مصر الحصول على المزيد من السلاح من الكتلة الشرقية .

هذه الوقائع تثير عدداً من الأسئلة منها :

– كيف تفسر تأخر عبد الناصر فى الاقتراب المباشر من الخطر الإسرائيلى والصراع العربى – الإسرائيلى حتى النصف الثانى من العام ١٩٥٥ مع أنه هو الذى جاء نتيجة هزيمة ١٩٤٨ وانتقاماً لها ؟

– ما هى قصة صفقة الأسلحة التشيكية ولماذا تمت مع تشيكوسلوفاكيا مع أن الأسلحة سوفياتية ؟

– ما هى الظروف التى رافقت إعلان الصفقة ؟

– كيف استقبل السلاح السوفياتى للمرة الأولى فى الجيش المصرى الذى كان معتادا السلاح الغربى؟

– ماذا كانت آثار إدخال السلاح السوفياتى الشرق الأوسط للمرة الأولى فى مصر والعالم العربى وإزاء أميركا والدول الغربية ؟

محمد حسنين هيكل :

أجزم أن عبد الناصر أدرك نيات إسرائيل العدوانية عندما حارب فى فلسطين وحوصر فى الفالوجة . وبعد قيام الثورة جرت مناقشة مهمة فى مجلس قيادة الثورة حول مسألة التصدى لإسرائيل . وكانت هنالك نظريتان . واحدة ترى مباشرة التصدى ، والأخرى ترى أن يتم التصدى بقوة عسكرية تحضر لهذه الغاية . واختار النظام الجديد تأجيل صدامه المسلح مع إسرائيل قدر المستطاع إلى أن تكون تأمنت القوة المسلحة التى تمكنه من ذلك . وفى الوقت نفسه بدأ عبد الناصر يفكر فى عملية تغيير للمجتمع المصرى بحيث يصبح هذا المجتمع قادراً على المواجهة . ويبدو أن إسرائيل تنبهت إلى الإختيار المصرى فبدأت تعمل على ضربه بشكل أو بآخر . شنت غارات كثيرة على مناطق مصرية كان أهمها غارة على العوجة وأخرى على غزه . وبدأت تعمل أيضاً لضرب أى محاولة تفاهم بين الثورة وأميركا .

وعندما ألحت الثورة على السفير الأميركى كافرى فى طلب الأسلحة كان هذا الإلحاح ينبع من حقيقة أساسية هى أن الثورة التى بدأت تبنى وتعمر وتطور لن تستطيع حماية هذه الإنجازات إذا كانت لا تملك القوة المسلحة . وقد أوضح عبد الناصر ذلك لكافرى . وكانت وجهة نظره آنذاك أنه إذا كان سيستمر فى البناء ولا سلاح لديه فمعنى ذلك أنه يقدم البلد لإسرائيل بالمستشفيات والمدارس والمصانع ، وأنه لكى يصون البناء الداخلى ملزم بالدفاع عنه .

إن مبرر الإلحاح فى طلب الأسلحة كان أن الثورة تواجه الإحتلال الانكليزى من جهة ومحاولات العدوان الإسرائيلية من جهة أخرى . ولكن كان واضحاً أن عبد الناصر لن يحارب الاحتلال الانكليزى بالأسلحة الثقيلة أى بالطائرات والدبابات والقطع البحرية . وأتصور أن هذه النقطة كانت واضحة تماماً فى ذهن الأميركان . فهم يدركون أن محاربة الانكليز تكون بالأسلحة الخفيفة وبأسلوب حرب العصابات ، أما مع إسرائيل فإنها ستكون حرباً تقليدية .

كان الاستعداد للمواجهة شاغل عبد الناصر لأنه أدرك منذ اللحظة الأولى أن إسرائيل لن تتركه يحدث معدلات النمو الاجتماعى والاقتصادى . وكان يردد فى استمرار أنه لن يسعى إلى المواجهة ، ولكن يجب أن يكون مستعداً لها لأنه لا يقبل أن يتحول شعب مصر إلى لاجئين .

وفى ذروة الحاجة إلى الحصول على السلاح التقى ذات يوم فى سفارة السودان فى القاهرة خلال حفلة تكريم أقامتها السفارة تكريما لإسماعيل الأزهرى . السفير السوفياتى سولود ، وقال للسفير إنه يريد شراء سلاح من الإتحاد السوفياتى .

قال هذه العبارة لأن الأزمة مع الأميركان فى شأن السلاح كانت تصاعدت وقطع عبد الناصر الأمل تقريبا من الحصول على السلاح الأميركى .

ورد عليه السفير السوفياتى آنذاك رداً غير مفهوم لأن السفير فوجئ بالطلب وربما اعتقد أن عبد الناصر غير جدى فى هذه المسألة الخطيرة .

كانت تلك المرة الأولى التى يعبر فيها عبد الناصر عن رغبته فى شراء السلاح من الاتحاد السوفياتى . وبعد ذلك سافر إلى باندونغ فى طائرة نهرو الذى أرسلها خصيصا لكى تنقله . وكنت مع عبد الناصر فى هذه الرحلة .

توقفت الطائرة فى باكستان لأن عبد الناصر أراد أن يبدأ هذه الجولة الآسيوية بزيارتها . وبعد ذلك توجهنا إلى زيارة الهند . وبعد الهند توجهنا إلى رانغون لاصطحاب رئيس بورما أونو . وفى مطار رانغون وجد عبد الناصر أن شواين لاى فى استقباله . وتعارفا ثم عقدا اجتماعا فى منزل أونو .

كانت المرة الأولى التى يلتقى فيها عبد الناصر وشواين لاى . وقال شواين لاى لعبد الناصر أن الصين تتابع باهتمام المعركة التى يقودها ضد الأحلاف . وتحدثا عن قضايا كثيرة . وعندما وصلا فى حديثهما إلى موضوع السلاح أوضح عبد الناصر الصعوبة التى تعترضه لتأمين السلاح ، وروى ما قاله للسفير السوفياتى فى القاهرة وسأله ما إذا كان يعتقد أن الاتحاد السوفياتى يمكن أن يعطيه السلاح لأنه لم يصله رد فى شأن ما طلبه من سولود .

وأجاب شواين لاى بما معناه أنه يعتقد أن الإتحاد السوفياتى يمكن أن يعطيه السلاح وأنه – أى شواين لاى – سيتصل بالسوفيات ، وأنهم سيردون على طلبه .

وقال عبد الناصر لشواين لاى : إذاً ، تولى أنت الموضوع .

وبعدما عاد عبد الناصر من باندونج محققاً إنتصاراً محدثاً ضجيجاً اتصل به السفير السوفياتى فى القاهرة طالباً الاجتماع إليه . وخلال المقابلة قال السفير : ما هى طلبات السلاح التى تريدونها ؟

كان معنى ذلك أن الإتحاد السوفياتى وافق . وكخطوة أولى غير السوفيات الملحق العسكرى فى السفارة وأرسلوا ضابطاً برتبة كولونيل ليشغل المنصب . ولئلا تنكشف الاتصالات فإن رتبة الملحق الجديد كانت أقل من الكولونيل ظاهراً .

وبدأت المفاوضات فى منزل صغير فى ضواحى المعادى بين الملحق العسكرى السوفياتى الجديد وحافظ إسماعيل الذى كان يشغل فى ذلك الوقت منصب مساعد رئيس الأركان والذى شارك من قبل فى مفاوضات الجلاء .

وقدم حافظ إسماعيل الطلبات . ورد الملحق العسكرى السوفياتى : سأعود إلى حكومتى أسألها .

ثم اتفق الجانبان على أن تستكمل المحادثات خارج مصر وبالتحديد فى تشيكوسلوفاكيا بناء على رغبة السوفيات .

وفى تلك الفترة صادف أن وفداً تجاريا كان مسافراً إلى تشيكوسلوفاكيا للبحث فى صفقة سلع إستهلاكية فسافر مع الوفد ثلاثة ضباط لمناقشة طلبات السلاح .

وفى تلك الفترة أيضا عقد مؤتمر القمة الرباعى للدول الكبرى . وقلق عبد الناصر من أن يؤثر انعقاد هذا المؤتمر على الطلب المصرى أو يؤجله . لكن المحادثات استمرت .

لماذا مع تشيكوسلوفاكيا وليس مع الإتحاد السوفياتى ؟

إن السوفيات هم الذين اقترحوا أن تكون الصفقة مع تشيكوسلوفاكيا كى لا يؤثر ذلك على سياسة التراضى التى أسفرت عنها القمة الرباعية بين خروشوف وإيزنهاور وإيدن وإدغار فور .

ولم يكن جمال عبد الناصر يريد أن يكشف عن صفقة السلاح لولا أن عملاء أميركا فى تشيكوسلوفاكيا شعروا أو عرفوا بشئ ما . وعندها قرر عبد الناصر أن يعلن اضطراراً الصفقة .

وحدث قبل فترة قليلة من إعلان الصفقة أن اتصل بى أحد رجال السفارة الأميركية ويدعى إيكل برغر وقال لى إن معلوماتهم تؤكد أن مصر عقدت صفقة سلاح وأن وزير الخارجية الأميركية جون فوستر دالاس قرر إيفاد جورج ألن إلى القاهرة للبحث مع عبد الناصر فى الأمر .

وعندما أبلغت عبد الناصر ذلك قرر أن يعلن الصفقة قبل أن يصل مبعوث دالاس . وكانت حجته أن المبعوث سيسأله وعليه أن ينفى أو يؤكد . إذا نفى يكون كاذباً وستعرف أميركا فى وقت لاحق . وإذا أكد يكون فوت على أميركا أنه أعطاها حق سؤاله عن الموضوع ، وهو لايريد أن يعطيها هذا الحق .

وبدأنا نبحث عن مناسبة يعلن فيها عبد الناصر الصفقة وفكرنا طويلا ولم نجد مناسبة. وبالصدفة عرف عبد الناصر من وجيه أباظة أن الشؤون العامة فى القوات المصرية ستقيم معرضاً للصــور . ولمجرد أن ذكر وجيه أباظة ذلك ارتاح عبد الناصر لأن المناسبة وجدت مع إنها « مناسبة هايفة » .

وسأل عبد الناصر عن مكان المعرض وعما إذا كان هنالك مدعوون ، وقيل له أن هنالك دعوات وجهت إلى كثيرين .

وفوجئ الذين حضروا المعرض يوم ٢٧ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٥ بحضور عبد الناصر ، وفوجئوا بعد ذلك بعبد الناصر يلقى خطبة . عبد الناصر الذى اعتاد إلقاء خطبة أمام ألوف الناس سيخطب فى هذا المعرض الذى لا يتجاوز عدد الحاضرين فيه الستين شخصاً ؟ !

وأى خطبة ؟ إنها إحدى أهم خطبه على الإطلاق . ولقد أقيم المعرض فى غرفة واحدة . وفى هذه الغرفة حدثت أهم فرقعة فى تاريخ المنطقة .

والمهم أنه عندما أعلن عبد الناصر صفقة السلاح كانت وصلت طلائع الصفقة إلى مصر فى سفينة . وكانت الشحنة أفرغت .

واستقبل الجيش المصرى السلاح السوفياتى فى البداية بشئ من الاستغراب وهذا طبيعى لجيش معتاد أسلحة إنكليزية وحدثت تساؤلات كثيرة بين الضباط ثم قالوا : لنجرب .

ثم تغير الموقف بعدما أصبحت لدى الجيش أسلحة متطورة وطائرات ميغ .

أما الجماهير العربية فإنها أيدت الخطوة بحماسة لأن عبد الناصر كسر بذلك احتكار السلاح .

وفى حين كان هذا هو موقف الجماهير العربية فإن الأنظمة الرجعية بتشجيع من أميركا بدأت تتحدث عن السلاح الكافر . وهذا ما حمل عبد الناصر على أن يقول أن السلاح ليس بالمصدر الذى يأتى منه وأنه يكتسب جنسية الذى يستعمله وأن السلاح السوفياتى فى يد المصرى يصبح مصرياً . ولو أن هذا السلاح كان أميركيا لكان أصبح مصرياً فى يد الجندى المصرى . إن السلاح أداة صماء والذى يستعمله هو الذى يحدد جنسيته .

فؤاد مطر : فى ٢٦ يوليو (تموز) ١٩٥٦ أعلن جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس . حول هذه الخطوة هنالك ثلاثة أسئلة :

أولا — هل كان عبد الناصر يتوقع أن يكون رد فعل الإستعمار شن حرب أم إجراءات فى مستوى أقل ؟

ثانياً — إذا كان توقع أن يكون رد الفعل حرباً فهل تصور أنها ستكون على الشكل الذى تمت به ، أى تواطؤ بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ؟

ثالثاً – ما هى الحصيلة النهائية فى تقديرك لمعركة القناة على المستوى العربى والمستوى المحلى والمستوى العالمى ، وبالنسبة إلى عبد الناصر شخصيا ؟

محمد حسنين هيكل :

أتذكر أن جمال عبد الناصر عندما قرر تأميم قناة السويس جلس إلى مكتبه وتصرف كضابط أركان حرب . وضع أمامه الورق وبدأ يسجل نقاطاً . وعلى إحدى عشرة ورقة مستطيلة الشكل وبيضاء سجل الاحتمالات التى يمكن أن تنشأ عن التأميم . وأتذكر أنه اختار لهذه الدراسة عنوان « تقدير موقف » ووضع بالقلم الرصاص خطا تحت العنوان .

وناقش عبد الناصر بعقل علمى الاحتمالات المتاحة أمام انكلترا وفرنسا على وجه التحديد ، ثم أميركا ، وانتهى إلى تقدير خلاصته أن الحرب المسلحة ممكنة الحدوث .

وتبعاً لهذا التقدير بدأ عبد الناصر يدرس حجم القوة البريطانية وحجم القوة الفرنسية القريبة من مصر اللتين يمكنهما أن تتدخلا .

وكان رأيه أنه إذا كانت هنـــالك قوات بريطانية وفرنسية جاهزة للتدخل فى ظرف أسبوع فإن الدولتين أى بريطانيا وفرنسا ستتدخلان بالقوة المسلحة .

واستعان بالأسقف مكاريوس لوضع التقدير الحقيقى لحجم القوات البريطانية الموجودة فى قبرص ومالطة .

وقبل يوم من إعلان التأميم كانت خلاصة الموقف كالآتى : أن القوات البريطانية بالإضافة إلى القوات الفرنســية التى يمكن الإستغناء عنها من الجزائر لا تصل فى حجمها إلى ما يمكنهما من التدخل السريع ، وأنه يلزم بريطانيا وفرنسا مدة شهرين لحشد القوات التى يمكن أن تتدخل بالقوة .

وعلى هذا الأساس قرر أن يعلن تأميم القناة . لم يكن قلقاً من احتمال تدخل سريع من جانب بريطانيا وفرنسا لكنه كان يفترض أن التدخل سيحدث عاجلا أم آجلا . أعلن تأميم القناة وفى الوقت نفسه حرص على أن يظهر نياته السلمية أمام العالم ، وهو من أجل ذلك وافق على مؤتمر لندن ووافق أن يستقبل فى القاهرة بعثة منزيس التى جاءت لمعالجة الأمر . وكان يعتقد أنه بإظهار النيات السلمية يمكن أن يجهض احتمال إستعمال القوة بعد أن تكون بريطانيا وفرنسا – استناداً إلى تقديره – جهزتا القوات القادرة على التدخل .

والواقع أن عبد الناصر توقع أن يأتى التدخل من جانب بريطانيا ثم أضاف فرنسا ، لكن احتمال إشراك إسرائيل فى التدخل لم يخطر له فى البداية ثم خطر له فى ساعة متأخرة جدا من يوم التدخل .

وعندما أسقط عبد الناصر من تقديره احتمال التواطؤ البريطانى – الإسرائيلى افترض أن بريطانيا بذلك ستقضى على حلفائها العرب جماعة حلف بغداد ، وستنهى نورى السعيد والأنظمة العربية المتعاونة مع إنكلترا .

حتى عندما بدأ الإسرائيليون هجومهم بعد ظهر الإثنين ٢٩ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٥٦ لم يربط عبد الناصر هذا الهجوم بالتواطوء وافترض أن إسرائيل تستغل الموقف لتحقيق هدف عدوانى معين . واستمر عبد الناصر مستبعداً مسألة التواطؤ البريطانى – الفرنسى – الإسرائيلى إلى أن صدر الإنذار الشهير يوم ٣٠ أكتوبر (تشرين الأول) .

بالنسبة إلى الحصيلة النهائية لحرب السويس أرى أن معركة تأميم القناة كانت نقطة التحول البارزة أكثر من أى نقطة أخرى فى تاريخ الثورة الوطنية وفى تاريخ عبد الناصر . ذلك أن هذه المعركة أكدت بضع حقائق أساسية أهمها :

– تأكيد قدرة دولة صغيرة على الوقوف فى وجه قوى كبرى .
– تأكيد حق دولة فى أن تسيطر على مواردها وثرواتها .
– تأكيد حق دولة فى السيطرة على مواقع استراتيجية تخصها .
– قدرة دولة صغيرة على الصمود أمام مواجهة نفسية ضارية .

وحول هذه الحقائق وتأثيرها أتذكر كلاماً قاله كاسترو لجمال عبد الناصر عندما التقيا فى نيويورك عام ١٩٦٠ . ومما قاله كاسترو : فى عام ١٩٥٦ كنا فى الجبال نقاوم نظام باتيستا . ووصلنا إلى حال من اليأس . ولكن عندما رأينا أنكم صمدتم أمام الانكليز والفرنسيين والإسرائيليين ، وأن العالم وقف إلى جانبكم . قررنا أن نصمد . وتلك كانت نقطة تحول بالنسبة إلينا . واعتبرنا أن الأمل ما يزال وارداً وأن فى الإمكان الانتصار على باتيستا حتى لو كانت أميركا تسانده .

ثم ما الذى حدث بعد حرب السويس ؟ لقد سقط حلف بغداد . وانسحبت فرنسا من شمال أفريقيا . وهبت رياح التغيير على أفريقيا .

ومن هنا أن حرب السويس كانت وستبقى نقطة التحول البارزة فى تاريخ حركة الثورة الوطنية وفى تاريخ عبد الناصر الذى كان بطل تلك الحرب .

الفصل الخامس

علامات استفهام في ١٨ سنة

فؤاد مطر : من المآخذ على عبد الناصر أنه طمس قيادات وزعامات مصرية تاريخية ووطنية . لماذا فعل ، أو قبل ذلك ؟

محمد حسنين هيكل :

من هى القيادات والزعامات المصرية التاريخية والوطنية التى طمسها عبد الناصر؟ الذى أجزم فيه أن عبد الناصر أعطى محمد على حقه ، وأعطى الخديوى إسماعيل رغم إساءاته حقه . ولم ينكر فضل مصطفى كامل والثورة العرابية وسعد زغلول . وأشاد برفاعة رافع الطهطاوى . وأقيمت لكثيرين من هؤلاء احتفالات ومهرجانات .

وفى فلسفة الثورة وبقية وثائق الثورة نلاحظ أنه كانت دائماً هنالك عودة إلى الجذور .

وأنا كتبت أكثر من مرة أنتقد الذين يحاولون جهلا أو تملقا أو تعصبا إقناع الناس بأن تاريخ مصر بدأ بعد العام ١٩٥٢ . وبوجود عبد الناصر أصدرنا فى « الأهرام » كتابا عن ثورة ١٩١٩ وكتبت ذلك فى مقدمة الكتاب .

فؤاد مطر : فى أول يناير (كانون الثانى) ١٩٥٤ التى جمال عبد الناصر خطاباً فى طنطا قال فيه أن الاستعمار لن يخرج بالكلام بل بالقوة ، وكان ذلك خلال الأزمة التى قامت بين مصر وبريطانيا بعد فشل محادثات الجلاء فى مايو (آيار) ١٩٥٣ .

والملاحظ أن عبد الناصر بعد ذلك بسنوات وبعد الاحتلال الإسرائيلى لسيناء والأرض العربية فى حرب ١٩٦٧ رفع شعار « ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة » .

هل نستطيع أن نقرر أن خط عبد الناصر فى مواجهة الاحتلال كان دائماً استخدام القوة العسكرية لخلع هـــذا الاحتلال وليس استخدام المحادثات السياسية ؟

وفى الوقت نفسه نلاحظ أن عبد الناصر عام ١٩٥٣ تفاوض مع الإنكليز وانتهى التفاوض إلى معاهدة الجلاء . وبعد أشهر من حرب

الإستنزاف التى تلت هزيمة ١٩٦٧ قبل مبدأ روجرز ومبدأ المحادثات السياسية . هل هذا نوع من التناقض فى حركة عبد الناصر أم هو مزج بين العمل السياسى والعمل العسكرى ؟

إذا كنت تعتبر ذلك تناقضاً فما هو منشأه فى تقديرك . وإذا كنت تعتبره عملية مزج فكيف كان يمارس ذلك وفى أى وقت وفى أى ظروف كان يؤثر العمل السياسى على العمل العسكرى وبالعكس .

محمد حسنين هيكل :

القوة فى مفهوم عبد الناصر ليست القوة العسكرية . إن معناها أكثر شمولا . والقوة فى مفهومه هو ألا تهزم الإرادة .

وتدليلا على ذلك فإن عبد الناصر خاض معركة إسقاط حلف بغداد ونجح فيها من دون إطلاق رصاصة إنما بتعبئة الجماهير ضد الحلف .

وكان عبد الناصر يرى أنه لتحقيق هدف ما يجب أن تكون قوة الإرادة متوافرة بحيث لا تهزم من داخل ، أى من داخل النفس ، وتبقى فى استمرار واثقاً من النصر . وهذه هى نقطة البداية . وهو مثلا بعد ١٩٦٧ كان يعتقد أن مصر ضربت لكنها لم تهزم ما دامت إرادتنا لم تسقط . وهو بعدما خرجت الجماهير يومى ٩ و ١٠ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ إلى الشوارع استرد نفسه بالفعل . واعتبر خروج الناس العزل مصدراً من مصادر القوة تعزز صمود الإرادة . وقد تسلح عبد الناصر بهذه القوة وعوضته ما كان حدث وما لمسه من حجم الهزيمة العسكرية التى وقعت .

إذاً أن القوة لا تعنى بالضرورة القوة المسلحة . إنما قوة الإرادة فى الدرجة الأولى . أما السلاح فإنه عنصر من عناصر الإرادة . استعمال السلاح يعنى العنف وهو مظهر من مظاهر القوة . ولكن ليس معنى ذلك أن تكون الترجمة الحقيقية للقوة هى استعمال السلاح . إن غاندى كان قوياً وهو صائم . القوة تمثلت فى صيامه .

وأحياناً تحقق الكلمة وتعبئة الجماهير ما لا تستطيع القوة المسلحة أن تحققه . لنأخذ مثلا مسألة اليمن ومسألة حلف بغداد . فى اليمن حارب عبد الناصر بالجيش . وفى بغداد حارب بالكلمة . وفى الحالة الثانية استطاع أن يحقق أكثر مما حققه فى الحالة الأولى .

والقوة تصاعد . ولأن الحضارة أصبحت معقدة فإن القوة المسلحة تأتى بعد مراحل عدة . لنأخذ طرفين اختلفا . هل أنهما يحسمان خلافهما على الفور بالقوة المسلحة ؟ أبداً . الذى يحدث أن الطرفين يحاولان أولا تسوية خلافاتهما . وبعد الخلافات تحدث مناقشات . وقد تتصاعد المناقشة إلى حد المواجهة . وتتصاعد المواجهة درجة بعد درجة . وإلى أن تأتى مسألة استعمال القوة المسلحة يكون مر وقت طويل جداً .

إن القوة المسلحة هى الملجأ الأخير إذا فشلت كل أنواع القوة المعنوية والسياسية والاقتصادية والنفسية .

وعندما كان عبد الناصر يتحدث عن القوة فى خطبه أو أحاديثه فـ ـ كان يقصد كل أنواع القوة وآخرها استعمال السلاح . . أى أن القوة المسلحة فى نظره هى الملجأ الأخير إذا لم تحقق بقية أنواع القوة الهدف المطلوب .

فؤاد مطر : هل كانت لدى جمال عبد الناصر طموحات أو خطط للسبعينات والثمانينات وما هى مصر التى كان يحلم بها ؟

وهل أن وطأة المرض عليه جعلته يتخـــلى عن التفكير فى هذه الخطط والطموحات ؟

محمد حسنين هيكل :

لـكى نعرف أو نتحدث عن طموحات عبد الناصر للمستقبل يجب أن نلاحظ ما الذى كان يفعله قبل ١٩٦٧ أو بالتحديد من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٦ . فى هذه الفترة نلاحظ أن مصر كانت مندفعة بأقصى قوة نحو التصنيع . ونلاحظ أن عملية التحول الاشتراكى تسير بشكل جيد . ونلاحظ التزاماً مثالياً من جانب مصر بحركة التحرر الوطنى وبالتعاون الآسيوى– الأفريقى وبحركة القومية العربية فى مواجهة الاستعمار . ونلاحظ أيضاً تقدماً ملحوظاً فى عملية تطوير المجتمع بحيث أنه فى الوقت الذى تم إعادة توزيع الثروة على الجماهير كانت مصر توسع دائرة اهتمامها بالتكنولوجيا وتتجه نحو آفاق جديدة . وفى الأعوام ١٩٦١ و ١٩٦٢ و ١٩٦٣ كان عبد الناصر حريصاً جداً على أن تتمكن مصر من تصنيع الصواريخ والطائرات . وكان حريصاً أيضاً على أن يتطور المفاعل الذرى فى استمرار . ولم ينظر عبد الناصر إلى مسألة

الصواريخ والطائرات من زاوية حربية إنما من زاوية اللحاق بالتكنولوجيا ودخول العصر الجديد . ومن هنا كانت حماسته للاستعانة بالعلماء الألمـان لتصنيع الصواريخ .

ومن خلال هذه الملاحظات يمكن أن نعرف ما الذى كان يخططه عبد الناصر للسبعينات والثمـانينات .

وفى العام ١٩٦٧ حدث نوع من القطع لتلك الإندفاعة . ولولا حرب ذلك العام لـكان عبد الناصر سار قدماً بما كان بدأه . إن الحرب وليس المرض هى التى أوقفت الإندفاعة .

فؤاد مطر : ألا ترى أن المبالغ التى أنفقها عبد الناصر خارج مصر كانت كافية لتحقيق طموحاته على صعيد التحول الاجتماعى داخل مصر ؟

محمد حسنين هيكل :

هذا الكلام جزء من الحملة الموجهة ضد التجربة الناصرية . وأنا لا أريد أن أضع نفسى فى موقع المدافع عن عبد الناصر ، إنما كشاهد على التجربة أقول للذين يقودون حملات التشكيك والتجريح : من الظلم أن تدفعوا هذا البلد على رغم إرادته إلى إنكار فترة من أهم فترات تاريخه .

ثم ما هى المبالغ التى أنفقها عبد الناصر فى الخارج ؟

لقد ساعد ثورة الجزائر وهذا كان واجباً . ومع ذلك فإن كل المساعدات التى قدمت إلى الثورة الجزائرية لم تتجاوز الستين مليون جنيه . ولقد ردت الجزائر هذا المبلغ وأكثر خلال حرب ١٩٧٣ .

وفى الوحدة مع سوريا لم ننفق شيئاً . إن أقصى ما أعطيناه لسوريا هو الحق فى حصيلة قناة السويس تستخدمه بالنقد الأجنبى . ولم تستعمل سوريا هذا الحق سوى مرة واحدة وفى حدود ستة ملايين جنيه .

فى مواجهة حلف بغداد لم ننفق شيئاً . والذى حـــدث هو أننا دعمنا إذاعاتنا فأصبحت قوية . وعبر هذه الإذاعات كتلنا الجماهير لمقاومة الإنكليز والأميركان .

المكان الوحيد الذى أنفقنا فيه كان اليمن وكان هذا الإنفاق مفروضا علينا من خلال التزامنا القومى . ثم ما الذى أنفقناه فى اليمن؟ سأفترض جدلا أننا أنفقنا مئة

مليون جنيه سنويا . إن مثل هذا المبلغ لا يحل مشاكل مصر . وإذا كنا من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٧ أنفقنا خمسمائة مليون جنيه ، فإن المساعدات التى حصلنا عليها بعد قمة الخرطوم عام ١٩٦٧ كانت أكثر من ذلك . والمساعدات التى حصلنا عليها من الدول العربية بعد حرب ١٩٧٣ تجاوزت الألف مليون دولار . ولو لم تكن مصر طرفاً فى القضية العربية لمـــا كانت حصلت على كل ذلك .

ومرة أخرى إن ما أنفقناه لم يكن فى استطاعته حل مشاكل مصر . الحل هو فى سياسة نشيطة وليست منزوية ومنطوية . الحل هو الدخول فى العالم العربى وليس الإنسحاب منه .

فؤاد مطر : ألا توافق على أن عبد الناصر كان فى بعض ممارساته ديكتاتورا ؟

محمد حسنين هيكل :

الحقيقة أننى أرفض مثل هـــذا التصور لأن الفارق كبير بين الديكتاتورية واللاديكتاتورية . الديكتاتور رجل يحكم بإرادته غير آخذ فى الاعتبار رغبة الجماهير ومصالحها . وفى الأنظمة الديموقراطية يختلف الوضع حيث أن الجماهير بقياداتها وتنظيماتها السياسية ترسم للحاكم الخط السياسى الذى ينفذه .

وبين النوع الأول من أنواع الحكم والنوع الثانى ، نوع ثالث وهذا ينطبق على عبد الناصر .

إن عبد الناصر كانت لديه القدرة على تحسس الإرادة الشعبية . وكان فى القرارات التى يتخذها متحملا المسؤولية الكاملة يعبر بالفعل عن تلك الإرادة الشعبية .

وبشئ من التبسيط يمكن أن نكتشف نوعية حكم عبد الناصر .

إن عبد الناصر عندما اتخذ قرار القيام بالثورة لم يتخذه وحده إنما مع أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وكان بذلك يخاطر بحياته وحياة رفاقه أعضاء المجلس . وهو باتخاذه قرار إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية كان يعبر عن رغبة شعبية دفينة .

وفى القضايا الأساسية من الطبيعى أن عبد الناصر اتخذ قرارات مسؤولة وخطيرة . لـكنه لم يتخذها لأنه هو شخصياً يريدها إنما لشعور من أن الشعب يريد ذلك .

إذاً ، فإنه عندما أمم قناة السويس بقرار أخذه على مسؤوليته كان يعبر عن إرادة شعبية . وفى التحول الاشتراكى فعل الشئ نفسه تجاوبا مع الأمانى الموجودة فى ضمائر الناس. وعندما أخرج الإنكليز من مصر لم يمارس دور الديكتاتور إنما أقدم على خطوة يتمناها شعب مصر . وفى كل هذه الخطوات كان الشعب يزداد التفافاً حول عبد الناصر.

وفى مرحلة البناء لابد من المشاركة . ولقد انفرد عبد الناصر بتحمل بعض القضايا لكنه لم يكن ديكتاتوراً . وحول هذه المسألة كتبت مرة أنه آن الأوان لكى ننتقل من ديموقراطية بالموافقة إلى ديموقراطية بالمشاركة .

وفى كل قرار اتخذه عبد الناصر لم يكن يستهدف تدعيم سلطته أو حماية مصالحه لأنه كان حريصا على ألا يملك شيئاً ، وكان يعتقد أن ملكية أى قائد لأى شئ قد تكون قيداً على رؤيته الاجتماعية ، أو قد تكون حاجزاً يحول دون هذه الرؤية . وهذه فى أى حال ليست طبائع الديكتاتور .

فؤاد مطر : ما هى العلاقة بين قيام الثورة وحريق القاهرة ؟

محمد حسنين هيكل :

ليست هنالك أى علاقة . ولقد فوجئ عبد الناصر بالحريق كما فوجئت به أنا وأى شخص آخر . هذه حقيقة أجزم بها .

فؤاد مطر : نلاحظ أن جمال عبد الناصر سارع إلى إنشاء وزارة الإرشاد فى ٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٢ أى بعد أقل من أربعة أشهر من قيام الثورة . هل أن وزارة الإرشاد هى بداية الاهتمام الإعلامى عند عبد الناصر . وكيف كان مفهومه فى ذلك الوقت للإعلام ؟

محمد حسنين هيكل :

لم يكن القصد من وزارة الإرشاد وقتها أن تكون وزارة اعلام ، واهتمامات وزارة الإرشاد فى تلك الفترة كانت : تنوير الفلاح وتبصيره بمخاطر دودة القطن والمساعدة على نشر الثقافة . . وأمور أخرى من هذا القبيل .

لم يكن للإعلام أثر فى تلك الوزارة . كانت وزارة تنوير . . فقط .

فؤاد مطر : فى ٣٠ مارس (آذار) ١٩٥٣ صدر قانون بتنظيم استثمار رأس المـــال الأجنبى . هل كان ذلك محاولة أولى فى تاريخ

الثورة للانفتاح الاقتصادى ، على أساس أن المحاولة الثانية جاءت بعد ٦ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ . وماذا كانت نتيجة المحاولة الأولى ، ولماذا تخلى عبد الناصر عنها ؟

محمد حسنين هيكل :

لنتأمل الظروف التى كانت سائدة عام ١٩٥٣ . نظام جديد تسلم وليست عنده عقيدة متكاملة . وشكل الحكم آنذاك عبارة عن مجلس قيادة ثورة ومجلس وزراء . قبل أن يتسلم محمد نجيب رئاسة الحكومة كان معظم الوزراء من السياسيين القدامى . بعدما تسلم محمد نجيب رئاسة الحكومة أصبح معظم الوزراء من الفنيين .

جمال عبد الناصر لا يعرف ما هو البديل للأمور التى يرفضها . بعد ذلك تألف المجلس المشترك من مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء . وهذا المجلس كان يناقش كل الموضوعات . وكان وزير المال آنذاك أحد أبرز الاقتصاديين وأكثرهم نظافة وهو الدكتور عبد الجليل العمرى . وكان العمرى معجباً بضباط الثورة ويريد إنجاح المهمة التى أتوا من أجلها .

وعبد الجليل العمرى من الاقتصاديين الكلاسيكيين . وكان يتصور أن فى الإمكان فتح مجالات لاستثمارات واسعة فى مصر بقانون رأس المال الأجنبى يجرى العمل به وفق أسس نظيفة . إذاً ، وما دام مجلس قيادة الثورة لم تكن لديه القدرة على استنباط بديل ، فإنه عمل باقتراح العمرى فى انتظار العثور على بديل فى شأن استثمار رأس المال الأجنبى .

وفى أى حال أن قانون استثمار رأس المال الأجنبى لا يمثل المرحلة الأولى من الانفتاح ، وليس بمثابة التجربة الأولى فى موضوع الانفتاح الاقتصادى . إنه استمرار لما كان معمولا به قبل الثورة إنما بأسلوب نظيف .

وفى أى حال لم يكن جمال عبد الناصر قبل أن تنضج التجربة الثورية ويضع الميثاق معترضاً على استثمار رأس المال الأجنبى . وهو بعد الميثاق لم يعترض على مبدأ استثمار رأس المال الأجنبى إنما كان حريصاً على الضوابط ، وعلى ألا يسيطر رأس المال هذا بطريقة أو بأخرى على الاقتصاد الوطنى . وبعد نضج التجربة

لم يمانع فى استثمار رأس المـــال الأجنبي لـكنه رفض أن يدخل فى قطاع المصارف وشركات التأمين والصناعات الثقيلة . لا مانع من دخول رأس المـــال فى قطاعات معينة تبعاً للظروف ولتوافر الخبرات . وقد دخل بالفعل فى شركات البترول على أن تحتفظ الدولة بنسبة ٧٥ فى المئة . ودخل أيضاً فى بعض شركات الأدوية مثل شركة « فايزر » . يعنى أن استثمار رأس المـــال الأجنبي لم يكن محظوراً إنما مقيداً بحيث لا يكون اقتصاد مصر تحت مظلة الاستغلال وبحيث لا يتعارض مع التخطيط .

فؤاد مطر : فى ٢٥ فبراير (شباط) ١٩٥٣ أعلن جمال عبد الناصر أنه ينبغى على الأمم الصديقة الأخذ برغبة الشعوب العربية فى الوحدة .
هل كان البعد القومى تكون آنذاك فى ذهنه ؟

محمد حسنين هيكل :

قبل ١٩٥٢ وبالتحديد فى المرحلة التى سبقت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ كان جمال عبد الناصر وطنياً مصرياً . وكان من الطبيعى ألا يكون البعد القومى واضحاً فى ذهنه خلال تلك الفترة . لـكن البعد القومى بدأ يتكون لدى جمال عبد الناصر تدريجاً منذ قرار التقسيم عام ١٩٤٧ . وملامح ذلك كانت عندما عرض تدريب متطوعين لـكى يحاربوا فى فلسطين .

وهذا العرض له قصة . كان الحاج أمين الحسينى فى ذلك الوقت لاجئاً فى مصر . وكان يشكل مجموعات تحارب فى فلسطين ضمن قوات « الجهاد المقدس » . وكان بالتعاون مع عبد القادر الحسينى يسعيان لدى الحكومة المصرية لمدهما بضباط تدريب للمتطوعين . وكلفت الحكومة بعض الضباط تولى المهمة .

ومن دون علم الحكومة ذهب عبد الناصر إلى الحاج أمين الحسينى وقال له أنه مستعد للمشاركة فى تدريب المتطوعين . وكان له ما أراد .

حتى هذه البادرة منه لا تمثل البعد القومى . يمكن النظر إليها كعملية تعاطف مع الشعب الفلسطينى . تعاطف جوار أو شئ من هذا القبيل . يضاف إلى ذلك أن جمال عبد الناصر كان فى ذلك الوقت يتولى تدريس حملات اللنبى فى الكلية الحربية . ومن الطبيعى أنه كان مدركاً تماماً أهمية فلسطين فى الدفاع عن مصر .

من الصعب تحديد الدافع الذى جعل عبد الناصر من دون علم الحكومة يتصل بالحاج أمين عارضاً عليه تدريب عناصر للعمل فى قوات « الجهاد المقدس » . هل هى العاطفة القومية أم الحس الاستراتيجى ؟ ولكن من المؤكد أن البعد القومى بدأ يتكون فى تفكيره عندما حارب على أرض فلسطين .

واهتمامه الكبير بقضية فلسطين اضطره إلى أن يوقف نشاطه لتنظيم الضباط الأحرار بعض الوقت . وحدث بالفعل أنه فى ٢٧ أو ٢٨ يناير (كانون الثانى) ١٩٤٨ أوقف نشاط التنظيم وطلب من أعضاء هذا التنظيم فى ذلك الوقت أن يتصرفوا .

وبالإضافة إلى اهتمامه بقضية فلسطين وانشغاله فى تدريب متطوعين ، فهناك سبب آخر جعل عبد الناصر يجمد نشاط تنظيم الضباط الأحرار ، هو أن رقابة الملك زادت وبدأت الأجهزة تتنبه إلى أن ثمة حركات داخل الجيش .

إن القول أن عبدالناصر اكتشف البعد العربى بعدما حارب على أرض فلسطين هو الأقرب إلى الواقع . وفى « فلسفة الثورة » نلاحظ قوله أنه فى تلك الفترة رأى الفلسطينى يحارب إلى جانب العراقى إلى جانب السورى إلى جانب المصرى إلى جانب الأردنى .

وعلى أرض فلسطين اكتشف حقيقة الوجود الإسرائيلى وحقيقة الاستعمار وشاهد الأطراف القومية حيال قضية فلسطين .

وعلى أرض فلسطين تكونت لديه حقيقة أساسية هى : الدفاع عن مصر مرتبط بالوضع فى سوريا . وفلسطين هى التى تربط هاتين الحلقتين أى مصر وسوريا .

وعلى أرض فلسطين تكونت لديه قناعة أن العالم العربى وحدة .

ولم يطل به الأمر لتكريس هذه القناعة . فى « فلسفة الثورة » عام ١٩٥٣ تحدث عن دوائر ثلاث : الدائرة العربية والدائرة الإسلامية والدائرة الأفريقية .

واستحوذت الدائرة العربية على تفكيره ومشاعره لأنه بدأ يقتنع تماماً بأن الساحة الكبرى والأولى للصراع مع الاستعمار هى الأرض العربية .

فؤاد مطر : فى ٢١ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٥ صدر قانون إلغاء القضاء الشرعى والملى وتوحيد الجهات القضائية للمرة الأولى فى مصر .

ثم صدر فى ٢٣ يونيو (حزيران) ١٩٦١ قانون بتنظيم الأزهر وتطويره كجامعة عصرية تهتم بالعلوم الحديثة إلى جانب الشريعة والفقه .

ما هو موقف عبد الناصر من الدين وكيف كان يرى دوره ودور رجال الدين فى المجتمع والثورة ؟

محمد حسنين هيكل :

أعتقد أن الذى جعل عبد الناصر يختلف مع الشيوعيين هو موقفهم من الوطنية والدين .

وحول هذه المسألة جرت مناقشات كثيرة بين عبد الناصر وعدد من أصدقائنا الشيوعيين . وأتذكر مناقشة بينه وبين خروشوف قال فيها عبد الناصر : إننى مستعد أن أقبل النظرية العلمية فى نشأة الإنسان ، ولكن هل هنالك من يستطيع أن يفسر لى كيف نشأ الكون ؟ إننى أستدل على وجود الله من نشأة الكون . وعندما يأتى من يعطينى تفسيراً كاملا لنشأة الكون أصبح على استعداد للمناقشة . إننى رجل مؤمن .

ولم يكن عبد الناصر من النوع الذى يتاجر فى مسألة الدين . وكان حريصاً على تطوير الأزهر والمعاهد الدينية ولا يرى فى هذا التطوير ما يتناقض مع الدين . وكان يرى أن جوهر الدين الإسلامى وبقية الأديان السماوية هو تقدم الإنسان . ومن هذه النظرة جاء حرصه على التطوير .

فؤاد مطر : من كان بين أعضاء مجلس قيادة الثورة أحبهم إلى قلب عبد الناصر ؟

وكيف كان يعامل أعضاء المجلس أثناء التعايش والمشاركة فى الحكم ، وبعدما خرجوا أو أخرجوا ؟

محمد حسنين هيكل :

أعتقد أنه كان يحبهم كلهم من دون استثناء وكانت الرابطة التى تجمعهم من نوع غريب . وكان منظرهم عندما يذهبون إلى برج العرب أو استراحة القناطر الخيرية من دون زوجاتهم غريباً أيضاً . كانوا هناك يتناقشون ويتذكرون ويمرحون ويضحكون من دون تكليف. وكانوا يبدون فى جلساتهم هذه كما لو أنهم معسكر كشافة.

وكان أحبهم إلى قلبه لبعض الفترات ونتيجة للظروف عبد الحكيم عامر . وأعتقد أن جزءاً من مأساة ١٩٦٧ كان حبه لعبد الحكيم عامر . ذلك أن هذا الحب حال دون أن يقتنع عبد الناصر بدرجة كافية أن عبد الحكيم عامر لا يصلح لقيادة .

إن عبد الحكيم عامر كان نصف فنان ونصف بوهيمى ولطيفاً جداً ولكنه عسكرياً ، توقف عند رتبة الصاغ ، أى أنه يستطيع أن يقود كتيبة لكنه لا يستطيع أن يقود جيشاً . لقد أصبح عبد الحكيم عامر ضابطاً سياسيا . والضابط السياسى لا يمكن أن يكون مسؤولا عن قيادة جيوش .

واستمر حب عبد الناصر لعبد الحكيم عامر لفترة ما بعد الوحدة ثم بدأت علاقتهما تتزعزع . وهو عندما عينه نائباً أول له كان يتصور أن عبد الحكيم عامر يمكن أن يقود من بعده .

كذلك كان عبد الناصر يحب خالد محيي الدين وسمى ابنه باسمه . وكان يحب أنور السادات كثيراً ويحب مجالسته والتحدث معه . وكان يحب عبد اللطيف البغدادى ومعجباً بكفاياته التنفيذية . وكان يحب زكريا محيي الدين ويعتبره ذكياً جداً .

والواقع أن كلا من أعضاء المجلس كان يكمل الآخر . وقد نشأت بينهم وبين عبد الناصر مشاكل وحدثت خلافات ، لكنها لم تكن تتجاوز الناحية الانسانية .

وهنالك حقيقة أساسية هى أن التجاوزات التى حدثت لم تحدث من أعضاء مجلس قيادة الثورة إنما من المحيطين بهم .

فؤاد مطر : كان العام ١٩٦٦ عام تبلور مراكز القوى فى نظام عبد الناصر . والذى يجعلنا نفترض ذلك أنه فى ذلك العام قفز على صبرى ليصبح الأمين العام للاتحاد الاشتراكى العربى ، وحدثت مؤامرة من جانب الأخوان المسلمين ، وجرت محاكمات لثمانية بينهم ستة من أفراد قوة الحراسة الملحقة بمكتب المشير عبد الحكيم عامر لتصفية جيوب الإقطاع على إثر حوادث كمشيش حيث اغتيل أحد رجال الاتحاد الاشتراكى على يد بعض الإقطاعيين .

هل توافق على أن ذلك العام كان عام تبلور مراكز القوى ، وهل أن أول خلاف على مع عبد الحكيم عامر كان فى ذلك العام ؟

محمد حسنين هيكل :

فى النظام الذى يعتمد التنظيم الواحد لابد أن تكون هنالك جيوب تستغل لنفسها

مواقع فى السلطة من دون أن يكون قصدها الاستفادة المالية . ومن طول الاستمرار يصبح لهذه الجيوب أو المراكز وضع خاص . ومثل هذا الأمر تنبه له ماوتسى تونغ فىالصين حيث الحزب هو الحاكم والمنظم والعقائدى . فقد لاحظ أن داء البيروقراطية يستشرى وتحصل بعض القيادات على نوع من الامتيازات مستفيدة بشكل أو بآخر من مواقعها . وتنيجة لذلك رأى ماوتسى تونغ أن جماهير الحزب يجب أن تكون قادرة بين فترة وأخرى على إسقاط قياداتها التى ترهلت فى السلطة أو استأثرت بها وتحل محلها قيادات شابة . ومن هنا جاءت الثورة الثقافية بقصد أن تكون ثورة ممتدة ودائمة وتنهى القيادات التى ترهلت أوتحجرت أو استفادت بشكل أو بآخر .

وفى التنظيم الواحد أو الحزب الواحد تبدو الصدمة من الداخل هى الوسيلة المجدية للقضاء على الترهل والكسل والتحجر ، أى نقيض ما يجرى فى الدولة التى تتعدد فيها الأحزاب ، حيث أنه إذا ترهل حزب أو تحجر يأتى حزب آخر ويتسلم السلطة (أميركا أو بريطانيا مثلا) .

ومسألة مراكز القوى فى مصر يجب أن نضعها فى حجمها الطبيعى . ومراكز القوى كانت دائماً موجودة ما دامت الثورة المصرية اعتمدت التنظيم الواحد . كانت موجودة قبل مجموعة ١٤ مايو .

ولأن الوسيلة الوحيدة لتنشيط التنظيم الواحد هى أن يهز التنظيم نفسه وينفض عنه عناصر علقت به وهى من النوع الذى احتل فى غيبة عن مراقبة القيادة وفى غيبة عن مشاركة الجماهير ، أو بحكم الممارسة ، مراكز قوة استعملت لهدف شخصى . . لأن تلك هى الوسيلة الوحيدة فإنه كان يحدث كل فترة ، ثلاث أو أربع أو خمس سنوات ، هزة داخل التنظيم فتخرج وجوه وتبرز وجوه . وعلى سبيل المثال فإنه بعد حرب السويس ١٩٥٦ سقطت عناصر كانت تشكل قوة قبل ذلك .

ولو تأملنا فى أحداث العام١٩٦٥ لوجدنا أنه كان عاما حمل فى طياته بعض المخاطر . فقد جرت محاولة من جانب الأخوان المسلمين لاغتيال جمال عبد الناصر ، كما أن بعض القيادات العسكرية التى تسيست بدأت تستفيد من حرب اليمن . وهذه الأمور وغيرها بدأت تنعكس على العام ١٩٦٦ حيث بدأ الإقطاع القديم يتحرك . وبدت المسألة كما لو أن هنالك محاولة انقضاض على التجربة المصرية .

فى مقابل ذلك بدأت تحدث تفاعلات عنيفة فى إطار التنظيم الواحد . والأسلوب الذى اتبع فى معالجة تحرك الإقطاع القديم من جهة ومحاولة الأخوان المسلمين من جهة أخرى ربما كان دافعه هو الخوف على التجربة .

وفى ذروة التفاعلات العنيفة برز على صبرى الذى كان فى منظمة الشباب . لكن النشأة الحقيقية لمراكز القوى (جماعة ١٤ مايو) حدثت عقب حرب ١٩٦٧ بعدما اضطر عبد الناصر إلى تحديد مسؤولياته وترك الكثير من اختصاصاته للآخرين ، من أجل أن يتفرغ لثلاث قضايا أساسية هى :

- تصحيح آثار الهزيمة وإعادة بناء القوات المسلحة من أجل الاستعداد لتحرير الأرض .
- العلاقات مع الاتحاد السوفياتى مصدر السلاح الوحيد لنا .
- الموقف العربى والوضع الدولى .

وعدا ذلك لم يكن عبد الناصر يفكر فى شئ . أسقط القضايا الثانوية من اهتمامه وركز فقط على القضايا الثلاث .

وفى هذا الغياب الاضطرارى لعبد الناصر عن المسائل الثانوية نشأت مراكز القوى . إنما ليس معنى ذلك أن نرمى كل شئ على مراكز القوى ، ونفتش عن أى إساءة لنلصقها بها .

ولنأخذ مثلا على صبرى الذى كنت على خلاف دائم معه . إن على صبرى وطنى أخطأ فى التحليل وليس عميلا . أشرف كرئيس للوزراء على تنفيذ خطة التنمية الأولى بنجاح . وكان من أقرب معاونى جمال عبد الناصر . أما أن على صبرى اختلف بعد ذلك مع الرئيس أنور السادات واتبع أسلوباً أعتبره أنا خاطئاً فهذه مسألة أخرى ، ولا تلغى كفايات رجل أو تلقى ظلالا على دوره الوطنى . لقد أخطأ على صبرى فى عملية التجمهر التى كان الهدف منها إحراج الرئيس السادات ولكن من غير اللائق التشكيك فى وطنيته ودوره فى عملية التنمية .

وهنالك آخرون غير على صبرى أخطأوا فى التحليل ، لكن لماذا لا نحقق فى ذلك كله بدل أن نتكلم فى الغيب . ولماذا يترك المجال للذين يهشمون هؤلاء عبر صرخات أو صيحات سواء كانت حقيقية أو مدعاة أو مأجورة .

لماذا لا نحقق بدل أن نرجم بالغيب ونتهم ؟ إن هنالك قضايا كثيرة فى مصر

مطلوب مناقشتها والتحقيق فيها . يجب أن نناقش التجربة الاشتراكية والطريقة التى طبقت بها . وهل نجحت التجربة أم لم تنجح . نناقشها بجدية وليس بالبلاهات والسذاجات . . وأمام الجماهير التى هى صاحبة التجربة . نناقش ونحدد ما هو الخطأ وما هو الصح . وما الذى يجب أن يعمل . وما الذى كان تنفيذه خطأ . إننى أرى أن مثل هذا الأمر ضرورى ويجب أن تتولى جهات نزيهة ومحايدة وحريصة على مصر مناقشة كل القضايا على أن تطرح أمامها الوثائق .

إن قضايا كثيرة فى مصر يجب أن تناقش . ما حدث فى ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ يجب أن يناقش . التطبيق الاشتراكى فى مصر يجب أن يناقش . ما يقال عن جماعة ١٤ مايو يجب أن يناقش .

ولا مانع من المناقشة إذا حدثت بتجرد . وليس فى قدرة أى أمة أن تواصل الطريق نحو مستقبلها من دون أن تنظف الجروح التى فى صدرها . والوسيلة الصحيحة لتنظيف الجرح هى فتح هذا الجرح وليس معالجته بالمندل والسحر والتعاويذ . ومثل هذا الأمر يتولاه جراح علمى وليس حلاق صحة .

فؤاد مطر : حفلت سنوات حكم عبد الناصر بمؤامرات وانقلابات كثيرة . ما ردك على الذين يفترضون أن بعض هـــذه المؤامرات والإنقلابات كان مفتعلا ، لتصفية الجيوب المعارضة ؟

محمد حسنين هيكل :

لم يحفل عصر عبد الناصر بمؤامرات كثيرة عدا محاولات فى بداية الثورة من بعض العسكريين . حتى محاولة الأخوان المسلمين عام ١٩٦٥ لم تكن مؤامرة هدفها الإستيلاء على السلطة . ثم ما حاجة جمال عبد الناصر إلى افتعال مؤامرات ضده . إنه لم يحدث فى التاريخ المصرى أن أعطى حاكم تأييداً كالتأييد الذى أعطاه الشعب لعبد الناصر . ولم يحدث أن حظى حاكم مصرى بتأييد من الجماهير العربية كالتأييد الذى حظى به عبد الناصر .

إذاً ، ما حاجته إلى تلفيق المؤامرات ؟

إن عبد الناصر لم يكن مريضاً بعقدة الإضطهاد . وليس مثل الزعماء الذين يحبسون أنفسهم فلا يظهرون على الجماهير لشعور منهم أن الصلة مفقودة بينهم وبين الجماهير .

إنه كان دائماً مع الجماهير وأمامها تثق فيه ويثق فيها . كان يذوب فى هذا البحر من البشر . والجماهير أعطته ما لم تعطه لأى حاكم .

وعبد الناصر ليس معقداً لشعور منه بأنه مكروه ، ويحتاج إلى عواطف الناس . إن شخصاً من هذا النوع ليس فى حاجة إلى افتعال المؤامرات .

فؤاد مطر : نلاحظ أن عبد الناصر كان ضعيفاً تجـاه الثورة الجزائرية . بمعنى أنه كان مستعداً لأن يفعل أى شئ من أجلها . لمـاذا ؟ وما الذى فعله عبد الناصر بالتحديد لهذه الثورة ؟

محمد حسنين هيكل :

فى اعتقادى أنه لولا عبد الناصر لكانت الثورة الجزائرية فى حاجة إلى بضع سنوات أخرى لتحقيق هدفها . إن الجزائريين هم الذين قاموا بالثورة وهذه مسألة لا تناقش إلا أن عبد الناصر قدم إلى هذه الثورة من دون حدود .

وقبل أن تبدأ الطلقة الأولى جاء بن بيللا إلى القاهرة وأطلعه على الوضع . وبعد هذا اللقاء بدأ عبد الناصر يمد ثورة الجزائر بكل المساعدات الممكنة . وكانت المساعدات تتزايد بسرعة خطيرة جداً إلى درجة أن اشتراك فرنسا فى العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ كان نوعاً من الرد على ما فعله عبد الناصر لثورة الجزائر . وهنالك عدد من جنرالات فرنسا (سالان مثلا) قالوا إن الثورة الجزائرية هى ذيل الأفعى الموجود فى مصر وأن فرنسا عندما شاركت فى العدوان الثلاثى فلكى تضرب رأس الأفعى .

بمعنى آخر أن فرنسا حاولت فى حرب السويس أن تضرب الجزائر عن طريق ضرب مصر وهذا يظهر إلى أى مدى كانت مساعدة مصر لثورة الجزائر فعالة .

وبعدما نجحت الثورة الجزائرية كان جمال عبد الناصر فى غاية الحماسة وكان رأيه أنه يجب مساندة النظام الجزائرى بكل الإمكانات . وترجمة لذلك فإن عبد الناصر أمر بأن تحول إلى الجزائر مصانع كانت مشحونة إلى مصر . وبالتحديد مصنع نسيج كان سيتم تركيبه فى شبين الكوم . وكان رأى عبد الناصر أن مثل هذا الأمر يظهر النظام الجزائرى كأنه بدأ يقدم إنجازات عملية .

ومصنع النسيج مثل من أمثلة كثيرة . وهنالك الأعداد الكبيرة من المدرسين والفنيين التى أرسلت على الفور إلى الجزائر . وفى الموازنة المصرية كان هنالك اعتماد للجزائر .

ومرت فترة كان الاتحاد السوفياتى فيها غير ملم تماماً بالثورة الجزائرية . وقد شرح عبد الناصر للسوفيات ظروف هذه الثورة . ونتيجة لذلك تغيرت نظرتهم واهتمامهم .

وفى مؤتمر بريونى لدول عدم الانحياز حدث أن محمدخيضر جاء إلى يوغوسلافيا فى محاولة لعرض وجهة نظر الثورة الجزائرية . ولم يسمح له بالانتقال إلى بريونى وبقى فى « باولا » لأنه كان من رأى تيتو ونهرو أن حضوره إلى بريونى سيحدث مشكلة لدول عدم الانحياز مع فرنسا . لكن عبد الناصر ضغط من أجل أن يحضر خيضر إلى بريونى ويقوم بالمهمة الموكلة إليه .

وحضر مندوب الثورة الجزائرية وشرح ما أمكنه شرحه . والذى حدث أن فرنسا تضايقت بالفعل .

فؤاد مطر : من تتبع حركة عبد الناصر يتضح أنه كان مهتما بمصير جزيرة قبرص . وكان يبدو أن الجزيرةجزء من الرؤيا الاستراتيجية له فى المنطقة حيث تتصل بأمن مصر وبالصراع العربى – الإسرائيلى .

لماذا كان هذا الاهتمام المكثف من جانب عبد الناصر ، وما هو الدور الذى لعبه فى مساعدة كفاح شعب قبرص من أجل الاستقلال ، وما هى الصورة التى كان يريد أن تكون عليها قبرص المستقلة ؟

محمد حسنين هيكل :

ساعدنا القبارصة بمنطق الاستقلال . وكانت أيوكا على اتصال بنا . وأعطينا السلاح للقبارصة لكى يقاوموا الإنكليز . هذه ناحية من الموضوع . والناحية الأخرى منه أن قبرص مركز أمامى فى البحر الأبيض المتوسط له أهميته فى المنطقة الشرقية من هذا البحر حيث الشواطئ العربية .

وفى تلك الفترة كان الإنكليز فى السويس وفى قبرص وفى مالطة وفى الحبانية .

وكنا عندما نضغط عليهم فى السويس ينتقلون إلى قبرص ، وعندما يضغطون عليهم فى قبرص كانوا ينتقلون إلى مكان آخر . كان ضغط القبارصة على الإنكليز يخفف بالفعل العبء عنا .

وظهرت أهمية قبرص فى حالتين . الأولى عندما كنا نبحث عن معلومات لنعرف ما إذا كان الإنكليز سيتدخلون فى السويس أم لا. أما الحالة الثانية فكانت خلال الحرب التى شنتها بريطانيا على مصر فى ١٩٥٦ . وفى تلك الحرب ضربت مصر طائرات بريطانية أقلعت من قبرص وحدث تحرك بحرى بريطانى ضدنا من الأسطول الذى جاء من مالطة . وفى قبرص أقام الإنكليز عدداً من المحطات الإذاعية السرية لتتولى مهمة الحرب النفسية ضد مصر . وبفضل التعامل والمساعدات حصلنا على صور لهذه المحطات بمساعدة من ثوار أيوكا .

إذاً فإن اهتمام عبد الناصر بقبرص نتج عن الأسباب الآتية :

أولا ـ أن الجزيرة هى جزء من الشبكة الاستعمارية . وضربها أو تخليصها من الاستعمار البريطانى فيه إضعاف للحلقة الاستعمارية .

ثانياً ـ أن الجزيرة تمثل مركز جمع معلومات مهمة جداً بالنسبة إلينا يفيدنا فى استكشاف نيات الإنكليز وإسرائيل .

ثالثاً ـ أنها مطار أمامى لضرب مصر .

رابعا ـ أنها نقطة حشد بحرى ضد مصر .

خامسا ـ أنها نقطة ارتكاز برى أمام مصر توجه بريطانيا منه الحرب النفسية ضدنا .

سادسا ـ أن جزيرة قبرص تشكل مركزاً اقتصادياً فى غاية الأهمية على صعيد محاربة إسرائيل اقتصاديا .

سابعا ـ بالنسبة إلى الأمن العربى تبدو قبرص كنقطة ملاحظة أمامية . ولذا فمن الطبيعى أن يكون عبد الناصر حريصا على استقلال الجزيرة وعلى قيام حكم فيها تكون مصر مطمئنة إليه ، بل متعاطفة معه ، وهذا ما حدث . والأمر نفسه بالنسبة إلى مالطة .

فؤاد مطر : هنالك كلام قيل فى تكرار خلاصته أن ظهور عبد الناصر جاء نتيجة الصراع الذى دار فى مصر والمنطقة العربية

بين الاستعمار الأميركي الجديد والاستعمار البريطاني القديم الذي أراد الاستعمار الجديد أن يرثه . وتبعاً لذلك كان لابد من ظهور زعامة جديدة متحالفة مع الأميركان ضد الاستعمار البريطاني .
ما رأيك في هذا التحليل ؟

محمد حسنين هيكل :

هذا التحليل غير صحيح لأن الصراع بين أميركا وبريطانيا كان على الأهداف نفسها . إنه صراع بين قوتين تمثلان السيطرة وما بينهما هو تناقض أقرب إلى التنافس منه إلى العداء . إنه عملية مد وجزر داخل المنطلق الاستعماري ولا يمكن أن يؤدي ذلك إلى ظهور عبد الناصر أو إلى عدم ظهوره .

من هنا أن عبد الناصر لم يظهر نتيجة للصراع الأميركي ـ البريطاني في المنطقة ، إنما جاء كنتيجة طبيعية للتفاعلات الوطنية المصرية مع الاتجاه العربي . خاض تجربة الدم في فلسطين وهذا ما جعل الوطنية المصرية تمتزج مع البعد القومي العربي . وإذا عدنا إلى مفهوم عبد الناصر لظهوره لوجدناه في عبارة كان يرددها في استمرار وهي : إنني مجرد تعبير عن القومية العربية في مرحلة من المراحل .

فؤاد مطر : في ٢٣ يونيو (حزيران) ١٩٥٦ أصبح عبد الناصر أول رئيس جمهورية منتخباً من الشعب بنسبة ٩٩,٨٤ في المئة .

بماذا تفسر هذه الشعبية مع وجود قوى معارضة ضخمة آنذاك . وهل من المعقول توافر هذه النسبة ؟ وهل أن عبد الناصر كان محتاجاً إلى هذه النسبة لكي يحكم ؟

وفوق ذلك ألا ترى أن ظاهرة ارتفاع النسبة في كل استفتاء يجرى كانت تتسم بالمبالغة ؟ وهل كان عبد الناصر شخصيا يريد النسبة مرتفعة أم أن الأجهزة كانت تحرص على ذلك ظناً منها أن عبد الناصر يرتاح إلى ذلك ؟

محمد حسنين هيكل :

الذي أعرفه وأنا واثق منه كل الثقة أنه لم يكن هنالك أي تزوير في ذلك الاستفتاء .

وبالمنطق يمكن أن نؤكد ذلك . عندما يأتى عبد الناصر ويقول إن هدفه طرد الإنكليز من مصر وأنه يريد أن يصفى رواسب المجتمع القديم . عندما يكون عبد الناصر عاملا على هذا الأساس وترى الجماهير أنه يعمل بالفعل فهل تقول له « لا » فى الاستفتاء . قد يقول « لا » الذين يمثلون المجتمع القديم الذى يريدعبد الناصر تصفيته ، وهؤلاء ليسوا أكثر من الخمسة آلاف أو العشرة آلاف الذين قالوا « لا » فى ذلك الإستفتاء .

يضاف إلى ذلك أنه فى تلك الفترة ربما كانت هنالك قطاعات فى الرأى العام المصرى غير مسيسة وقالت « نعم » فى الاستفتاء ظناً منها أنها بذلك تتمشى مع ما تتصور أنه رغبة السلطة القائمة فى ذلك الوقت .

وأؤكد أن عبد الناصر لم يطلب تزويراً آنذاك ولا التزوير حدث .

ولنأخذ بعد ذلك الاستفتاءات اللاحقة . هل أن الجماهير كانت ضد الوحدة لكى تقول « لا » ؟ أبداً . ولا تزال صورة الاستقبال الشعبى الذى جرى فى سوريا ماثلة فى الأذهان وتؤكد أن النسبة التى نالها عبد الناصر كانت حقيقية وطبيعية .

يجوز أن عبد الحميد السراج وبعض الضباط الوحدويين ضغطوا بعض الشئ منطلقين فى ذلك من مشاعرهم القومية . لكن التيار كان كاسحاً حيال موضوع الوحدة . وفى مصر كان عدد الذين قالوا « لا » نحو عشرين ألفاً . وهو عدد معقول بالنسبة إلى الذين يرفضون الوحدة لسبب أو لآخر .

صحيح أن ارتفاع النسبة فى الاستفتاءات تحولت إلى ظاهرة ملفتة للانتباه ، ولكن أستطيع التأكيد أن حماسة الناس فى مصر لاستفتاء ١٩٥٦ كانت غلابة . وفوق ذلك حرصت على أن أتتبع حماسة الناس لاستفتاء الوحدة عام ١٩٥٨ ثم حماستهم للاستفتاء على بيان ٣٠ مارس . وتتبعت أيضا حماستهم للاستفتاء على الميثاق . لقد كان هنالك اندفاع كبير لأن الوحدة كانت تمثل الأمل بالنسبة إليهم . كذلك الأمر بالنسبة إلى بيان ٣٠ مارس ومضمون الميثاق . وهذا التصور من جانب الناس يؤكد أن ارتفاع نسبة التأييد مسألة طبيعية .

إن الجماهير كانت تثق بعبد الناصر وتعطيه بحماسة . إنها أعطته أكثر من الموافقة على استفتاء . وكانت فى قرارة نفسها تعتقد أنها بالقدر الذى تعطى عبد الناصر

فإنه سيبذل ما فى وسعه لكى يرد لها العطاء . وإذا قال لى أحد أن الأجهزة حاولت الضغط فى الاستفتاء على الوحدة فى سوريا ، أو أنها حاولت فى الاستفتاءنفسه على الوحدة فى مصر فإن أياً من هذه الضغوط على فرض حدوثه ليس شيئا أمام المد الشعبى الجارف الذى كان عبد الناصر يخوض معاركه معتمداً عليه .

فؤاد مطر : كيف كانت مشاعر عبد الناصر وهو يتابع تطورات سقوط أصدقائه : بن بيللا ، خروشوف ، نيكروما ، سوكارنو؟

محمد حسنين هيكل :

بالنسبة إلى بن بيللا ، كان عبد الناصر يحبه وفى الوقت نفسه يحب بومدين . كان بالفعل يحب الاثنين واجتمع مع الاثنين مرات عدة لأنهما كانا يأتيان معاً إليه . وهو تصرف كصديق عندما تأزمت العلاقات بينهما وحاول إزالة أسباب الخلاف . وبعدما حسم الأمر لمصلحة بومدين تصرف كرجل دولة خصوصاً أنه لم ينظر إلى ما حدث سوى أنه مسألة داخلية . والذى شغله هو سلامة بن بيللا . ولهذا الغرض طلب من عبد الحكيم عامر ومنى التوجه إلى الجزائر لكى نرجو بومدين السماح لبن بيللا بأن يرافقنا إلى القاهرة . وفى حينه أكد لنا بومدين حرصه على سلامة بن بيللا وصحته وانتهى الأمر عند هذا الحد .

بالنسبة إلى خروشوف الوضع مختلف . كان عبد الناصر يرتاح جداً إلىخروشوف ويحبه ويرى فيه مظهراً من مظاهر الصداقة العربية – السوفياتية . وكانت بينهما ألفة . وعلى رغم شعور عبد الناصر بالضيق لسقوط خروشوف ، بل حزنه على سقوطه ، إلا أنه كان حريصاً على ألا تتغير سياسة الاتحاد السوفياتى . وفى هذه المسألة لا يمكنه أن يتدخل . وهو من أجل ذلك اكتفى بمشاعر الضيق والحزن وبدأ يستطلع على الفور الموقف السوفياتى الجديد .

أما سقوط سوكارنو فإنه كان يعنى بالنسبة إلى عبد الناصر بداية هجمة استعمارية فى آسيا . ومن هذا المنطلق كان ضيقه لسقوطه . يضاف إلى ذلك أن عبد الناصر كان يستظرف سوكارنو ويقدر دوره الوطنى .

وعندما بلغه نبأ سقوط نكروما كان رد فعله السياسى أن العملية بداية هجمة

استعمارية أخرى فى أفريقيا ، وبدأ يستطلع ما إذا كان النظام الجديد يمكن أن يستقر . أما رد فعله الإنسانى فتمثل فى حرصه على أن يعرف ما الذى سيفعله نكروما ، وأين يقيم هو وأولاده وزوجته . وعلى الفور أبدى رغبة فى أن يقيم نكروما وعائلته فى القاهرة .

وثمة ناحية أخرى هى أن شعور عبد الناصر كان عندما بلغه موت خروشوف وسوكارنو ونكروما شعور من فقد إنساناً غالياً وعزيزاً .

فؤاد مطر : من هى الشخصيات العربية التى تأثر بها عبد الناصر أو أحبها أو وثق فيها أو كلفها مهمات تاريخية ؟

محمد حسنين هيكل :

لقد أحب عبد الناصر كثيراً شكرى القوتلى . وفى الوقت نفسه أحب نقيضه عبد الحميد السراج . وكان معجباً بميشال عفلق وإن كان مختلفاً معه . وكان معجباً بصلاح البيطار حتى بعدما اختلفا استمر معجباً به . وكان فى بعض الأحيان يناكفه لأنه معجب به .

وفى فترة كان معجباً بالملك حسين . ولقد مرت فترة أحب خلالها الملك سعود . وفى فترة ما قبل ١٩٥٦ أحب الأمير فيصل الذى كان ولياً لعهد السعودية وكان ينظر إليه على أنه عاقل . وكان حبه كبيراً لبن بيللا وبومدين ومعمر القذافى .

ولقد أحب إميل البستانى حباً جما وكلفه بعض المهمات ومنها مهمة كان عبد الناصر فى غاية الراحة لأن إميل البستانى قام بها . وهذه المهمة كانت إيصال فيلم عن ضرب بورسعيد إلى لندن وعرضه فى مجلس العموم .

وعلى إثر الأزمة التى نشأت بين مصر والاتحاد السوفياتى بسبب العراق بعد ١٩٥٩ كلف عبد الناصر صديقه بن بيللا التوجه إلى موسكو فى مهمة تستهدف إزالة سوء التفاهم الذى حدث . وبعد ١٩٦٧ كلف الرئيس بومدين مهمة تاريخية لدى السوفيات أيضاً . وأشرك فى هذه المهمة الرئيس العراقى عبد الرحمن عارف .

فؤاد مطر : كيف أمكن عبد الناصر أن يقوم بثورة وينجح فى الاستيلاء على السلطة ولا ينجح فى بناء تنظيم للثورة بعد ذلك على رغم أنه كانت له شخصية القابض على الحكم ؟

لقد سجل نجاحاً ماديا فى تطوير المجتمع إلا أنه لم ينجح فى بناء قاعدة سياسية له بدليل الفشل المتكرر لكل التنظيمات التى أقامها من هيئة التحرير إلى الإتحاد القومى إلى الإتحاد الاشتراكى العربى إلى التنظيم الطليعى السرى .

كيف تفسر هذا الفشل ؟

محمد حسنين هيكل :

عندما أنشأ الضباط الأحرار تنظيمهم كان هنالك فراغ فى التنظيمات السياسية . وكانت هنالك قوى كثيرة فى البلد تنشد التغيير ولا تجد فى التنظيمات (أى الأحزاب السائدة) من يعبر عنها .

ولأن الجيش هو القوة الوحيدة القادرة على التغيير فإن الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر شغلوا بالتنظيم القادر على إحداث التغيير الذى تنشده قوى شعبية كثيرة ، وليس على إنشاء تنظيم عقائدى . وأصبح الضباط مشغولين بمغامرة التغيير أكثر من انشغالهم بالتخطيط والتنظير . وفى تصور عبد الناصر أن التخطيط لا يعود صعباً بعد التغيير .

وهكذا لا يمكن أن نقول لعبد الناصر الذى كان يعمل تحت الأرض فى تنظيم سرى ما هى عقيدتك . أما الأحزاب السياسية آنذاك فلم تكن لديها القدرة على تلقيح كاف لأى قطاع من قطاعات المجتمع لأنها أحزاب تنتمى إلى طبقة واحدة .

وقامت الثورة . حدث التغيير الذى خطط له عبد الناصر . وأصبح المطلوب بعد ذلك هو إغناء فكر الثورة . ولكن من هم الذين فى قدرتهم القيام بهذا الدور ؟ إنهم المثقفون . وهؤلاء كانوا نوعين . النوع الأول ينتمى إلى الطبقة القديمة . ومثقفو هذا النوع سافروا إلى الخارج فى بعثات وكان فى قدرتهم المساهمة علماً وفكراً وثقافة وتخطيطاً لكنهم اتخذوا بسبب انتمائهم الطبقى موقفاً من الثورة إذا كنا لا نعتبره موقفاً عدائيا فإنه فى أى حال موقف اتسم بالتحفظ .

أما النوع الثانى من المثقفين فيضم اليساريين الماركسيين . وهؤلاء كانوا مبتعدين عن الثورة وينظرون إليها على أنها حركة فاشيستية تمشيا مع المفهوم الماركسى للانقلابات . ولقد اعتبروا ما حدث انقلاباً وليس ثورة .

مثقفو أبناء الطبقة القديمة متحفظون تجاه الثورة . ومثقفو اليسار الماركسى مبتعدون . وعبد الناصر فى ذلك الوقت كان يعرف ما الذى لا يريده لكنه لم يكن يعرف تماما ما الذى يريده .

ولأن الثورة المصرية وجدت فى عصر تعقدت القضايا فإن عبد الناصر أصبح يتطلع نحو الطريقة التى يواكب بها التطور ، وليس إلى الاهتمام بالتنظيمات السياسية . بالتطوير يمكن بناء الدولة . والذين يتولون عملية التطوير هم الفنيون وليسوا العقائديين .

ولنأخذ مثلا ما حدث فى الاتحاد السوفياتى . عندما نجحت الثورة ووصل الحزب الشيوعى إلى الحكم سألوا لينين : ما هى الشيوعية . كيف تعرفها ؟ وأجابهم : إنها السوفيتات مضافة إليها كهربة الاتحاد السوفياتى ، أى أنه وضع ما تصنعه العقيدة على مستوى ما يصنعه الإنجاز الفنى والعلمى .

وبعدما تمت كهربة الاتحاد السوفياتى وجد لينين أنه إذا كان لا بد من الإنجاز والسرعة فى التطور فالحاجة ملحة إلى الفنيين أيضاً .

وبفضل الفنيين أمكن الاتحاد السوفياتى أن يطور كثيراً . لقد خاض الحرب العالمية بطائرة ذات جناحين والآن عنده طائرة تحمل القنابل الذرية . والاتحاد السوفياتى لم يكسب الحرب بفضل العقائديين وحدهم إنما بفضل ما أحدثه الفنيون من تطوير مذهل .

ولنفترض أن القيادة السياسية — الحزبية فى الاتحاد السوفياتى قررت وضع خطة تقضى بضرورة أن يتفوق الاتحاد السوفياتى على الغرب فى إنتاج سلاح معين . إن تحقيق الخطة سيكون مرهوناً بالفنيين وليس بالعقائديين . إن الحزب هو الذى يقود ويرسم الإطار العام والخط الأساسى لحركة المجتمع . هذا صحيح لكن العصر جاء بدور آخر نسبى للقادرين على التنفيذ .

وعندما فكر عبد الناصر بالتطوير والبناء الاقتصادى والتصنيع قبل أن ينشغل بتكوين التنظيم السياسى الناجح فلقناعة منه أن التنظيم يفيد إذا كانت هنالك عملية تطوير . ثم إن وسائل المواصلات أثرت إلى حد ما فى مفاهيم دور الحزب . إن لينين عندما أنشأ الحزب كان يستهدف أمرين : الأول أن ينقل الحزب عبر كادراته

أفكار القيادة إلى القواعد . والثانى ضمان استمرار قوة الجماهير المنظمة وتوجيهها بحيث تكون حامية للسلطة بعد الاستيلاء عليها . وعبد الناصر لم يكن يحتاج إلى ذلك لأنه فى استمرار - على عكس لينين - أمام الجماهير يخاطبها ويوجهها . وعندما لا يكون أمامها ، يتوجه إليها ساعة يريد عبر الإذاعة والتليفزيون . ولقد حرك الجماهير فى معظم أرجاء الوطن العربى بالمخاطبة الإذاعية . وأسقط حلف بغداد بالكلمة المذاعة على الهواء . وأرهق الوجود الإستعمارى البريطانى فى الجنوب العربى بالكلمة المذاعة أيضا وليس بواسطة القيادات الحزبية التى كانت تنتقل من مصر إلى الجنوب العربى لتحريك الجماهير .

وتدليلا على أهمية الوسائل الإعلامية المتطورة وتفوقها على الوسائل الحزبية فى الوصول إلى الجماهير ، ما حدث فى معركة انتخابات رئاسة الجمهورية الفرنسية . أن جيسكار ديستان خاض المعركه يدعمه حزب ضعيف جداً بل إنه أضعف الأحزاب فى التحالف الديغولى ، ضد فرانسوا ميتران الذى تقف وراءه قوى اليسار الفرنسى . واستطاع ديستان أن يخوض المعركة من التليفزيون الفرنسى ويحقق انتصارا على أقوى حزب فى فرنسا . لم يكن التنظيم الحزبى هو المفتاح الوحيد إنما كان هناك شئ آخر . ثم هل أن ديغول كان يحكم بقوة حزبه ؟ ليس تماما . أظنه كان أقوى من حزبه بوصوله المباشر إلى جماهير عريضة رأت فيه رمزاً ومعنى .

فؤاد مطر : ولكن ألا تعتقد أن مجرد تفكير عبد الناصر بتطوير التنظيم وتكرار المحاولات لإنجاح فكرة التنظيم كان معناهما أن النظام فى حاجة إلى تنظيم يحميه أو يؤمن له الاستمرار ، أو الأمرين معا ؟

محمد حسنين هيكل :

بالطبع كان عبد الناصر يشعر بالحاجة إلى التنظيم لكن الظروف كانت تصدم هذا الشعور . ومع ذلك فإنه كانت لعبد الناصر القدرة على تعبئة الجماهير عن غير طريق الحزب . ولو أن العناصر المثقفة ساعدته على إنشاء الحزب المطلوب لما كان تأخر فى التجاوب مع تلك العناصر . وفى أى حال كان رأيه أن تعبئة الناس بالإنجازات أكثر فعالية من تعبئتها عن طريق الحزب . إن الحزب ما كان ليستطيع

تعبئة الجماهير كما عبأها بناء السد العالى ، أو بناء المصانع . وعملياً إن الملايين الذين استوعبهم السد والمصانع متحزبون بتلقائية لعبد الناصر .

وفى هذا الصدد لابد من إشارة إلى أن الأحزاب السياسية فى العالم الآن فى محنة . الأحزاب السياسية العربية . والأحزاب السياسية خارج العالم العربى ... حتى الحزب فى الاتحاد السوفياتى أو الصين .

ثم لنأخذ مثلا الحال فى انكلترا . هناك العمال والمحافظون . حزبان يتحركان على أساس مصالح فقط . لا قضايا كبيرة لهما . حزب راض بما فعلته الحكومة بالنسبة إلى السوق الأوروبية وآخر يقول إنه كان يجب أن يعمل أكثر أو أقل أو نقيض ما عمل . وأنا هنا أورد مثلا لا أكثر . لكن الحزبين بالنسبة إلى سلطة الدولة وإلى القضايا الكبيرة متفاهمان ومتفقان ضمنا . إذاً ما هى أهميتهما ؟

إن التنظيم السياسى مسألة ذات أهمية حيوية ، لكن وسائل العصر جاءت بشئ جديد لم ندرس آثاره بعد ما فيه الكفاية وربما لوفعلنا لاكتشفنا جزءاً من أثر ذلك على محاولة جمال عبد الناصر .

فؤاد مطر : استكمالا للموضوع هل يمكن الوقوف على حقيقة رغبة عبد الناصر فى قيام التنظيم الطليعى ، ثم ما هو قصده من التسمية ؟

محمد حسنين هيكل :

عندما فكر عبد الناصر بالتنظيم الطليعى كان يدرك أنه لا تزال أمام الثورة فى مصر والعالم العربى تحديات وأن التنظيم هو ضمان استمرار الثورة .

ثم إن التسمية ليست عادية . إن الاتحاد الاشتراكى قائم على تحالف بين قوى الشعب العاملة من عمال وفلاحين ورأسمالية وطنية ومثقفين وجنود . وكل فريق من هذا التحالف يشكل طبقة مصالح . والمطلوب إذاً تفاعل بين هذه الطبقات ذات المصالح المختلفة وإن لم تكن متناقضة إلى درجة عدائية . وكان يرى أن الذى يستطيع تحقيق هذا التفاعل هو تنظيم فى القلب يقود هذه الجبهة العريضة التى تكاد تشكل جبهة وطنية . وكان يرى أنه يجب أن يشترط فى أعضاء التنظيم الطليعى

ألا يملكوا بحيث أن الواحد منهم بذلك يبقى قادراً باستمرار على التحرك والعمل من أجل إزالة الفوارق بين الطبقات . وللأسف طبق ذلك فى البداية ثم حدثت تجاوزات .

فؤاد مطر : من تتبع التاريخ المصرى الحديث تتبادر إلى الذهن شخصيتان عظيمتان فى هـــذا التاريخ بينهما أوجه شبه كثيرة على اختلاف الدوافع التى حركت كلا منهما ، وهما : محمد على وجمال عبد الناصر . كلاهما حاولا أن يجعلا مصر مستقلة ودولة عصرية فى المنطقة تقوم بدور أساسى ضد القوى الاستعمارية . وسجل كل منهما نجاحا سياسيا واقتصاديا وعسكريا فى البداية ، وجعل من مصر بالفعل مركز قوة فى المنطقة ، وتحديا القوى الاستعمارية ولكنهما لم يستطيعا الاستمرار فى خطتهما وتألبت عليهما القوى الاستعمارية وضربتهما . محمد على بمعاهدة عام ١٨٤٠ التى فرضت عليه ، وعبد الناصر بهزيمة ١٩٦٧ التى كانت الولايات المتحدة وراءها .

هل ترى أن عبد الناصر امتداد لمحمد على الذى ألغى عبد الناصر أسرته ؟

محمد حسنين هيكل :

قبل كل شئ يجب أن نفرق بين الوطن وقيمته ، ومن تجئ به الظروف التاريخية حاكماً لهذا الوطن . والذين جاءت بهم الظروف التاريخية كثيرون بعضهم من أبناء الوطن وبعضهم الآخر من خارج الوطن وإن كانت الأكثرية ليست من أبناء الوطن . وهنالك على سبيل المثال أكثر من وجه لمصر . هنالك وجه مصر عمرو بن العاص ووجه مصر كافور الأخشيدى ووجه مصر صلاح الدين ووجه مصر بعض المماليك مثل إبراهيم بك أو مراد بك ووجه مصر محمد على . وكانت مصر دائما هى التى تعطى القوة لأى حاكم .

وفى رأيى أن وجه الشبه بين جمال عبد الناصر ومحمد على أن مصر كانت المسرح الذى ظهر عليه كل منهما . لكن الفارق بينهما كبير ، على رغم أننى من الذين يرون فى محمد على شخصية عظيمة .

إن محمد على لم يولد فى مصر . إنه من خارج مصر . لا يتكلم لغة شعب مصر ولا يشعر بمشاعر شعب مصر . إذاً فإن مصر مهمة بالنسبة إلى عظمته هو . يعنى هى أداة لتحقيق العظمة . وعندما فكر محمد على بتأسيس جيش قوى يهدد به الإمبراطورية العثمانية ويؤمن له نقل الخلافة لم يكن يفكر بشعب مصر إنما كان يفكر بشخصه وطموحاته وأسرته . ومحمد على أنشأ الدولة الحديثة فى مصر لخدمة أغراض معينة . يعنى أن مصر كانت الوسيلة وليست الهدف أو القضية . والآثار الفكرية والسياسية التى نجمت فى مصر عن بناء الدولة الحديثة نشأت على رغم منه وليس بإرادته .

لقد أرسل محمد على إلى أوروبا بعثات كثيرة . البعض للتخصص فى البحرية . والبعض للتخصص فى المصانع وبناء القناطر ، إلخ .. ولم يكن محمد على يتحدث عن بعث حضارى جديد لشعب مصر . حتى رفاعة الطهطاوى الذى لعب دورا أساسيا فى حركة التنوير أوفده محمد على إلى أوروبا لكى يصلى إماما فى أعضاء بعثة . لكن الطهطاوى عاد ليقوم بثورة فكرية وحضارية فى مصر . وهذا الأثر نجم عن عصر محمد على من دون أن يقصد ذلك محمد على نفسه . ولو كان محمد على يتصور أن الطهطاوى الذى أوفده إلى أوروبا ليكون إماماً ومؤذناً لأفراد البعثة سيعود إلى مصر مؤذنا لبعث جديد ، لما كان أوفده ، بدليل أنه بعدما عاد لقى المصاعب . وهنالك أيضا قضية الفلاح والإنتاج . إن محمد على كان حريصاً جداً على زيادة إنتاج الأرض . هذا صحيح . لكن حرصه لم يكن من أجل الفلاح المصرى إنما من أجل أن ينفق على الحملات .

لقد عاش محمد على ومات وهو لا يتكلم العربية . كيف يمكن أن يشعر هذا الحاكم بمشاكل الشعب الذى يحكمه ومعاناته إذا كان لا يتكلم لغة هذا الشعب ؟

إن مصر كانت لمجد محمد على ولم يكن هو لمجد مصر ، فى حين أن عبد الناصر كان العكس .

إن عبد الناصر لم يكن وافداً على مصر بل إنه أحد أبنائها . ولد على أرض مصر وعاش فوقها . وعانى . مصر كانت فيه . وهو كان فى مصر . لم يكن بينه وبين مصر انفصال إنما كانت هنالك وحدة كاملة بينهما . كانت تهمه قضية

الإنسان المصرى بالقدر نفسه الذى تهمه قضية الوطن . عبد الناصر لم يدخل فى حملات دفاعا عن مطامع إمبراطورية إنما دفاعاً عن حق الإنسان المصرى .

ولأن محمد على من خارج مصر فإنه لم يقف مع الوطن . وعندما ضرب محمد على كانت الهزيمة له وانتهى مع الهزيمة . أما جمال عبد الناصر فإنه بعد هزيمة ١٩٦٧ لم ينته . عندما هزم محمد على لم يقف معه أحد ، ولكن عندما هزم عبد الناصر وقفت الجماهير إلى جانبه . ولابد أن هنالك مئات من الذين خرجوا فى ٩ و ١٠ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ يؤكدون ثقتهم بعبد الناصر ، كانوا يوم ٦ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ على جسر العبور يواصلون الطريق نفسه الذى صنعته الإرادة الشعبية المصرية .

لقد أصيب جزء من عبد الناصر فى يونيو (حزيران) ١٩٦٧ فأسرعت الجماهير تشارك فى حمل الجزء المصاب لأن عبد الناصر هو ابن مصر ولها . أما محمد على فإنه ضرب وصفى عام ١٨٤٠ من دون أن تقف الجماهير وراءه لأنه ليس ابن مصر وليس لها .

إذاً فإن الفارق كبير بين الاثنين . لكن أحداً لا ينكر أن محمد على ترك آثاراً على صفحة التطوير فى مصر .

فؤاد مطر : السابعة والدقيقة ٥٥ مساء الثلاثاء ٢٦ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٥٤ حاول عضو من جماعة الأخوان المسلمين يدعى محمود عبد اللطيف اغتيال جمال عبد الناصر وهو يخطب فى ميدان المنشية فى الإسكندرية ، وذلك بأن أطلق عليه ٨ رصاصات. ولم يصب عبد الناصر إنما أصيب بعض المحيطين به .

ظاهرياً تبدو المحاولة كأنها أول معارضة عنيفة ضد عبد الناصر وصادرة عن اليمين المصرى . فهل هذا ما دفعه إلى اتجاهات يسارية فى ما بعد ؟

وفى حينه سرت إشاعات تفيد أن المحاولة نوع من الجرائم — المصيدة التى تدبر لتصبح ذريعة لضرب الخصوم خصوصاً أن الأخوان المسلمين كانوا أقوى تنظيم . إذا لم يكن ذلك صحيحاً فما

هى القصة الحقيقية لتلك المحاولة ، وكيف واجه عبد الناصر سياسياً ونفسياً الأزمة ؟

محمد حسنين هيكل :

لم يكن الإخوان المسلمون هم اليمين إنما كانوا جزءا من اليمين أو ظاهرة يمينية سببها أنهم يستغلون الدين . وحركة الإخوان المسلمين كانت مضروبة قبل الثورة . وكان المرشد العام للإخوان حسن البنا قتل بتدبير من رئيس القلم السياسى . ولذا فإن الثورة نظرت إلى الإخوان على أنهم كانوا ضد حكم القصر ودفعوا الثمن غالياً نتيجة لموقفهم هذا .

وفى البداية كانت حركة الإخوان تبدو كأنها الطفل المدلل للثورة الجديدة ، لكن الإخوان بدأوا محاولة لتوسيع قاعدتهم بهدف احتواء الثورة أو فرض وصاية عليها . ثم انكشفت نيات الإخوان بعدما وقعت المعاهدة مع الإنكليز . فنى حين استقبلت الجماهير هذه الخطوة على أساس أنها خطوة متقدمة ضمن استراتيجية معينة ، اتخذ الإخوان المسلمون موقفاً معارضاً . وتصدت الثورة للإخوان . وتولى أنور السادات مهمة التصدى عبر مقالات كان يكتبها فى صحيفة « الجمهورية » بانتظام ويكشف فيها المحاولات التى يقوم بها الإخوان ضد الثورة .

ثم لجأ الإخوان إلى ممارسة أعمال العنف التى كانوا يمارسونها قبل الثورة وكلفوا أحد أعضاء التنظيم السرى محمود عبد اللطيف اغتيال جمال عبد الناصر . ولم تنجح المحاولة وتم القبض على محمود عبد اللطيف . ولم تكن المسألة مسألة مصيدة ، فقد جرت محاكمات وكشفت هذه المحاكمات عن أمور كثيرة .

وليس من المنطق بشىء الافتراض أن عبد الناصر اتجه يساراً بسبب محاولة اغتيال تعرض لها من اليمين ، علما أن الإخوان المسلمين ليسوا اليمين إنما هم ظاهرة فى معسكر اليمين . هذا النوع من التبسيط للتاريخ عندما يقال أن عبد الناصر اتجه يساراً لأن واحدا من اليمين حاول قتله . التاريخ لا يصنع بهذه الاختيارات السطحية .

إن محاولة الاغتيال لم تؤثر على الخط السياسى لعبد الناصر وهو بعد هذه المحاولة واصل اتصالاته بالأميركان .

لقد اتجه عبد الناصر إلى اليسار بعد حرب السويس .

فؤاد مطر : ما هى الظروف والدوافع التى جعلت عبد الناصر بعد حرب السويس يتجه يساراً ؟

محمد حسنين هيكل :

كل حركة ثورية تمر بمرحلتين . مرحلة التمرد بمعنى رفض الأمر الواقع من دون أن يكون هنالك بديل . ثم مرحلة الثورة بمعنى رفض الأمر الواقع مع وجود البديل لإحلاله محل الأمر الواقع المرفوض .

وكانت ثورة ٢٣ يوليو فى البداية نوعا من أنواع التمرد . جماعة ترفض الأمر الواقع ولدى أفرادها تصور متمثل فى ستة مبادئ . لكن هذه المبادئ لا تشكل منهجا عقائديا ، إنما هى نوع من الآمال .

وفى العمل السياسى ليس المهم تحديد الأهداف إنما تحديد أسلوب بلوغ الأهداف . الأهداف لا خلاف عليها ، خصوصا إذا كانت من نوع الآمال . وعلى سبيل المثال إن أحداً لن يقف فى وجه حركة تقول أنها تريد أن تسعد الناس وتحقق أمانيهم . لكن المهم هو تحديد الوسيلة التى تجعل مثل هذا الهدف أو الأمنية ممكن التحقيق .

إن ثورة ٢٣ يوليو بدأت كحالة تمرد على الأمر الواقع . وليس هناك وضوح عقائدى . ليس هنالك عقيدة أو منهاج لتقطع المسافة بين ما ترفض وما تريد . وفى العالم الثالث أن الذى ينقص الثوار كان دائماً معرفة الواقع .

ولقد قامت ثورة ٢٣ يوليو من دون أن يكون هنالك وضوح كاف بالنسبة إلى الوضع الطبقى فى مصر . والثورة فى معناها الحقيقى هى نقل الثروة والسلطة إلى أوسع الجماهير . ولكى يتم تنفيذ ذلك يجب أن يكون الواقع واضحاً . ولم يكن هذا الواقع واضحاً لعبد الناصر . ولذا يمكن القول أن عبد الناصر كان حتى حرب السويس ثورياً يسارياً بالإحساس المبهم . يرفض الأشكال الظاهرة من الاستعمار . يرفض القهر . يرفض الإقطاع . يريد تطبيق الإصلاح الزراعى . يتمنى إسعاد المواطن المصرى .

وكل هذا كان فى نطاق حالة الرفض . وتحويل المجتمع يتطلب رؤية واضحة للمجتمع الذى يريد إحداث التحولات فيه . وبعد حرب السويس أمكن عبد الناصر أن يعرف الواقع ويلم بالتركيبة الغريبة للمجتمع المصرى . عرف تماماً من يملك مصر . وهذا نتج عن التأميم . لقد أمم عبد الناصر قناة السويس ثم بعد شهرين أخضع

المصالح الفرنسية والإنكليزية والبلجيكية لسيطرة الثورة . وبهذه السيطرة تمكن من أن يعرف وضع المصارف فى الداخل . عرف بالأرقام والأسماء ما الذى فى داخل بنك باركليس ، والبنك العثمانى ، والبنك البلجيكى ، والبنك الفرنسى . وعرف واقع التجارة الخارجية . وعلى حد تعبير وزير المـــال آنذاك عبد الجليل العمرى وجد عبد الناصر أن مصر أشبه بالبقرة ترعى على الأرض المصرية وتحلب فى الخارج عبر خراطيم تسحب منها كل الخير إلى الخـــارج .

وهذا كان صحيحاً . فالنظام المصرفى كله كان مملوكاً من أجانب . ونظام الإقراض على الأرض الزراعية كان مملوكاً من مصارف فرنسية . قناة السويس ذلك العملاق المسيطر على الحياة الاقتصادية كانت لمصر اسما .

إن التأميم هو الذى جعل عبد الناصر يعرف الواقع المصرى بكل الأرقام والأسماء وجعله يعرف أن الواقع كان مريراً . اكتشف مثلا أن بنك مصر تسيطر عليه بضع عائلات مصرية ، وأن شركة « براد فورد » البريطانية تملك ٣٧,٥ فى المئة من أسهم شركة كفر الدوار — البيضا . اكتشف عبد الناصر بعد التأميم أن الشكل وطنى أما المضمون فهو فى الواقع نوع من أنواع الاستغلال الأجنبى المنظم .

وبعد حرب السويس بدأت سنوات التحول الحقيقى ، إلى أن جاءت القوانين الاشتراكية عام ١٩٦١ . وهنا يمكن أن نقول أن عبد الناصر الذى كان ثورياً يسارياً بالإحساس المبهم أصبح فى العام ١٩٦١ ثورياً يسارياً بالنضج . ولولا التأميمات لمـــا كان عبد الناصر وصل إلى تضمين الثورة منهاجاً عقائدياً . وهذا ما كانت تحتاج إليه الثورة بل وما كانت تفتقده عندما قامت .

فؤاد مطر : ولــكن حتى حـــرب السويس ، ألم يكن جمال عبد الناصر ملماً باليسار من خلال القراءة . فى كلام آخر ألم يكن حتى حرب السويس تثقف يسارياً ؟

محمد حسنين هيكل :

لا أعتقد أنه تثقف يسارياً بما فيه الكفاية . والكلام الآن عن اليسار ليس كالكلام عنه من ربع قرن . وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان جمال عبد الناصر

يرى فى الاتحاد السوفياتى مثلا الجانب غير اليسارى . كان يرى الاتحاد السوفياتى من خلال ستالين . وكان معجباً جداً ببطولة ستالين وبأسلوب المقاومة الذى اعتمده الروس خلال الحرب الوطنية . وفى الوقت نفسه كان يتابع وسائل القهر التى تحدث ومتحفظاً على أساليب التنفيذ .

وفى تلك الفترة لم تكن التجربة السوفياتية مشعة . ولم يبدأ الإشعاع الإنسانى فيها إلا بعد المؤتمر العشرين للحزب ، أى بعد العام ١٩٥٦ .

لكن عبد الناصر حاول قبل أن تقوم الثورة استكشاف الشيوعيين المصريين وماذا يفكرون وما هى نظرتهم . وقد اصطدم معهم فى قضية الدين وقضية الوطنية .

فؤاد مطر : فى ١٥ فبراير (شباط) ١٩٥٥ بدأ فى القاهرة أول لقاء بين الشخصيتين اللتين ساهمتا فى ما سمى بعد ذلك عدم الإنحياز وهما : عبد الناصر ونهرو .

كيف كان تأثير كل من الرجلين على الآخر . وهل يمكن اعتبار هذا الاجتماع بينهما النواة الأولى لظهور ما أصبح يعرف للمرة الأولى باسم العالم الثالث أو كتلة عدم الانحياز . وعلى أى أساس تم اكتشاف الأرضية المشتركة بين عبد الناصر ونهرو ؟

مسألة أخرى : فى مؤتمر باندونغ (٢٤ أبريل – نيسان – ١٩٥٥) تخطى عبد الناصر الحدود المحلية وتحول من شخصية مصرية إلى شخصية عالمية . ماذا كان دور عبد الناصر داخل المؤتمر ، وماذا استفاد من المؤتمر ؟

وما هى ذكرياتك وانطباعاتك وقد شهدت – كونك شاركت فى المؤتمر – ميلاد الشخصية الدولية لعبد الناصر ؟

محمد حسنين هيكل :

قبل أن يزور نهرو مصر كان جمال عبد الناصر سمع عنه كثيراً وكان تواقاً إلى الاجتماع به . ولقد بدأت الزيارة كالآتى : كان نهرو فى طريق عودته من مؤتمر لدول الكومنولث . وكانت خطط سيره تقضى بأن يتوقف فى القاهرة

على أساس أنها محطة ، لكنه بعدما وصل تم الاتفاق على أن يزور مصر ليوم واحد . وقرر عبد الناصر أن يخصص اليوم كله لنهرو .

ويبدو أنه كانت هنالك رغبات مشتركة فى هذا اللقاء . فالهند كانت قلقة من مسألة حلف الشرق الأوسط لأن باكستان معتبرة جزءاً من الحلف . وعبد الناصر من جانبه يقود معركة ضد الحلف . بالإضافة إلى ذلك يريد عبد الناصر أن يسمع من نهرو حججه ومنطقه فى مسألة المقاومة السلبية ، ووسائل التخطيط الذى ينفذ فى الهند .

وقال عبد الناصر لنهرو إنه يريد أن يسمع الكثير منه . وبادله نهرو بعبارة مماثلة . وتم الاتفاق على أن يتم الاجتماع بينهما فى باخرة نيلية .

انطلقت الباخرة التى أعدت لاجتماع الرجلين فى اتجاه القناطر الخيرية . وفى هذا الاجتماع الذى بدأ فى الصباح وانتهى فى الرابعة بعد الظهر كان عبد الناصر بعيداً عن المكالمات الهاتفية والمقابلات والمواعيد . وأمضى الرجلان بضع ساعات إما على سطح الباخرة النيلية ، وإما فى صالون الباخرة ، يتناقشان فى مسائل التخطيط والمقاومة السلبية للإنكليز التى خاضتها الهند ، والحياد والأحلاف .

ولقد لاحظت وأنا معهما أن الاثنين التقيا بسرعة . التقيا بالتناقض وليس بالتوافق وهو أمر مهم جداً . والتناقض كان شاملا . نهرو رجل فكرة وعبد الناصر رجل عمل وحركة . نهرو مثقف متردد فى الأفكار التى يطرحها . وعبد الناصر يطرح من غير تردد أفكاراً يختبرها بالمناقشة . نهرو ينظر إلى العالم كله بحذر وعبد الناصر ينظر بحماسة . نهرو كبير السن وعبد الناصر شاب . وحتى فى المظهر كان هنالك تناقض . نهرو بثيابه البيضاء والوردة الحمراء على صدره وعبد الناصر بالكاكى . متناقضان لكن كلا منهما كان مكملا للآخر . عندما بدأ نهرو الكلام كان عبد الناصر يصغى باهتمام . عندما كان عبد الناصر يتحدث عما سيفعله كان نهرو ينظر إليه بشئ من الاستغراب . نهرو يشدد فى حديثه على أهمية المقاومة السلبية وكيف أن فكرة التغيير بالقوة تفزعه .وعبد الناصر غير مقتنع بهذه النظرية .

وعندما انتقلا إلى مسألة التخطيط تحدث نهرو بطلاقة وأبدع . تكلم نحو ساعتين من دون أن يقاطعه أحد وروى التجربة التى تمارسها الهند فى هذا الحقل بصفة

كونه رئيسا لمجلس التخطيط حيث أن التخطيط كان تابعاً لرئاسة مجلس الوزراء . وكان حديث نهرو طويلا وممتعاً .

في الصباح كان نهرو يتمتع بالحيوية لكنه بعد الغداء على الباخرة إثر انتهاء المناقشات بدا متعبا بعض الشيء على رغم أنه لم يأكل كثيرا شأنه في ذلك شأن عبد الناصر . وكان يريد أن ينام . وانتهت الرحلة الرائعة وقد توطدت بين عبد الناصر ونهرو علاقة طيبة .

وبعدما عاد نهرو إلى بلاده قرر من أجل تمتين العلاقات الطيبة أن يبعث إلى القاهرة سفيراً من الدرجة الأولى . وأرسل بالفعل واحدا من أحسن سفراء الهند وهو سردار بانيكار المعروف دوليـــا من خلال كتاب كلاسيكي له عن الاستعمار الغربي في آسيا .

وفي باندونغ التقى عبد الناصر ونهرو مرة أخرى . وهنالك كان كل منهما يكمل الآخر . وفي مؤتمر باندونغ برز الاثنان بالتناقض ، وبرز معهما شواين لاي الذي ظهر على المسرح الدولي الآسيوي — الأفريقي للمرة الأولى . وكان ظهوره مؤثراً جداً بصمت .

وفي اللجنة السياسية المغلقة كان التناقض واضحاً بين عبد الناصر ونهرو . عبدالناصر يتكلم من موقع رجل العمل والحركة والشباب . ونهرو يتكلم بتجربة المثقف والفنان . نهرو بأناقته ووردته الحمراء يتكلم بأرستقراطية وبإنكليزية ممتازة لمدة ساعة مبصرا الدول الأفريقية والآسيوية وحركات التحرر بالمرحلة المقبلة مبديا قلقه البالغ من الحرب العالمية التي ستتسبب في طحن دول كثيرة . وعبد الناصر تكلم بعده بإنكليزية على طريقته .

وفي باندونغ اقترب الاثنان بتناقضهما وبدأت تنشأ بينهما علاقة من نوع العلاقة بين الأب والابن .

وفي باندونغ جرت بين نهرو وعبد الناصر مناقشة طويلة حول موضوع الحياد . وكان عبد الناصر يرى أن الحياد بصيغته ، أو بمفهومه الحالي ، غير معقول ولابد من تطويره لأن المقاومة السلبية لن تؤدي إلى نتيجة . ومعنى الحياد بمفهومه الحالي (أي الذي كان سائدا آنذاك) الانعزال عن مشاكل العالم وهذا غير ممكن ما دام

العالم يفرض مشاكله وتدخلاته . هكذا كان منطق عبد الناصر ، ومن أجل ذلك طالب بصيغة للحياد يكون فيها من حق الحياديين أن يبدوا آراءهم .

ومن هنا جاءت تسمية « الحياد الإيجابي » لكي تنفى مبدأ السلبية . وفي العام ١٩٥٦ تبلورت الفكرة فى بريونى بين عبد الناصر ونهرو وتيتو . وحدث نوع من التفاهم بين الثلاثة على المفهوم الآتى : عدم الانحياز يعنى أنك غير منحاز إلى أى من الكتلتين الشرقية والغربية . ولكن مادامت قضايا العالم تؤثر فيك فلابد من إبداء رأيك فى كل قضية من دون التزام مسبق بموقف مرتبط بواحدة من الكتلتين . ومسألة التسمية التى أرادها عبد الناصر كانت مسألة تطوير . فى البداية كانت التسمية هى « الحياد » وطورها عبد الناصر إلى « الحياد الإيجابى » ثم إلى « عدم الإنحياز » على أساس أن فى تسمية « عدم الإنحياز » فعالية أقوى .

وحدث ونحن فى بريونى — ولم يكن نهرو قد وصل بعد — أن عبد الناصر كان يتحدث مع تيتو فى تسمية تجمع دول الحياد « كتلة عدم الإنحياز » ، فأجابه الرئيس اليوغسلافى أن نهرو يخاف من فكرة التنظيم وأنه سيحبط الفكرة . وعندما طرحت الفكرة فى المؤتمر عبر عن ضيقه بأن قال لرجال الصحافة ما معناه : هذا ليس مؤتمراً ونحن لسنا كتلة . إننا أصدقاء شخصيون جئنا لنجتمع إلى مائدة أحدنا للغداء .

وقال تيتو لعبد الناصر : هذه هى مشكلة نهرو : إنه يفترض أن التجمع معناه تحولنا إلى كتلة وليس ذلك ضرورياً .

وعاد نهرو فى طائرة عبد الناصر من بريونى . وفيما نحن فى الطائرة بلغنا قرار أمريكا سحب عرض المساهمة فى تمويل السد العالى . وقلق نهرو جداً . وبعدما كان مقرراً تمضية أربعة أيام فى القاهرة قبل أن يتابع سفره إلى نيودلهى اختصر إقامته إلى يومين أمضاهما وهو قلق مما يمكن أن يكون عليه رد فعل عبد الناصر حيال القرار الأميركى .

وغادر نهرو القاهرة من دون أن يعرف كيف سيكون رد فعل عبد الناصر . وعندما أمم عبد الناصر قناة السويس فوجئ نهرو . وظهر الذعر من خلال رسالة بعث بها إلى عبد الناصر . وكانت الرسالة عبارة عن نصفين . فى النصف الأول

قال نهرو ما معناه : لماذا فعلت ذلك ؟ وفى النصف الثانى قال ما معناه : ما الذى يمكن أن تفعله بعد ذلك ؟

ثم بدأ نهرو يتحرك بسرعة من أجل عبد الناصر ، وكان فى تحركه كمن شعر أن ابنه فى خطر وعليه أن يهرع للوقوف بجانبه .

إن الشخصية الدولية لعبد الناصر بدأت بالفعل من باندونغ . وقد برز فى ساحة المؤتمر مع اثنين آخرين هما نهرو وشواين لاى . وفى باندونغ لم يشارك تيتو لأن المؤتمر كان فقط للدول الآسيوية – الأفريقية .

وخاض عبد الناصر فى باندونغ أولى معاركه الشخصية الدولية . كانت إسرائيل تسعى إلى الاشتراك فى المؤتمر مادام للدول الأفريقية والآسيوية . واستطاعت إقناع مجموعة دول كولومبو الخمس . وعرض أونو الطلب الإسرائيلى على نهرو فبعث نهرو برسالة إلى عبد الناصر .

وكانت معركة فى منتهى الخطورة وبداية العزلة الدولية لإسرائيل . بن غوريون قاتل من أجل الاشتراك فى المؤتمر ونجح فى إقناع أونو . وأونو قال لنهرو أن عدم اعتراف الدول العربية بإسرائيل لا يعنى أنه يجب عدم الموافقة على اشتراكها فى المؤتمر لأنها دولة آسيوية وليس هنالك معيار جغرافى للدول التى يحق لها حضور المؤتمر .

وعندما بعث نهرو برسالة إلى عبد الناصر حول ما يقترحه أونو ، كان يعرف سلفاً رد عبد الناصر لكنه قرر أن ينفذ مهمته كضابط اتصال .

وبعد مناقشة مستفيضة للأمر بعث عبد الناصر إلى نهرو يقول : إذا حضرت إسرائيل فإننى لن أحضر .

ورجحت وجهة نظر عبد الناصر . وقد رضخت مجموعة دول كولومبو لوجهة نظره لأنها أدركت أنه إذا كان عبد الناصر لن يحضر فمعنى ذلك أن كل الدول العربية لن تحضر .

لكن أونو لم يفقد الأمل . وعندما وصل عبد الناصر إلى رانغون اقترح عليه أونو كحل وسط أن توجه الدعوة إلى إسرائيل على أن تأتى بعد أن يبدأ المؤتمر أعماله . ورفض عبد الناصر . وهنا تدخل نهرو قائلا له ما معناه : لن توجه الدعوة إلى إسرائيل ولكن يجب أن تحددوا هنا موقفكم من النزاع العربى – الإسرائيلى .

وهذا ما جعل عبد الناصر يعلن أنه يقبل بقرارات الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ .

وانتهى الإشكال لأن عبد الناصر أوضح أنه إذا كانت إسرائيل توافق على قرارات ١٩٤٧ فلا مانع من مشاركتها فى المؤتمر . ولم تحضر إسرائيل . وأعطى عبد الناصر للدول الآسيوية – الأفريقية بديلا أرضاها بعدما كانت مجموعة دول كولومبو بالذات متضايقة جداً .

وابان انعقاد مؤتمر بريونى حاول بن غوريون أيضاً مع الماريشال تيتو إشراك إسرائيل فى المؤتمر . وبعث برسالة إلى تيتو جاء فيها ما معناه : إن عبد الناصر آت إليك . وهو سبق له أن استبعدنا من مؤتمر باندونغ . وما دمتم ستتكلمون فى المؤتمر عن عدم الإنحياز فإننى مستعد للحضور وتمثيل إسرائيل على أنها دولة غير منحازة . ومستعد أيضا أمامك وأمام نهرو للموافقة على أى اقتراح تريدونه لإنهاء الأزمة مع عبد الناصر .

وتقبل تيتو كلام بن غوريون بعض الوقت لأنه لم يكن مدركاً تماما طبيعة الصراع العربى – الإسرائيلى . ثم أخذتيتو بوجهة نظر عبد الناصر القاضية باستبعاد إسرائيل من مؤتمر بريونى كما استبعدت من مؤتمر باندونغ .

وبعد مؤتمر باندونغ أصبح عبدالناصر بالنسبة إلى دول المؤتمر وحركات التحرر الوطنى الرمز لرفض المنطلقات القديمة للمقاومة السلبية ، والأمل فى المقاومة الإيجابية .

فؤاد مطر : ما هوالدور الذى لعبه عبد الناصر فى إطار علاقاته مع كل من تيتو ونهرو فى بناء العالم الثالث وسياسة عدم الانحياز؟ ولماذا نجحت هذه السياسة فى البداية وأصابها الضعف فى النهاية ؟

ثم ما هو الدور الذى لعبه عبد الناصر دوليا فى التمهيد للتعايش السلمى والإنفراج الدولى ، ثم فى ما سمى الوفاق الدولى ؟

محمد حسنين هيكل :

لقد مرت سياسة عدم الانحياز بمراحل ثلاث قبل أن تتبلور . والمراحل الثلاث هى : الحياد . الحياد الإيجابى . عدم الانحياز .

وكان مؤتمر بلغراد عام ١٩٦١ أول انفجار دولى لقوة عدم الانحياز . وخلال

مؤتمر بلغراد كانت الأجواء الدولية تهدد بصدام نووى . ووجد المؤتمر آن عليه تحديد الطريق بشكل سليم وليس الاكتفاء بالخوف من أن تفرض الدول الكبرى حربها على الدول الأخرى . وكان منطق عبد الناصر آنذاك أنه فى الوقت الذى نقلق من احتمال أن تفرض الدول الكبرى حربها علينا من دون ذنب ، علينا أن نقلق من أن تفرض هذه الدول سلامها علينا .

وخلال انعقاد مؤتمر بلغراد تلقى كل من رؤساء الدول المشتركة رسالة من خروشوف . وكان الاتحاد السوفياتى فى تلك الفترة قرر استئناف تجاربه النووية فى الفضاء . وكانت أميركا لاحقة به .

وأمام هذا الموقف المتأزم قرر مؤتمر بلغراد أن يتحرك مخافة أن تؤثر الحرب الباردة بين أميركا والاتحاد السوفياتى على الدول غير المنحازة . وكان هناك قلق حقيقى من أن تؤثر الحرب الباردة على قضيتين : الأولى دفع حركة الثورة الوطنية . والثانية محور التنمية الذى اتضحت معالمه بين مصر ويوغوسلافيا والهند .

ومبعث القلق هو أن دول هذا المحور تبدو كمنطقة عازلة وموصلة فى الوقت نفسه .

ولمجرد أن استأنف الاتحاد السوفياتى التجارب النووية اقترح عبد الناصر على مؤتمر بلغراد إيفاد مبعوثين إلى كل من موسكو وواشنطن للاستطلاع ولعرض موقف دول عدم الإنحياز من الصراع الأميركى – السوفياتى .

ونقل نكروما وموديبو كيتا رسائل من مؤتمر بلغراد صاغها الوفد المصرى .

ومن هذه النقطة يمكن الإفتراض أن مجموعة عدم الإنحياز استطاعت أن تلعب فى مرحلة الحرب الباردة دوراً مهماً جداً ، لعبد الناصر الفضل فيه . لقد استطاعت هذه الدول على الأقل تنبيه أميركا والاتحاد السوفياتى إلى عواقب الصدام . واستطاعت تحصين حركة الثورة الوطنية . وبفضل تحرك مجموعة عدم الإنحياز استقلت أفريقيا كلها ... أفريقيا التى هبت عليها بعد مؤتمرات باندونغ وبريونى وبلغراد رياح التغيير .

بالإضافة إلى ذلك أن لمجموعة عدم الانحياز الفضل فى أنها استطاعت أن تقرب بعض الشئ الاتحاد السوفياتى وأميركا . وفى الرسالة التى بعث بها مؤتمر بلغراد

إلى كل من خروشوف وكينيدى بناء على اقتراح من عبد الناصر ، دعوة للاثنين إلى الاجتماع والتباحث فى قضايا الحرب والسلام .

وعندما اقترح عبد الناصر أن يجتمع القطبان الكبيران لم يكن قصده تحقيق وفاق بينهما على حساب الدول الأخرى . إنما كان هدفه أن يصلا إلى نقاط لقاء تحول دون أن تتحول حربهما الباردة إلى صدام نووى . ولعل عبد الناصر فى قوله : « إن حربهم مدمرة وسلامهم خطير » كان واضحاً تماماً .

الآن هنالك من يفترض أن سياسة عدم الانحياز ضعفت . وهذا فى رأيى يعود إلى بضعة مسببات أبرزها :

— أن عالم عدم الانحياز فقد اثنين من زعمائه هما نهرو وعبد الناصر . بالإضافة إلى أن تيتو أصبح فى سن لا تسمح له بالتحرك .

— أن القيادات الجديدة لا تستطيع استقطاب حركة عالمية ، أو أنه لم يظهر إلى الآن ما إذا كان فى قدرتها تحقيق هذا الاستقطاب .

— أنه كان ينقص عدم الانحياز تحديد موقف لعصر التلاقى . لقد حدد موقفه بالنسبة إلى عصر الحرب الباردة ولم يحدد موقفاً لاحتمال حدوث التلاقى وما بعد التلاقى .

— يبدو أن دول عدم الانحياز فقدت إيمانها بفكرتها ربما لأنها افترضت أن دورها هو التوسط بين القوتين الكبريين . فإذا كانت هاتان القوتان لا تحتاجان إلى وسيط أو سمسار فعندها يصبح دور عدم الانحياز غير ذى وجود . وهذا مفهوم خاطئ .

— إن الحاجة ضرورية إلى حقن التعريف القديم لعدم الانحياز بمفاهيم جديدة . وحتى إذا اتخذت القوتان الكبريان موقفاً موحداً يبقى لعدم الانحياز المجال لاتخاذ موقف يستجيب للظروف المتغيرة . موقف أو مواقف بالنسبة إلى التقدم ومصالح الشعوب . موقف مستقل مستمد من ضمير العالم الثالث والشعوب النامية ، ومن الرغبة فى السلام المجرد من مطامع القوة والسيطرة . موقف بالنسبة إلى الموارد والاحتكارات الدولية . ومثل هذا الموقف يصبح فكرياً وعقائدياً إذا حقن بمفاهيم جديدة تناسب العصر . ولقد حاولت الجزائر أن تفعل شيئا من ذلك فى مؤتمر عدم الانحياز الأخير الذى عقد فيها ، إلا أن الوضع كان يتطلب تعبئة كافية .

والمجال فى أى حال متاح أمام عالم عدم الانحياز ليجدد نفسه ومفاهيمه .

الفصل السادس

الوحدة والانفصال
والبعث واليمن

فؤاد مطر : من الملاحظ أن اهتمامات عبد الناصر الوحدوية العربية بدأت مع السنة الثانية للثورة . هل هذا معناه أنه كان واعياً للبعد العربى فى نضاله وخطته وكيف كان يرى ذلك ؟ وهل رؤيته للوحدة فى ذلك الوقت كانت من خلال الدول أم من خلال الشعب . وهل كان فى تقديره أنه لمواجهة الاحتلال البريطانى يجب أن تقوم ثورة عربية وليست مصرية فقط ؟

محمد حسنين هيكل :

أعتقد أن تجربة فلسطين كانت مهمة ليس لجمال عبد الناصر فقط إنما لمصر كلها . وقضية فلسطين لم تكن واضحة تماما بالنسبة إلينا فى مصر حتى العام ١٩٤٨ . وهنالك أمثلة تؤكد ذلك .

فى العهد الملكى كان هنالك نوع من الانبهار المصرى ، أو من بعض المصريين على الأقل ، باليهود الذين أتوا إلى فلسطين . وأتذكر أننى بعد مؤتمر بلودان عام ١٩٤٦ توجهت إلى القدس وفى فندق الملك داود رأيت مصطفى النحاس والملكة نازلى وأحمد حسنين ومصريين آخرين ، معظمهم من الباشاوات . وعلمت أنهم أتوا للمعالجة والاستشفاء فى مستشفى « هداسا » بعدما تعذر عليهم السفر إلى أوروبا لأن الحرب قطعت طريق السفر عليهم .

مثل آخر : كل اليهود الذين أتوا من أوروبا إلى فلسطين كانوا يمرون فى مصر ويقيمون فى معسكرات . وتألفت لجنة لهجرة اليهود برعاية عدد من باشاوات مصر كما كانت هنالك لجنة تبرعات برئاسة مدام قبطاوى باشا وهى يهودية والوصيفة الأولى للملكة نازلى .

وعندما كنت فى الخامسة عشرة كان فى العباسية حيث أسكن عدد كبير من العائلات اليهودية وكنت أعرف فتى يهوديا اسمه موريس بن زاكر أعطانى مرة منشورات وكتباً وذكر لى أنهم يتدربون فى معسكر قرب الهرم .

وفى برج العرب خصص مكان لمرابطة الفيلق اليهودى .

ووجهت الجامعة العبرية فى القدس مرة الدعوة إلى أحمد لطفى السيد مدير الجامعة المصرية لإلقاء كلمة . ولم يتمكن من الذهاب إلى القدس وسافر بدلا عنه الدكتور طه حسين وألقى الكلمة .

ولقد زرت « راحابوت » مرة مع محمد حسين هيكل باشا الذى كان وقتها رئيسا لمجلس الشيوخ .

وذات يوم شاهدت بن غوريون وايليا ساسون يدخلان القنصلية المصرية فى القطمون ومعهما مذكرة لتسليمها إلى القنصل المصرى . وكانت البيانات والمذكرات التى تصدرها الوكالة اليهودية ترسل منها نسخة إلى مصر .

وحتى حرب فلسطين لم نكن ندرك فى مصر الخطر الإسرائيلى وجاءت الحرب لتشكل نقطة تحول أساسية . وأعتقد أن عبد الناصر قبل ١٩٤٨ كان مأخوذاً بالوطنية المصرية ولم يكتشف أهمية فلسطين إلا بعدما حارب على أرضها . وهناك أيضا اكتشف البعد القومى عندما وجد أن المصرى يقاتل إلى جانب العراقى إلى جانب السورى .

وفى فلسطين شاهد عبد الناصر الخطر وعاد بقناعة قومية .

فؤاد مطر : بعد تأمل تاريخ عبد الناصر يبدو واضحا أن الناصرية نبتت موضوعيا من خلال نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ، وأن قائدها سقط تحت الراية الفلسطينية أيضا فى سبتمبر (أيلول) ١٩٧٠ . ماذا كانت فلسطين تعنى لعبد الناصر وسياسته وتاريخه ومصيره ؟

ويقال أن عبد الناصر هدد أمام قيادات فلسطينية اجتمعت به فى الاسكندرية بعد تزايد حملة التشكيك فيه نتيجة لقبوله بادرة روجرز بأن ينكفئ نحو الداخل ويتخلى عن همومه واهتماماته العروبية والفلسطينية وأن الشعب المصرى سيكون سعيداً بذلك .

هل هذه الواقعة صحيحة ، وهل وصل عبد الناصر مرة إلى درجة الكفر بالعروبة والقضية الفلسطينية ؟

محمد حسنين هيكل :

لم تكن فلسطين فى نظر جمال عبد الناصر البلد الذى له حدود ، إنما كانت القضية بكل ما تعنيه فى العالم العربى . فلسطين عبد الناصر كانت القضية المحورية . ولقد شاءت الأقدار أن تكون فلسطين هى بؤرة الصدام العربى مع الاستعمار والصهيونية . إنها نقطة الصراع . وهكذا نظر إليها وبنى تحركه وسياسته على هذا الأساس .

أما بالنسبة إلى اجتماع الاسكندرية ، فهـذا الاجتماع رتبته أنا وحضرته . وفى تلك الفترة كان عبد الناصر عاتبا جـداً على الحملة الفلسطينية عليه لأن قادة المقاومة غير مدركين حركته السياسية آنذاك . وهم بالفعل أخطأوا فى رد الفعل الذى ظهر منهم .

وأؤكد أن فكرة الانكفاء إلى الداخل أو انفصال مصر عن العروبة لم تخطر فى باله فحسب إنما لم تكن مطروحة فى مصر . ولا يمكن قائد الاتجاه العربى فى مصر أن يقرر موقفه من قضية قومية بسبب حالة عتاب . ولعلنا نتذكر أن عبد الناصر على رغم الانفصال السورى استمر يرفع الراية القومية . وهو فى ذلك كان منسجما مع منطق التاريخ وحتميته . ولو حدث أن حاول عبد الناصر التخفيف من التزام مصر العربى لكانت الجماهير المصرية رفضت ذلك .

فؤاد مطر : هناك مسائل غير واضحة تماما بالنسبة إلى جمال عبد الناصر الوحدوى . ولعل إيضاحها من شأنه أن يفيد تاريخياً . أنه مثلا قبل الوحدة مع سوريا فى حين أعطى السودان حق الانفصال . والوحدة مع السودان أمر طبيعى جغرافياً وإنسانياً فى حين أنها ليست كذلك مع سوريا . ما هو تفسيرك لذلك ؟

محمد حسنين هيكل :

لابد أن نفرق بين الوضع فى سوريا والوضع فى السودان وبين علاقة مصر بسوريا وعلاقتها بالسودان .

بالنسبة إلى السودان كان هنالك من يقول أنه جزء من مصر بما بقى من عصر

محمد على . كانت تلك هى النظرة . بل كان البعض يفترض ويعتقد أن السودان جزء من مصر ما دام كان جزءاً من الممتلكات المصرية فى عصر محمد على وعصر اسماعيل . ثم تطورت النظرة قليلا بحيث أصبحت : السودان تحت التاج المصرى .

هذه النظرة استمرت سائدة إلى حين قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ثم تطورت تطورا جذريا لأن جمال عبد الناصر كان يرى أنه لا يمكن إسقاط إرادة الشعب السودانى من حساب أى عمل وحدوى . فهنالك شعبان وليس هنالك شعب واحد . هنالك الشعب المصرى . وهنالك الشعب السودانى . والمسألة ليست مسألة ممتلكات وليست النظرة القديمة التى كانت سائدة . ووجد عبد الناصر نفسه أمام الاختيار الصعب . الوحدة مع السودان طبيعية إذا اختارها شعب السودان ولم تفرض فرضاً عليه . إذاً لابد من قرار . وكان القرار هو إعطاء السودان حق اختيار الطريق الذى يريده شعبه . إما الوحدة مع مصر وإما الاستقلال . جرى استفتاء على ذلك فاختار السودانيون الاستقلال . واعتبر عبد الناصر أن هذا الاختيار يمكن أن يكون مقدمة للوحدة مستقبلا . وحدة مبنية على إرادة شعبية .

إذاً عبد الناصر لم يعط السودان حق الانفصال ، إنما أعطاه حق اختيار الوضع الذى يريده عبر الاستفتاء الشعبى .

والمسألة مع سوريا مختلفة . لقد كان هنالك دائماً إحساس مستند إلى حتمية تاريخية هو أن أمن مصر موجود فى سوريا وأن أمن سوريا موجود فى مصر . وبالإضافة إلى ذلك هنالك دعوة القومية العربية .

وعندما جاءت قيادات سورية إلى القاهرة لتطلب من جمال عبد الناصر تحقيق الوحدة فإن هذه القيادات كانت مطمئنة إلى أنها معبرة عن إرادة شعبية . وعلى رغم ذلك فإن عبد الناصر وضع أمام تلك القيادات شروطاً لتنفيذ الوحدة من بينها أن يتم استفتاء شعبى على الوحدة .

وكما أن الوحدة مع سوريا ما كانت لتتم لولا الإرادة الشعبية فإن اختيار السودان الاستقلال لم يتم إلا لأن الإرادة الشعبية اختارت ذلك .

إذاً أن إعطاء السودان حق الاستقلال كان بمثابة تسوية لرواسب من القرن التاسع عشر ومما قبله أيضاً . أما الوحدة مع سوريا فإنها كانت بداية لحركة القومية العربية فى الثلث الأخير من القرن العشرين .

وعلى ذلك لا يمكن أن يقال أن عبد الناصر سمح بالانفصال هنا وطلب الوحدة هناك . إن عبد الناصر بالنسبة إلى موضوع السودان لم يعط حقا ، بمقدار ما أقر بالأمر الواقع . وهذا الأمر الواقع هو أن هنالك شعباً سودانياً لا تستطيع أن تفرض عليه الوحدة سواء بمنطق وحدة التاج أو الوحاة الميتافيزيقية (وحدة ما وراء الطبيعة) . وأنا فى فترة ١٩٥٠ — ١٩٥١ كنت من الذين يرون أنه لا فائدة من أن تفرض مصر على السودان أمراً من دون أن يكون للإرادة الشعبية السودانية رأيها . ولقد بدت كتاباتى فى تلك الفترة كما لو أننى منحاز إلى منطق الانفصاليين . وأنا لم أكتب ذلك من موقع المعارض لوحدة وادى النيل ، إنما بمنطق الذى يرى أن الوحدة الحقيقية يجب أن تبنى على أساس الإرادة الشعبية .

ولقد تجاوب عبد الناصر مع إرادة شعب السودان وسلم بالأمر الواقع . إذاً لم يعط هذا الشعب حق الانفصال .

وتجاوب عبد الناصر أيضاً مع إرادة الشعب السورى وقبل بالوحدة . الإرادة الشعبية هى القاسم المشترك فى الحالتين .

فؤاد مطر : ألم يكن عبد الناصر متنبها لعناصر سورية من داخل النظام كانت تعمل لضرب الوحدة ؟

محمد حسنين هيكل :

لابد أن عبد الناصر كان متنبهاً لكن الذى أعتقده فى الوقت نفسه أن الصورة عن الوضع فى سوريا لم تكن متكاملة أمامه تماماً . وهذا إنصاف لعبد الناصر وليس تبريرا له .

كان عبد الناصر يعيش فى مصر ويعرف مصر جيداً لأنه ابن من أبنائها . معرفته بأوضاع الدول العربية الأخرى باستثناء السودان كانت قليلة . بالإضافة إلى ذلك كان يعرف الكثير عن فلسطين لأنها قضيته ولأنه حارب على أرضها . ولقد شغلته الأوضاع المصرية الداخلية حتى معركة السويس وما بعدها . ثم بدأ يطل على العالم العربى بعد مقاومة حلف بغداد . لكنها كانت إطلالة متواضعة . إطلالة من يرى أو يسمع أو يقرأ . إذاً لا أعتقد أن الصورة الحقيقية عن الأوضاع الداخلية فى سوريا

كانت واضحة بالنسبة إليه عندما جاءه الضباط السوريون يطلبون تحقيق الوحدة . ومع ذلك قبل الوحدة . وعندما ناقش الأمر مع أولئك الضباط قال لهم أنه يفضل أن يكون شكل الوحدة فى البداية فيدرالياً . لكنه شعر من كلامهم أن التناقضات فى سوريا خطيرة وأن المشاكل كثيرة وأن الوحدة الفيديرالية ليست الحل ، وأن التناقضات والمشاكل يمكن أن تحدث انقسامات فى سوريا تؤدى إلى حرب أهلية . ولقد عرف من الذين أتوا إليه أشياء كثيرة عن الوضع آنذاك فى سوريا . ومن جملة ما قيل له أن بعض الضباط مرابطون فى ثكناتهم . وكل ضابط استنفر قواته . وهذه القوات متنبهة لا تنام .

فى ذلك الوقت كانت سوريا بؤرة الصراع حول الشرق الأوسط والعالم العربى . وهذا سببه أن سوريا ، بالإضافة إلى دورها القومى حيث أنها قلب حركة القومية العربية ، هى بمثابة حاملة الطائرات على الساحل العربى . وفى ذلك الوقت أيضا كان الضباط السوريون فى الفترة ما بين نهاية عهد أديب الشيشكلى وقيام الوحدة من الضباط الوطنيين لكنهم يعيشون فى أجواء من التناقضات عجزوا عن حلها وأوصلتهم إلى مأزق .

ووجد عبد الناصر نفسه أمام حقائق خطيرة : الصراع يتزايد على سوريا . ضباط الجيش السورى من النوع الوطنى والقومى لكن التناقضات تلفهم . الوضع الداخلى فى سوريا يهدد بحرب أهلية . فكرة الوحدة مطروحة فى الساحة السورية وتحتاج إلى تنفيذ .

وكان على عبد الناصر أن يقرر : إما أن يقبل الوحدة ، وإما أن يترك سوريا هدفاً لحلف بغداد والقوى الأخرى التى تتصارع عليها .

حتى عندما جاءه الضباط السوريون فى القاهرة يطلبون تحقيق الوحدة كان ما يزال فى حالة من التردد . ولاحظ أنه عندما حدثهم عن ضرورة التمهيد ، وعن الأخذ بالفيديرالية بدلا من الاندماج ، ردوا عليه بأن الأوضاع القلقة التى تعيشها سوريا تتطلب وحدة اندماجية وليس أى صيغة أخرى من صيغ الوحدة . وهو كان يميل إلى ضرورة التمهيد للوحدة الاندماجية ربما لأنه لم يكن ملماً تماماً بطبيعة الأوضاع القلقة التى كانت تعيشها سوريا فى تلك الفترة .

وبعدما كان عبد الناصر يفضل التمهيد للوحدة وكان هذا رأيه منذ أقر مجلس النواب السورى عام ١٩٥٧ مشروع طلب الوحدة ، وجد نفسه بعد أحاديثه مع القيادات العسكرية التى جاءته من دمشق يقبل الوحدة الاندماجية .

ولقد تلمس فى أحاديثه مع تلك القيادات خطورة الوضع من خلال بضعة أسئلة وجهها إليها . وعلى سبيل المثال سأل الضباط عما إذا كان الرئيس شكرى القوتلى على علم بمجيئهم إلى القاهرة فقالوا له : لا يعرف . وعلى سبيل المثال أيضاً سأل عن عبد الحميد السراج ولماذا لم يأت معهم فقيل له أنه فى دمشق لكى لا يفلت الوضع . وعلى سبيل المثال أيضاً وأيضاً سأل عن الظروف السائدة داخل الجيش فقيل له أن كل ضابط استنفر نفسه وقواته .

كانت الصورة قلقة بالفعل كما روتها القيادات العسكرية السورية التى جاءت تطلب منه تنفيذ الوحدة .

وقبل الوحدة وهو على قناعة بأنه مقدم على مغامرة . قبلها وهو متنبه إلى حد لبعض المصاعب . ويمكن القول أنه رضى بالمغامرة لأسباب ثلاثة :

الأول — أن التجاوب مع طلب سوريا قد يكون فرصة تاريخية لا تعوض لتحقيق الهدف القومى .

الثانى — أن هذا التجاوب قد يكون الحل الأفضل لتجنيب سوريا مخاطر الحرب الأهلية ومغامرات الصراع الدائر عليها .

الثالث — أن هذا التجاوب يتفق وحلم « كسارة البندق » الذى كان شاغلا بال عبد الناصر . فهو مقتنع أنه لا يمكن محاربة اسرائيل من جبهة واحدة . ومقتنع أيضا أن المواجهة سهلة فى شكل أو فى آخر إذا كانت مصر وسوريا تحت قيادة عسكرية واحدة ولهما جيش واحد .

وتنبه عبد الناصر للمصاعب أكثر فأكثر بعد الزيارة الأولى التى قام بها إلى سوريا عقب الاستفتاء الذى نال فيه نسبة ضخمة من دون أن تكون قدماه وطأتا أرض سوريا بعد .

وبدأت تلك الزيارة فى جو من السرية . كان يريد الوصول بشكل مفاجىء إلى دمشق . حتى أن عفيف البزرى الذى كان قائداً للجيش آنذاك عندما قيل له أن

هنالك طائرة آتية من القاهرة وفيها شخصيات مصرية توجه إلى المطار وفى اعتقاده أن القادم فى الطائرة هو عبد الحكيم عامر . لكنه فوجئ بجمال عبد الناصر ينزل منها .

وانتشر نبأ وصول عبد الناصر بشكل مذهل . ومن المطار إلى قصر الضيافة امتلأت الشوارع بالناس . وما أن حل عبد الناصر فى القصر حتى أصبحت ساحات القصر تعج بألوف المواطنين ثم بمئات الألوف . وعبر هؤلاء عن فرحهم بقدوم عبد الناصر إليهم بطرق لا مثيل لها . كانوا يأتون أفواجاً أفواجاً لتحية عبد الناصر . وكان يطل عليهم من شرفة القصر ثم يعود إلى الداخل ... وهكذا .

وفى إحدى المرات التى خرج لتحية الجماهير ، وبعدما ألقى كلمة فيها ، لاحظ أننى واقف قرب باب الشرفة فأشار أن آتى إليه . وعلى الشرفة دار بيننا همساً حوار أذكر أنه بدأه بالقول : ما رأيك ؟

أجبته : لو لم أكن أعرفك تماماً لقلت لك تذكر أنك بشر . لكن هنالك أمرا آخر .

قال : ما هو ؟

أجبت : أن البداية رائعة ولكن خشيتى هى : إلى أين سينتهى ذلك كله ؟

ودخلنا أحد صالونات القصر حيث كان عبد الناصر يستقبل السياسيين السوريين ويتحدث إليهم . وبعد خمسة أيام كان استقبل خلالها معظم السياسيين السوريين ازداد اقتناعا بالمصاعب التى تواجهها الوحـــدة . فقد كان كل سياسى يقابل عبد الناصر يحرص على أن يطعن بالآخرين .

فؤاد مطر : لماذا فشلت العلاقات بين الثورة المصرية وحزب البعث علماً أن هذه العلاقات كانت أحد الدوافع الأساسية لقيام الوحدة ؟

محمد حسنين هيكل :

لو أردنا أن نعدد مآسى التاريخ العربى الحديث لوجدنا أن الخلاف بين الحركة الناصرية وحزب البعث هو أحد أبرز هذه المآسى . ذلك أنه لو حدث أن هاتين

القوتين تعاونتا لكانت الصورة مختلفة فى العالم العربى . لكن الذى حدث أن هاتين القوتين التقدميتين القوميتين اصطدمتا بعنف .

لماذا حدث هذا الصدام ؟

إن جمال عبد الناصر كان معجبا جداً بأفكار البعث . والبعث وجد فى عبد الناصر شخصية البطل الذى يمكن أن يعبر عن هذه الأفكار .

لكن هناك مسألة مهمة . أن الذى أسس حزب البعث هو ميشال عفلق مع مجموعة من الشخصيات القومية . وعلى رغم تحفظاتى على بعض مواقف ميشال عفلق وعلى تردداته ومسايرته للانقلابات فإن الرجل قدم كثيراً للحركة القومية .

هذه ناحية . وهنالك ناحية أخرى نفسية ولكنها أثرت كثيراً فى التركيب . إن ميشال عفلق الذى قاد حركة البعث كان يعلم مقدماً أن حركته لا تستطيع أن توصله إلى أن يكون رأس الدولة السورية لسبب دينى بحت هو أن ميشال عفلق بمحض الصدفة من الأقلية المسيحية فى عالم غالبيته من المسلمين .

أقول هذا من غير انغلاق بالتعصب . ولا بد أن ميشال عفلق الذى لا يستطيع أن يحكم كرجل أول كان هدفه فى استمرار أن يكون القوة الحقيقية من وراء الستار . ومثل هذا الأمر كان مستحيلا بالنسبة إلى عبد الناصر . ميشال عفلق يريد أن يكون القوة التى تحرك من وراء الستار البطل الذى هو فى الواجهة ، وعبد الناصر من المستحيل أن يقبل بمثل هذا الوضع لأنه فى الواقع قوة حقيقية وفعلية مؤثرة وليس مجرد واجهة .

ونتيجة لذلك حدث إشكال . قيادة البعث تريد أن تقود من خلال جمال عبد الناصر ، وعبد الناصر له إرادته المستقلة وفكره المستقل . معجب بأفكار البعث ، لكنه طرف والبعث طرف آخر . ومن هذه النقطة يمكن تعقب كل الخلافات .

ولقد اعتقد البعث — وهذا فى ظنى خطأ — أنه أعطى سوريا لجمال عبد الناصر وبالتالى فإن على عبد الناصر أن يفعل ما يريده البعث . إذا كان البعث يريد معاداة أحد فإن على عبد الناصر أن يجارى فى المعاداة . وإذا كان البعث يرتأى الأخذ بمسألة ما فإن على عبد الناصر أن يوافق .

وباختصار بدا كأن البعث يريد أن يفرض وصاية على عبد الناصر . وبدا عبد الناصر

يرفض مثل هذه الوصاية . يضاف إلى ذلك أن عبد الناصر نفذ بقوة البطل للبعث ما عجز البعث عن أن ينفذه بقوته الذاتية . وهذا أيضاً جزء من الخلاف .

ولقد انعكس الخلاف بين عبد الناصر والبعث بالإضافة إلى التناقضات التي كانت سائدة بين القوى الوطنية فى سوريا ، على نظام الوحدة . وتسبب ذلك فى حدوث انتكاسات متلاحقة .

فؤاد مطر : ما حقيقة دور عبد الحميد السراج فى بناء الوحدة وفى إحداث الانفصال ؟

محمد حسنين هيكل :

بالنسبة إلى هذا الموضوع سأعرض رؤية جمال عبد الناصر . كان عبد الناصر يرى أن سوريا فى الفترة من ١٩٥٥ إلى ١٩٥٨ هى بؤرة الصراع فى العالم العربى . وقد اتضح ذلك بعد حرب السويس . فبعدما استحال ضرب مصر فى السويس بدأت الخطط تدبر لضرب سوريا . وكان العام ١٩٥٧ هو عام ضرب سوريا . وكانت هنالك محاولات لغزوها من الخارج (تركيا والعراق) ومحاولات لغزوها من الداخل (محاولات الانقلاب المتكررة) .

فى تلك الفترة كان فى سوريا عدد من الضباط القوميين على رأسهم عبد الحميد السراج لعبوا دوراً أساسياً فى حماية سوريا من محاولات الغزو وصدوا محاولات الانقضاض عليها من حلف بغداد . قد تختلف مع عبد الحميد السراج (الذى كان يشرف على المكتب الثانى) أو تتفق معه فى الوسائل التى اتبعها ، لكن هذه الوسائل استطاعت أن تحمى سوريا من حلف بغداد فى الفترة التى تلت حرب السويس حتى عشية قيام الوحدة . كان السراج مسؤولا عن الأمن الداخلى فى سوريا . ولذا كان دوره كبيراً جداً .

وكان السراج يحب عبد الناصر جداً ، وكثيرون لاحظوا أنه كان يضع فى مكتبه تمثالا لعبد الناصر فى حين أنه لم يضع صورة لشكرى القوتلى . ومن جانبه كان عبد الناصر معجباً بالسراج ويحبه ويقدر له الدور الذى قام به لحماية سوريا من حلف بغداد .

وعبد الحميد السراج وطنى وقومى عربى . قد تختلف معه فى وسائله ولكن لا يمكن أن تشك فى نياته . وكان من المتحمسين للوحدة . وكان يرى أن الوحدة مع مصر هى الحل للأوضاع التى كانت تهدد فى استمرار بالانفجار فى سوريا . وكان يشعر شأنه فى ذلك شأن عناصر قومية كثيرة فى سوريا أن الوحيد الذى كان يمكن أن ينقذ سوريا مما هى عليه آنذاك هو عبد الناصر الذى كانوا ينظرون إليه على أنه بطل القومية العربية .

إذاً كان الدور الذى لعبه عبد الحميد السراج فى تحقيق الوحدة كبيرا .

ونأتى إلى الشق الآخر من الموضوع . شخصياً لا أستطيع القول أن عبد الحميد السراج لعب بالمعنى الإيجابى دوراً فى تحقيق الانفصال ، إنما قد يكون لعب هذا الدور بالمعنى السلبى . كيف ؟

من سوء الحظ أننا قفزنا إلى الوحدة ، والاعتبار الوطنى ما يزال غالباً على الاعتبار القومى . وكما أنه كان هنالك فى مصر من يبكى لأن اسم مصر قد اختفى وأبدل بـ « الجمهورية العربية المتحدة » ولأن علم مصر أبدل بعلم جديد . . وهكذا ، فإنه كان فى سوريا أيضاً من فعل الشئ نفسه . وفى سوريا كان الوضع أكثر دراماتيكية حيال هذه الناحية لأنه بالإضافة إلى العنصر الوطنى فيها كان هنالك أيضاً العنصر الإقليمى . وهذا العنصر عزز مشاعر العصبية المحلية ولعب دوراً أساسياً فى الانفصال . والمقصود بالعنصر الإقليمى هو أنهم فى سوريا يتمسكون بالانتماءات إلى المناطق : جماعة دمشق ، جماعة حلب ، جماعة الجزيرة ، جماعة حماه ، جماعة حوران .... وهكذا . وفوق ذلك أن الحرب ضد دولة الوحدة لم تتوقف سواء من جانب قوى عربية أو قوى أجنبية .... أو إسرائيل .

ونعود إلى موضوع السراج . فى الفترة الأخيرة من حكم الوحدة تزايدت الاشكالات . البعث خرج . ومجموعات أخرى من الضباط الوطنيين خرجت . وتبعاً لتزايد هذه الاشكالات أصبح الخطر أكبر على سوريا . وأصبح عبد الناصر يدرك أنه من الضرورى من أجل حماية سوريا أن يتعزز دور عبد الحميد السراج على رغم تزايد الاشكالات الناتجة عن تعزيز هذا الدور .

ثم بدأت الحساسيات بين عبد الحكيم عامر وعبد الحميد السراج تتسع . وانتهى

الأمر إلى أن عبد الحكيم عامر أخذ مسؤوليات عبد الحميد السراج ، أو أن مسؤوليات السراج تقلصت .

هنا نتساءل : هل أن الدور السلبي للسراج فى تحقيق الانفصال يتمثل فى انشغاله بالحساسيات التى تزايدت ، وبالصراع الذى دار بينه وبين عبد الحكيم عامر ؟

قد يكون انشغال عبد الحميد السراج بهذه الحساسيات وبذلك الصراع بينه وبين عبد الحكيم عامر ، بالإضافة إلى العوامل الأخرى ... قد تكون هذه الأمور هى التى جعلت السراج لا يراقب بدقة العناصر التى كانت فى ذلك الوقت تتآمر لتحقيق الانفصال ، أو أنه ربما راقبها ولكنه أخطأ فى تقدير حجمها وتأثيرها ، وفى النتيجة حدث الانفصال بعد أقل من أسبوع من استقالة السراج .

وعلى رغم كل ذلك كان عبد الناصر حريصاً جداً بعدما حدث الانفصال على أن يعرف ما إذا كان للسراج دور فيه . وعندما عرف الحقيقة ارتاح لأنه لم يكن يريد أن يصاب بخيبة أمل فى إنسان عزيز عليه جداً هو عبد الحميد السراج .

فؤاد مطر : هل تعتبر أن السبب الحقيقى للانفصال هو إجراءات يولو (تموز) ١٩٦٠ الاشتراكية علما أنها لم تطبق على سوريا بمثل الحجم والاتساع اللذين طبقت بهما فى مصر ؟

محمد حسنين هيكل :

قد تكون هذه الإجراءات لعبت دوراً إلا أنها ليست السبب الوحيد . وقبل هذه الإجراءات كانت هنالك مشاكل حقيقية تنبع من مشكلة أساسية هى أننا لم نمهد بالمقدار الكافى أمام الجماهير لقبول الوحدة .

كانت الوحدة كالحلم . وهنالك فارق كبير بين الحلم وتجسيد الحلم . الحلم موجود فى الشعارات . وحول الحلم يمكن جمع الناس . ولكن عند تجسيد الحلم يحصل اصطدام ببعض الناس . وكان الخطأ أننا لم نستعد ولم نمهد . وانتقلنا من مرحلة الحلم إلى مرحلة تجسيد الحلم من دون أن تكون هنالك ضمانات . دخلنا فى أجواء الحلم ولم تتنبه لمشاكل تجسيد الحلم . وتجسيد الحلم أحدث مشاكل فى الحكم . وأحياناً كانت المشاكل من النوع الذى يتميز بالسذاجة .

ولقد حدث أن الجماهير السورية ، أو بعضها ، تصورت فى مرحلة تجسيد الحلم أن المصريين سينتقلون إلى سوريا ، علماً أن الذى حدث كان العكس . وأذكر أن عبد الحميد السراج أعــد إحصائية وعرضها فى اجتماع مغلق للرد على الذين يفترضون أن هجرة مصرية إلى سوريا حدثت لمجرد أن قامت الوحدة . وفى هذه الاحصائية تبين أن السوريين الذين فتحوا محلات تجارية فى القاهرة كانوا بالألوف فى مقابل عدد من « القرداتية » المصريين (أى الذين يتولون ترقيص القردة) توجهوا للعمل فى سوريا .

لم تكن هنالك سياسة منسقة للعمل . مصر لا تدرك طبيعة المجتمع السورى . وسوريا لا تدرك طبيعة المجتمع المصرى . مجتمع سوريا مجتمع مطر . ومجتمع مصر مجتمع نهر . أراضى سوريا (باستثناء الجزيرة التى يرويها الفرات) تعتمد فى الرى على المطر . أما أراضى مصر فتعتمد على نهر النيل . مجتمع المطر له تقاليده . ومجتمع النهر له تقاليده . الوحدة الوطنية فى مصر قوية فى حين أن هذه الوحدة تتسم بالعصبية فى سوريا .

بالإضافة إلى ذلك كله كان هنالك تباين فى مفهوم الحكم . وكان هنالك صراع مرير بين الشخصيات السورية . وهذه الأمور كلها كانت مقدمات إلى أن جاءت إجراءات يوليو الاشتراكية وتحركت البورجوازية السورية . واستتبع ذلك أن الحملة فى الخارج على تلك الإجراءات الاشتراكية تصاعدت وتحولت إلى نوع من الحرب .

فؤاد مطر : كان رد فعل عبد الناصر يوم الانفصال عنيفاً وغير قابل للمساومة وهــدد باتخاذ الإجراءات العسكرية لضرب الانفصاليين وأرسل بالفعل بعض قوات الصاعقة إلى اللاذقية . ثم عاد فى اليوم التالى واتخذ موقفاً وصفه هو بقوله « الوحدة إرادة شعبية ولن أحولهـا من جانبى إلى عملية عسكرية » ورضى بانفصال سوريا . ما هى الأسباب التى جعلته يتخذ الموقف الأول ، ثم ماهى الأسباب التى حدته على العدول عنه ؟

محمد حسنين هيكل :

بدأ جمال عبد الناصر منذ صباح يوم الانفصال يفكر بمنطق إنقاذ الوحدة . وكانت المعلومات التي توافرت لديه في الصباح أن الوحدات التي في اللاذقية معادية للانفصال . وهي معلومات صحيحة . كذلك كانت المعلومات تشير إلى أن هنالك معارك دائرة في الشوارع .

وعلى رغم أنه لم تكن عنده فكرة واضحة تماما عن حجم المقاومة الشعبية للانفصال إلا أن عبد الناصر رأى من واجبه كرئيس لدولة الوحدة أن يتصرف بما ينقذ الوحدة . ومن هنا كان قراره بالتدخل .

والذي حدث أن قوات الصاعقة أرسلت في اليوم نفسه (أي يوم ٢٨ سبتمبر) . وفي اليوم التالي كانت هنالك قوات من البحرية منتظرة الأوامر للتوجه إلى اللاذقية .

ولقد أرسل عبد الناصر قوات من الصاعقة إلى اللاذقية لأن الموقف كان يشير إلى أن هنالك مقاومة فيها لحركة الانفصال . ورأى أن تتوجه هذه القوات وتضع نفسها بتصرف قيادة المقاومة ولا تقدم على أعمال من دون أوامر الضباط السوريين الذين كانوا يقودون حركة مقاومة الانفصال . وهذه القوات زودت بأوامر واضحة بألا تطلق النار على أحد . وكانت مهمتها محصورة في مساندة الذين يقاومون الانفصال فقط . والذي جعل عبد الناصر يرسل قوات إلى اللاذقية هو المعلومات التي أفادت أن القائمين بحركة الانفصال هم الضباط الشوام ، وأنه ما دام في اللاذقية رفض من قياداتها العسكرية للانفصال (ظهر من خلال البيانات التي أذاعتها القيادة الشمالية) فإن من الواجب مساندة حركة الرفض هذه . ذلك ما حدث . ومنذ البداية لم يخطر في بال عبد الناصر موضوع الضرب وإطلاق النار .

فؤاد مطر : يقول عبد الناصر أن الوحـــدة إرادة شعبية . هل أن عدم ضرب حركة الانفصال كان تسليما منه بأن هذه الحركة هي أيضا إرادة شعبية ؟

محمد حسنين هيكل :

أبداً . لم يسلم عبد الناصر بأن الانفصال إرادة شعبية . لكن الذي حدث أنه بعد

ساعات من بداية حركة الانفصال (بعد الظهر) جرت اتصالات بين دمشق واللاذقية . وبدا أن معقل المقاومة فى اللاذقية وقع . وهذا ما حمل عبد الناصر على إصدار أوامر إلى القوات التى أرسلت إلى اللاذقية (وكان ذلك فى الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين بعد الظهر) بأن تستسلم إلى أى قوات نظامية تصادفها .

وهو طلب ذلك لأنه فى الأصل لم يرسل هذه القوات لتضرب القوات السورية . أرسلها كنجدة إلى القوات التى رفضت الانفصال . ويبدو أنه فى الوقت الذى استغرقه وصول قوات الصاعقة إلى اللاذقية كان الموقف تغير ، أو بدأ يميل نحو التغيير لأن القوات التى وقفت ضد حركة الانفصال غيرت موقفها ، أو أن وضعاً صعباً فرض عليها .

وإطلاق الرصاص لم يكن ليفيد فى شئ . وكان عبد الناصر مقتنعا بذلك ويرى أن فرض وحدة ، أو إنقاذ وحدة ، بالدم ، سينهى أمر الوحدة إلى الأبد . وعندما أصدر أوامره إلى قائد قوات الصاعقة التى توجهت إلى اللاذقية لتساند حركة المقاومة للانفصال بأن يستسلم ، لم يكن ذلك تسليما منه بأن الانفصال إرادة شعبية ، إنما كان تسليما بأمر واقع . والأمر الواقع هذا لا يمثل بالضرورة إرادة شعبية .

وما دام عبد الناصر رفض منذ البداية منطق إنقاذ الوحدة بالدم وإطلاق النار على السوريين من جانب القوات المصرية ، فإن الاستسلام كان الحل الآخر ، وهو ما أخذ به عبد الناصر من دون أن يعتبر الانفصال إرادة شعبية .

فؤاد مطر : ألا تعتقد أن الأمر كان سيتغير لو أن عبد الناصر ، لمجرد أن بلغته أنباء حركة الانفصال ، ركب طائرة وتوجه إلى دمشق ؟ إن كثيرين افترضوا فى حينه أن لدى عبد الناصر من الشجاعة ومن السرعة فى اتخاذ المبادرة ما يجعله يفعل ذلك . لكنه لم يفعل . الآن هل تعتقد أنه كان على عبد الناصر أن يركب طائرته ويتوجه إلى دمشق وينقذ الوحدة ؟

محمد حسنين هيكل :

لا أستطيع أن أتصور إذا كان ممكنا فى حينه أن يركب عبد الناصر الطائرة ويتوجه فوراً إلى دمشق . ولكن بعدما تكشفت الحقائق كان تصرف عبد الناصر سليما .

وهو لو ركب الطائرة وتوجه إلى دمشق فللتحدث مع الضباط الذين قاموا بالحركة . وربما كانت مناقشتهم ستجدى لو كانت الحركة قامت نتيجة حالة غضب أو احتجاج . لكن الانقلاب الذى حدث كان مدبراً . كان من صنع المخابرات الأميركية وبعض الدول الرجعية وهدفه ضرب الوحدة . والذين قاموا بالانقلاب ، أو بعضهم ، كانوا مأجورين لتنفيذ الدور الذى قاموا به . وبعض هؤلاء اعترف بذلك بعدئذ وأقر بالأموال التى قبضها . وبعض هؤلاء كان من القتلة . صحيح أن كثيرين أيدوا الانفصال وتجاوبوا مع قادته ، وذلك بفعل العاطفة والنظرة الإقليمية أو التضرر فى المصالح أو الانفعال ، لكن عناصر كثيرة فى قيادة الانقلاب كانت مأجورة ... وبالتالى فإن مناقشتها لم تكن لتفيد .

فؤاد مطر : ولكن كيف عرف عبد الناصر هوية هؤلاء وحكم على بعضهم من البداية بأنهم عناصر مأجورة ؟

محمد حسنين هيكل :

كانت أسماء جماعة الإنقلاب معروفة فى التاسعة صباح يوم الإنقلاب . إذاً فتصنيف هؤلاء عملية سهلة . وكان سهلا من خلال عرض الأسماء تقييم اتجاه كل ضابط . وربما كان هنالك نوع من التردد فى الحكم على البعض إلا أن هناك أسماء كان واضحا أن أصحابها من المأجورين .

وحيال ذلك ما الذى يفعله عبد الناصر ؟

لو أن منطق الإنقلابيين كان عاطفياً ووطنياً لأمكن مواجهته . لكن مواجهة مجموعة متآمرين كانت مسألة شائكة : خصوصاً إذا كانوا قد تمكنوا – باستغلال ظروف كثيرة – من السيطرة على الجيش السورى . والمواجهة فى مثل هذه الحال معناها الحرب . وهى حرب يمكن أن تأخذ أبعاداً خطيرة بالنظر إلى أن الاعتبار الوطنى كان فى ذلك الوقت أقوى من الاعتبار القومى .

فؤاد مطر : كيف كانت نفسية عبد الناصر عند قيام الوحدة ثم كيف كانت نفسيته فى فترة تراكم الأخطاء ... ثم عندما تحطمت الوحدة ؟

محمد حسنين هيكل :

قبل أن تقوم الوحدة كان جمال عبد الناصر متردداً حيال الوحدة الإندماجية . وبعد قيام الوحدة كان سعيداً وقلقا فى الوقت نفسه . سعادته مصدرها أن حلماً كبيراً تحقق . وقلقه مصدره الخوف على الحلم . ثم بدأت المشاكل فى سوريا تتزايد . وبدأ يصطدم بهذه المشاكل . وفى إحدى جلسات مجلس الوزراء قال إن تسعة أعشار وقته مأخوذ للمشاكل الداخلية فى سوريا وللصراعات والمناورات الدائرة فى سوريا . أما العشر الباقى فخصص لقضايا دولة الوحدة . وعلى رغم ضيقه من هذا فإنه كان يشعر أنه لابد من المحافظة على الوحدة .

أما يوم الانفصال فكان من أكثر الأيام قساوة على عبد الناصر . وفى ذلك اليوم شعر بأنه مجروح . وبأنه اضطر إلى التسليم بوضع تخلى فيه عن الشعب السورى الذى كانت غالبيته — وهذا أكدته تقارير عدة — ضد الانفصال ، لكن استعادة الوحدة بعملية عسكرية ضد الجيش السورى كانت مسألة أخرى ؟

فؤاد مطر : ما هى فى تقديرك الآثار التى ترسبت من جراء الانفصال على مصر وسوريا والاتجاه القومى ؟

محمد حسنين هيكل :

يمكن أن نعدد هذه الآثار كالآتى :

أولا — خيبة الأمل فى إمكان تحقيق الوحدة وفى أن هذه الوحدة التى قامت نتيجة إرادة شعبية لم يكن فى الإمكان المحافظة عليها .

ثانيا — انكسار الطوق حول إسرائيل .

ثالثا — الخوف على الاشتراكية .

رابعا — توقف مد حركة القومية العربية .

خامسا — اهتزاز قوة الفكرة القومية فى العالم العربى نفسه .

فؤاد مطر : هل كان الانفصال حلقة من سلسلة حلقات بداية المؤامرة على حركة التحرر الوطنى بأبعادها القومية التحررية والاجتماعية نحو الاشتراكية ، والتى وصلت إلى ذروتها فى حرب الأيام الستة فى يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ؟ وإذا كان هذا صحيحا فما هى أسانيدك فى ذلك ؟

محمد حسنين هيكل :

إنني أقطع بأن الانفصال كان بداية التآمر . أما الأسانيد فكثيرة .

فى أى جريمة يجب البحث أولا عن المستفيد من هذه الجريمة . والانفصال جريمة . فمن المستفيد منها ؟

إن الانفصال كان بالتأكيد ضد الشعبين المصرى والسورى ، وضد الأمة العربية . والانفصال كان ضد إرادة الشعب السورى بدليل إنه لم يدم سوى ستة أشهر وتمزق على نفسه وانقلب وجاءت بعده نظم مختلفة . ولقد اعترف ضباط الانقلاب الذين جاءوا بعد ذلك إلى القاهرة بالدور الذى قاموا به والذى يؤكد أن الانفصال كان ضد إرادة الجماهير السورية .

نأتى الآن إلى المستفيد من جريمة الانفصال . وهذه النقطة يمكن تكشفها من خلال المواقف والأحداث الآتية :

– هنالك نوعية الارتباطات والتصرفات للحكم الذى قام بعد الإنفصال فىسوريا منذ اليوم الأول لوقوع الإنفصال حتى مؤتمر شتوره . وهناك الجهات التى كان الحكم يتحرك لمصلحتها .

– هنالك شهادات بعض الضباط الذين شاركوا فى حركة الانفصال من دون أن يكونوا شركاء فى المؤامرة إنما دفعوا إليها .

– هنالك المبالغ الضخمة التى أنفقت لتحقيق الانفصال ومصدر هذه المبالغ . وفى مناقشة جرت بعد ذلك بين عبد الناصر والملك سعود قال عبد الناصر مخاطباً الملك : « أنت دفعت فى مؤامرة الانفصال سبعة ملايين جنيه » . ورد الملك قائلا : « طال عمرك ١٢ مليوناً وليس سبعة ملايين » .

– هنالك النوعيات والتاريخ لبعض ضباط الانفصال . أين هؤلاء الآن ؟ لو حاول أحد أن يتعقب المجموعة التى كونت بعد الانفصال ما سمى « القيادة الثورية العربية للقوات المسلحة » لتكشفت له حقائق كثيرة ولعرف أن الانفصال كان بداية المؤامرة على حركة التحرر الوطنى بأبعادها القومية التحررية والاجتماعية .

فؤاد مطر : كيف تفسر ظاهرة النقد الذاتى التى وردت فى خطاب عبد الناصر للمرة الأولى فى ١٧ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦١ بالنسبة إلى مسألة الوحدة مع سوريا ، ولماذا جاءت متأخرة ؟

محمد حسنين هيكل :

ظاهرة النقد الذاتى لم تحدث بعد الانفصال إنما فى عز أيام الوحدة . لقد وقف جمال عبد الناصر مرات عدة فى شرفة قصر الضيافة فى دمشق وفى ساحات كثيرة فى مصر وانتقد بعض الأوضاع المصرية والسورية . وانتقد تصرفات تجرى فى الدولة التى هو رئيسها . لكن الآذان فى تلك الفترة لم تكن تصغى إلى النقد الذاتى فى حين أنها أصبحت بعد الانفصال تصغى . ومعظم القضايا التى مارس فيها عبد الناصر بعد الانفصال نقداً ذاتياً مارسها أيام الوحدة . لقد أشار أيام الوحدة مرات عدة إلى أخطاء حدثت . وكرر الإشارة إلى تلك الأخطاء بعد حدوث الانفصال . لكن الجماهير استوقفها ما قاله بعد الانفصال ، ولم تكن مستعدة أيام الوحدة لسماع ذلك القول .

وعندما كان عبد الناصر فى أيام الوحدة يشير إلى الأخطاء كان هدفه تنبيه الجماهير ورغبته الصادقة فى التصحيح . وعندما مارس النقد الذاتى بعد الانفصال كان هدفه تنبيه الجماهير المصرية والسورية بحيث تكون الصورة واضحة أمامها عند حدوث أى مسعى لتكرار تجربة الوحدة وبحيث يمكن الاستفادة من أخطاء التجربة السابقة .

فؤاد مطر : فى احتفاله بعيد الوحدة المصرية — السورية يوم ٢٢ فبراير (شباط) ١٩٦٢ على رغم أن الانفصال كان قد حدث ، رفع جمال عبد الناصر شعار « وحدة الهدف قبل وحدة الصف » . ومعنى ذلك أن مرحلة جديدة بدأت ، حيث كانت المرحلة السابقة تقوم على وحدة الصف . هل أن الانفصال وآثاره هى التى جعلته يبدأ هذه المرحلة الجديدة أم أن هنالك أسباباً أخرى ، وماذا كان تصوره لهذه المرحلة الجديدة ؟

محمد حسنين هيكل :

من الضرورى أن نأخذ فى الاعتبار بديهية هى أنه عندما رفع جمال عبد الناصر شعار « وحدة الهدف قبل وحدة الصف » لم يرفعه كخطة عمل لمرحلة مقبلة إنمـــا استخلاصا من مرحلة سابقة . وهو فى ذلك منسجم مع الواقع .

ولكى نبسط الأمر أقول أنه لا يمكن اختراع قانون لتطبيقه على الناس إنما يوضع القانون بعد الوقوف على الممارسة والعرف والتقاليد ، وما الذى يرضى الناس وما الذى يضايقهم . العرف هو المصدر الأول للقانون . الأمر نفسه بالنسبة إلى الشعار . إن نتائج ممارسة مرحلة معينة تقود إلى وضع شعار . ولنأخذ شعار « وحدة الهدف قبل وحدة الصف » مثلا . هذا الشعار نشأ فى المرحلة التى تلت حرب السويس وقيامَ الوحدة . أما قبل حرب السويس فكان شعار وحدة الصف هو المعمول به . وفى تلك المرحلة كنا فى مصر أصدقاء مع الملك سعود وكانت الجماهير تستغرب مثل هذه الصداقة بين الثورى جمال عبد الناصر والملك سعود بما يمثله . لكن تلك الصداقة كانت مرحلة من العمل السياسى لمقاومة حلف بغداد . وكان رأى جمال عبد الناصر آنذاك أن وحدة الصف ممكنة بل ضرورية بين طرفين قد لا تجمعهما الأهداف البعيدة المدى لكنهما يلتقيان حول موقف مشترك . والملك سعود كان بحكم عدائه للهاشميين يلتقى وجمال عبد الناصر فى مقاومة حلف بغداد . وفى المرحلة من ١٩٥٤ إلى ١٩٥٦ (أيام السويس) كان اللقاء المصرى — السعودى يبدو كأنه محور . ولم يكن هذا المحور قائماً على أساس تشابه النظرة إلى المواقف إنما على أساس مقاومة حلف بغداد . عبد الناصر يقاوم الحلف من منطلق ثورى . والملك سعود يقاوم الحلف من منطلق العداء للهاشميين . عبد الناصر ينظر إلى الحلف على أنه محاولة للسيطرة الاستعمارية . والملك سعود ينظر إليه من منطلق أنه لا يريد أن تكون للهاشميين اليد الطولى فى المنطقة . وهكذا التقى عبد الناصر والملك سعود لفترة .

لكن الموقف تبدل عندما غير الملك سعود موقفه . فقد زار الملك بعد حرب السويس الولايات المتحدة وهناك تحدثوا معه فى أهمية قيام حلف إسلامى فى المنطقة . وعاد الملك سعود من الولايات المتحدة وهو قلق . وبدأ بعد ذلك يخاف من الكلام عن الاشتراكية ، ومن الوحدة التى قامت بين مصر وسوريا . وتدريجاً تغير موقف الملك سعود تماماً وابتعدت السعودية عن مصر وأصبح أعداء الملك (أى الهاشميون) حلفاء له واجتمع بهم واتفقوا على أن الخطر البعيد (أى الوحدة والاشتراكية) أكثر خطورة عليهم من التناقض الذى بينهم .

إذا كان لقاء عبد الناصر والملك سعود طبيعياً لهدف سياسى مرحلى ، لكن شعار

« وحدة الصف » سقط لمجرد أن تحول الملك سعود إلى جبهة معادية لمصر والوحدة والاشتراكية .

ونأتى إلى شعار « وحدة الهدف قبل وحدة الصف » . هذا الشعار بدأت ممارسته عملياً فى الفترة من ١٩٥٧ إلى ١٩٦١ ولقد أطلقه عبد الناصر يوم ٢٢ فبراير (شباط) ١٩٦٢ بعدما اتضحت معالمه تماماً من خلال الممارسة .

فؤاد مطر : فى ١٤ مارس (آذار) ١٩٦٣ بدأت المحادثات الثلاثية (مصر مع البعث العراقى والبعث السورى) فى القاهرة للاتفاق على قيام الوحدة . وفى ١٧ أبريل (نيسان) ١٩٦٣ وضع اتفاق لمشروع الوحدة . وفى ٢٢ يوليو (تموز) ١٩٦٣ أعلن عبد الناصر انسحابه من الاتفاق .

بماذا تفسر ضعف عبد الناصر أمام الوحدة وتأرجحه حيالها ؟

محمد حسنين هيكل :

كانت لعبد الناصر عبارة شهيرة يرددها وهى تتعلق بموضوع « الحلم وتجسيد الحلم » . ولقد قالها عندما جاءته القيادات السورية عام ١٩٥٧ تطلب تحقيق الوحدة بين مصر وسوريا . والعبارة هى « الوحدة كهدف شبح يصعب ضربه ولكنهم لمجرد أن نجسد الهدف سيسارعون إلى ضربه . يجب أن تبقى الوحدة بمثابة أمل بين الناس وأنا متأكد من أننا عندما سنجسد الأمل سيتكالبون عليه لتحطيمه » .

وفى هذا أيضاً يبدو عبد الناصر منسجما مع الواقع . خذ مثلا أى تمثال كبير . هل يمكن كسر التمثال عندما يكون فى ذهن ناحته ؟ أبداً . إنه كان من المستحيل كسر تمثال « البييتا » وهو فى ذهن العبقرى الذى نحته لكنه بعدما تجسد وجد هنالك من يضرب التمثال ويكسر جزءا من الذراع .

الشيء نفسه بالنسبة إلى الوحدة . كان عبد الناصر ينظر إليها على أنها الأمل . وكان يقول ، وقد قال ذلك للقيادات السورية التى جاءت تطالب بالوحدة : « فلنبق الوحدة هدفاً وحلماً من دون أن نجسد الحلم ، ونعبيء الجماهير مرحليا لتقبل تجسيد الحلم » .

وكان بالفعل قلقاً من الذين سيتكاثرون ويتكالبون لضرب الحلم الذى تجسد . وقد حدث ذلك بالفعل .

وبعدما ضربت الوحدة ازدادت قناعة عبد الناصر بمسألة الحلم وتجسيد الحلم . كان يريد للحلم أن يتحقق . وفى الوقت نفسه كان يشفق على هذا الحلم من الذين سيضربونه .

ومن هنا كان تأرجحه حيال مسألة الوحدة .

فؤاد مطر : كان من الواضح فى بداية سياسة عبد الناصر القومية وجود نوع من التحالف بينه وبين حزب البعث بدليل أن البعث عشية قيام الوحدة وافق على حل نفسه فى سوريا . ما الذى أجهض هذه التجربة ، وما الذى جعل الصدام يقع بعد وفاة عبد الناصر بين البعث والحركة الناصرية .

الأمر نفسه بالنسبة إلى العلاقة مع الأحزاب الشيوعية العربية إذ راوحت العلاقة فى استمرار بين التحالف الموقت والصدام الموقت . كيف تفسر ذلك ؟

وهل أن عبد الناصر كان يعتبر نفسه البديل فى العالم العربى للبعثيين والشيوعيين معا ؟

محمد حسنين هيكل :

من الضرورى التفريق بين البعث والشيوعية . البعث حزب قومى موجود فى الساحة . والشيوعيون عبارة عن أحزاب تحمل عقيدة معينة وممتدة على اتساع العالم كله بوحدة الحركة الشيوعية فى العالم .

ولم يكن صعباً على البعث أن يحل نفسه لأن البعثيين قبل عبد الناصر طرحوا فكرة الوحدة . إذاً إن عبد الناصر لم يبدأ حركته من فراغ . كان البعث قد سبقه فى طرح شعار الوحدة والحرية والاشتراكية وجاء عبد الناصر وأعاد ترتيب الشعار بحيث أصبح « حرية . اشتراكية . وحدة » . وأخذ عبد الناصر من البعث بعض منطلقاته وأضاف إليها صيغاً جديدة منها صيغة التنظيم الواحد الذى يجرى الحوار داخله . وهذا التنظيم هو « تحالف قوى الشعب » ثم أصبح « تحالف قوى الشعب العاملة » . وكان البعث طرح الاشتراكية لكنه لم يطبقها وجاء عبد الناصر فوضع

مفهوماً معيناً للاشتراكية تمثل فى القطاع العام القائد ، وفى سيطرة الشعب على وسائل الانتاج عن طريق الملكية الاجتماعية والمشاركة فى الأرباح والإدارة ، ثم مجانية التعلم والخدمات .... الخ ، مما ميز تجربة عبد الناصر الاشتراكية . وكان البعث طرح شعار الحرية فجاء عبد الناصر يؤمم قناة السويس ويقف فى وجه الانكليز . وكان البعث طرح شعار الوحدة فقبل عبد الناصر تجربة الوحدة وإذابة أكبر وأقدم دولة عربية وتغيير اسم مصر .

إذاً لم يكن صعباً على البعث أن يحل نفسه ما دامت شعاراته أصبحت تطبق . حولها عبد الناصر من كلام إلى واقع .

ومن جانبه لم تكن أوضاع البعث تسمح له بتطبيق شعاراته فى سوريا ، فى حين أن عبد الناصر كان يطبق هذه الشعارات وبخطوات مدروسة خطوة بعد خطوة .

وعندما بحث أمر الوحدة قال عبد الناصر أنه يريد ألا يتدخل الجيش فى السياسة ، وأن يكون هنالك تنظيم واحد بمثابة التحالف يكون البعث شريكا فيه . وقد رأى عبد الناصر أن صيغة التحالف هى البديلة للحزب . وتمت الموافقة .

وفى حين قال أصدقاء البعث أنه وافق على صيغة التحالف والاشتراك فيه بنية طيبة ، فإن خصوم البعث قالوا أنه دخل بالمنطق القديم ، أى بمنطق السعى للسيطرة داخل التنظيم الجديد ، أى تبعيث التنظيم الجديد .

وفى أى حال ، وسواء كان رأى الأصدقاء هو الصحيح ، أو رأى خصوم البعث هو الصحيح ، فإن التجربة تعثرت .

وفى أى حال أيضاً أن عبد الناصر لم يكن يعتبر نفسه البديل للبعث ، ولا اعتبر نفسه البديل للحزب الشيوعى .

وبالنسبة إلى الشيوعية الوضع مختلف . إن الأحزاب الشيوعية صنفت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى البداية بالمنطق التقليدى ونظرت إليها على أنها عملية انقلابية فاشستية يمينية قام بها الجيش من أجل حفظ الأمر الواقع ولمصلحة الطبقة المسيطرة ، وليست ثورة هدفها التغيير . وشجعت موسكو هذه النظرة .

واستمر الأمر كذلك إلى أن تمت صفقة الأسلحة التشيكية ثم حرب السويس وتصدى عبد الناصر للأحلاف . بعد ذلك بدأ الشيوعيون يتخذون موقفاً آخر لكنه موقف لا يتسم بالقناعة المطلقة . اعتبر الشيوعيون أن عليهم مسايرة

موجة مقاومة الاستعمار والأحلاف بعدما لاحظوا تزايد الالتفاف الجماهيرى حول عبد الناصر .

وفى العام ١٩٥٧ اتخذ الحزب الشيوعى السورى موقفاً غريباً . أراد أن تكون له اليد الطولى في سوريا . وفى حين وقفت كل الأحزاب الشيوعية فى وجه ضغوط حلف بغداد فإن الحزب الشيوعى السورى لم يتخذ موقفاً مماثلا .

وبعد الثورة فى العراق وقف الحزب الشيوعى العراقى ضد فكرة انضمام الثورة الجديدة إلى دولة الوحدة ودخل فى صدام مع القوى القومية التقدمية فى العراق .

وعلى رغم التأميمات التى كانت تحدث فى مصر فإن الشيوعيين المصريين كانوا يشككون فى مسألة التطبيق الاشتراكى التى ينفذها عبد الناصر . وفى تلك الفترة كان الشيوعيون فى السجون وسجلوا آراءهم هذه فى وثائق ومستندات . كانوا يرون أن التأميمات مظهر من مظاهر الصراع بين جناحين من البورجوازية . حتى عندما أمم عبد الناصر بنك مصر قالوا أن عبد الناصر يصفى احتكارات بنك مصر لمصلحة احتكارات عبود ، لكنهم أصيبوا بذهول وانتابتهم بلبلة عندما ضرب عبد الناصر مصالح عبود . وكانوا فى وضع مبلبل داخل السجن . وبعد خروجهم من السجن اجتمعت بهم مراراً وناقشنا مسألة التحالف وضرورة أن يشاركوا فى التحالف . وكنت أتصور أنه لا يمكن التجربة المصرية أن تسير نحو ديموقراطية حقيقية إذا لم يشارك اليسار الماركسى المصرى فى التحالف ويعبر عن فكره الحقيقى .

وحدث أن الشيوعيين المصريين غيروا نظرتهم إلى تجربة عبد الناصر ، وبدأوا ينظرون إليها على أنها ثورة اجتماعية تطبق مالا يمكنهم أن يروه يطبق . وشاركوا فى التحالف .

فؤاد مطر : فى ٢٥ مارس (آذار) ١٩٥٩ تم على الحدود اللبنانية — السورية اللقاء التاريخى بين جمال عبد الناصر وفؤاد شهاب . لماذا على الحدود وليس فى العاصمة اللبنانية أو فى العاصمة السورية أو فى إحدى المدن اللبنانية أو السورية (شتورة أو بلودان) ؟
وما الذى جرى فى ذلك اللقاء ؟

محمد حسنين هيكل :

عندما قامت الجمهورية العربية المتحدة كان كميل شمعون فى الحكم . وفى عهده

اتخذت مواقف لبنانية كثيرة ضد عبد الناصر وقدمت شكوى إلى الأمم المتحدة تتهم الجمهورية العربية المتحدة بالتدخل فى شؤون لبنان الداخلية .

وقبل أن يأتى اللواء فؤاد شهاب إلى الحكم كانت العلاقات على المستوى الرسمى متوترة . أما العلاقات على المستوى الشعبى فكانت جيدة وكانت الوفود اللبنانية الشعبية تأتى فى استمرار لتحية عبد الناصر وإبلاغه تأييدها له .

وجاء فؤاد شهاب إلى الحكم وأمامه آثار التوتر التى رأى أن من واجبه إزالتها . ولأنه كان من الصعب أن يأتى فؤاد شهاب إلى دمشق ، فإن عبد الناصر الذى تفهم الظروف ارتأى أن يلاقيه إلى منتصف الطريق لكى يخفف عنه بعض الاحراجات .

ولقد روى لى عبد الناصر بعد خروجه من اجتماع الخيمة أنه يقدر شخصية فؤاد شهاب ، وأنهما تبادلا تأكيدات مهمة على صعيد العلاقات . عبد الناصر طمأن اللواء فؤاد شهاب إلى أن الجمهورية العربية المتحدة هى سند للبنان وليست خطراً عليه . وفؤاد شهاب أكد أنه لن يسمح بأن يكون لبنان مقراً لمن يريد التخريب والإساءة إلى الجمهورية العربية المتحدة .

وبعد هذا اللقاء أصبحت العلاقات الرسمية جيدة لأنه كان هنالك حرص حقيقى من جانب عبد الناصر وفؤاد شهاب على أن تبقى العلاقات جيدة فى استمرار .

وحتى قبل وفاته كان عبد الناصر يذكر بالخير فؤاد شهاب ولا ينسى جميله والذى فعله للمصريين بعد وقوع الانفصال فى سوريا .

فؤاد مطر : كيف وجدت ظاهرة اليمن وما هى الظروف التى أفرخت دور مصر اليمنى ؟
ثم ما هى سلبيات هذا الدور وإيجابياته ؟

محمد حسنين هيكل :

أعترف أننى واحد من الذين كانوا قلقين جداً من تدخل مصر فى اليمن . وكان قلقى مستنداً إلى أننى أتيحت لى الفرصة أن أرى اليمن قبل الثورة ، ولاحظت كيف أن هذا البلد ينقصه الهيكل الاقتصادى السياسى . ليس فيه طرق ، وحالة التخلف فظيعة جداً . حتى قيام الثورة كنت على قناعة بأن اليمن غير مهيأ اطلاقاً

للثورة . وأتذكر هنا عبارة قالها لى رالف بانش الأمين العام المساعد للأمم المتحدة عندما التقينا مرة فى صنعاء . قال بانش وهو مذهول أنه حتى قبل مجيئه إلى اليمن كان يتصور أن الكونغو هى أكثر الدول تخلفاً فى العالم ، لكنه وجد أن اليمن أكثر تخلفاً .

وعندما قامت الثورة فى اليمن كانت الجمهورية العربية المتحدة (لأن عبد الناصر استمر محافظاً على الاسم على رغم الانفصال) أمام اختيار صعب : إما أن يترك الثورة تضرب . وإما أن يتدخل .

ولقد شجعت الظروف على التدخل . فالرجعية العربية تقوم بعملية تشهير ضد عبد الناصر والوحدة والحركة الثورية . وكان أهم مسارح التشهير مؤتمر شتورة . وعبد الناصر فى أزمة مع الاتحاد السوفياتى والأحزاب الشيوعية العربية . وحركة الثورة العربية تبدو فى وضع انحسارى وفى حالة دفاع عن النفس .

وسط هذا الوضع قامت الثورة . وهرب الإمام البدر .وكان سيف الاسلام الحسن فى نيويورك وجاء إلى نجران لجمع القبائل والهجوم على صنعاء بمساعدة من الملك سعود والاميركان . وقد روى الطيارون السعوديون الذين لجأوا بطائراتهم إلى مصر الكثير عما يخططه سعود والاميركان لضرب الثورة اليمنية . وفى الوقت نفسه جاءت بعض القيادات اليمنية إلى القاهرة وشرحت الوضع طالبة المساندة . وكان الرئيس أنور السادات أبرز الذين أجروا مناقشات آنذاك مع القيادات اليمنية .

كان الخيار صعباً لكن عبد الناصر حيال هذا الوضع وجد أن ضرب الثورة اليمنية يعنى إعطاء الملك فرصةلتحقيق انتصار آخر بعد الانتصار الذى حققه فى عملية الانفصال .

ولم يكن عبد الناصر مستعداً لاعطاء الملك سعود مثل هذه الفرصة وقرر أن يساعد ثورة اليمن .

وفى البداية أرسلنا مستشارين وكتيبة على أساس أن هذا يكفى وبحيث لا يبقى هؤلاء فى اليمن طويلا ، لكننا وجدنا أنفسنا على حد قول الرئيس عبد الناصر لى

مرة نرسل بعد ذلك فرقتين لمساندة الكتيبة . وبالأرقام ، أرسلنا خمسين ألف عسكرى لتعزيز ٦٠٠ عسكرى .

وعلى أثر زيارة لليمن بعد شهرين من قيام الثورة أوضحت لعبد الناصر صراحة أن الوضع الاجتماعى فى اليمن لا يتحمل تدخل مصر لحماية الثورة .

وكنت أتصور أن فرقاً من المتطوعين العرب ترسل إلى هناك للقتال مع الثورة اليمنية (أو مع الذى حدث فى اليمن لأن تسمية ثورة مبالغ فيها) كان أفضل. ولم يكن إيجاد هؤلاء المتطوعين أمراً صعباً بالنسبة إلى ما كان يواجهه شعب اليمن من اضطهاد مروع من حكم الامامة الذى قتل أحلامه وملكاته وعزله عن العالم .

نأتى إلى سلبيات دورنا وإيجابياته فى اليمن . ونبدأ بالسلبيات وأهمها أننا بسبب ضعف الثورة اليمنية وجدنا دور الإدارة المصرية يحل محلها ، وهذا جعل إقامة مصر فى اليمن مدة طويلة. ولقد ذهبنا إلى اليمن من دون أن نحدد مدى معيناً لبقائنا هناك وحجماً معيناً لمساندتنا ، ولذا وجدنا أنفسنا أسرى الظروف والتطورات التى لم نستطع التحكم بها . ثم وجدنا أنفسنا نتيجة لذلك ننحى الثورة اليمنية ونتصرف بالنيابة عنها .

ومن السلبيات على الصعيد العسكرى أن ضباطنا وجنودنا تعلموا القتال السهل والإسراف فى استعمال قوة النار ، واستعمال أسلحة فى غير موضعها والبطء فى رد الفعل لأنهم خاضوا معركة من نوع جديد . هم خاضوها نظامية والقوات اليمنية المعادية للثورة خاضتها بنوع متخلف من حرب العصابات .

أما إيجابيات دور مصر فى اليمن فإنها كثيرة . وإذا كان الجيش الفرنسى أيام نابوليون قام فى مصر بدور تحديثى بمعنى أنه كسر استمرار عصر المماليك وفتح آفاق العلم أمام المصريين ، فإن الجيش المصرى بانتمائه القومى قام بدور مماثل تقريبا فى الجزيرة العربية من خلال وجوده فى اليمن بضع سنوات ، فقد أسقط حكم الملك سعود وأنهى عهداً معيناً من الحكم فى السعودية . وجاء الملك فيصل ليبدأ عملية تحديث للدولة السعودية وبدأ الأمراء يتعلمون وأصبحت هنالك رغبة بل حاجة إلى الاتصال بالعصر .

واستقلال الجنوب العربى كان نتيجة مباشرة لتدخل مصر فى اليمن عسكرياً .
وحدث تغيير أساسى وجذرى فى شبه الجزيرة العربية . وأصبح هنالك وعى استراتيجى عربى .

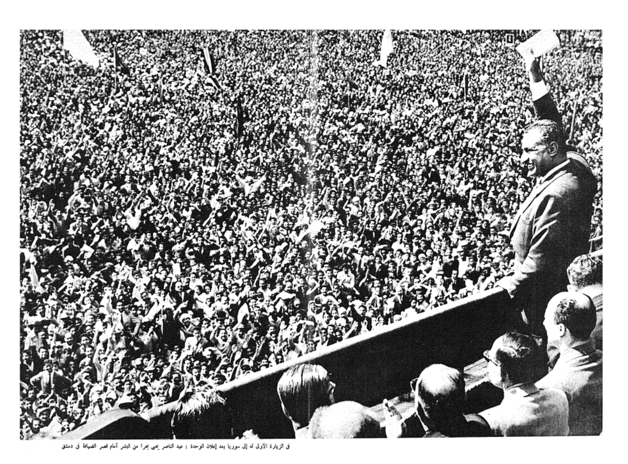
وبسبب وجود الجيش المصرى قرب منابع النفط أصبحت الشركات الأميركية والبريطانية تتصرف بشكل آخر مع القوى المحلية صاحبة الثروة النفطية ، لأنها شعرت أن هنالك قوة عربية قريبة من منابع النفط .

وهذه الايجابيات جعلت الغرب يتكالب بعد ذلك على الثورة المصرية وعلى تجربة عبد الناصر . وظهر التكالب واضحاً فى عدوان ١٩٦٧ .

قبل إعلان الوحدة مع سوريا : عبد الناصر مع الضباط السوريين الذين جاءوا إليه فى القاهرة يطلبون تحقيق الوحدة الاندماجية بين مصر وسوريا .



... وفى سوريا بعد إعلان الوحدة : شـــاب يعبر عن فرحته بعبد الناصر



فى الزيارة الأولى له إلى سوريا بعد إعلان الوحدة : عبد الناصر يحيى بحرا من البشر أمام قصر الضيافة فى دمشق

فى مصر عام ١٩٦٠ : جماهير نزلت بثيابها إلى بحيرة المنزلة (بور سعيد) لتحية عبد الناصر الذى كان فى لنش ، والمناسبة : عيد النصر .

فى القاهرة وغداة إعلان الوحدة مع سوريا ووسط استقبال الجماهير لم يفته الموقف الذى طرأ كلمح البصر أمامه ، بكل اللهفة يتابع بمشاعره طفلا صغيرا عبر الشارع فجأة أمام سيارته وداهمه الخطر

الفصل السابع

هزيمة ١٩٦٧: قبل وبعد

فؤاد مطر : حول هزيمة ١٩٦٧ هنالك تساؤلات وأسئلة كثيرة ربما توضح الإجابة عنها ما قد ينصف جمال عبد الناصر .

أولا — هل كان عبد الناصر مقتنعاً بأنه سيحارب عندما حشد القوات فى سيناء فى مايو (أيار) ١٩٦٧ ؟

ثانياً — هل كان يتوقع أن تحدث الهزيمة بالشكل الذى حدثت فيه ؟

ثالثاً — ما الذى فعله بعدما تأكد أن الهزيمة وقعت ؟

رابعاً — لماذا عندما قرر التنحى اختار زكريا محيي الدين دون غيره ؟

خامسا — كيف يقبل بأن يستمر فى الحكم على رغم فظاعة ماحدث ، وما هو الوضع الذى كانت ستشهده مصر لو أنه سار إلى النهاية فى موضوع التنحى ؟

سادساً — كيف فلسف الهزيمة وهل شعر بالضعف بعد ذلك وأصبح يمارس سلطاته من موقع ضعف ؟

سابعاً — إن خوض معركة أسهل بكثير من إعادة بناء جيش مهزوم . كيف أمكن عبد الناصر بتلك السرعة المذهلة أن يعيد بناء القوة العسكرية بحيث أنه عندما توفى كانت هنالك خطة لمعركة وكان الجيش المصرى جاهزا لخوضها ولا يحتاج إلا إلى إصدار الأمر بالقتال؟ وما هو الموعد الذى حدده لخوض المعركة ؟

ثامناً — هل أن الهزيمة هى التى فرضت على عبد الناصر مهادنة الأنظمة التقليدية أم أن المهادنة بدأت عملياً مع القمة العربية الأولى التى عقدت فى القاهرة فى ١٣ يناير (كانون الثانى) ١٩٦٤ .

محمد حسنين هيكل :

عندما حشد عبد الناصر القوات كان يعتقد أن احتمال قيام الحرب وارد . وهو عندما أخرج القوات الدولية وأغلق خليج العقبة تعامل مع العالم باللغة الدولية ، بمعنى

أنه بعد الذى فعله يجب ألا يهاجم إسرائيل إنما ينتظر ما إذا كانت اسرائيل ستبدأ الهجوم . بمنطق الاستراتيجية الدولية يبدو ما فعله عبد الناصر صحيحاً أى أنه لم يهاجم .
وأن خيار الهجوم لم يكن فى يد عبد الناصر . لقد اتخذ إجراءات ومن الطبيعى أن تهاجم اسرائيل . إذاً عليه أن يكون مستعداً ليدافع . ولو أن عبد الناصر بعدما أخرج القوات الدولية وأغلق خليج العقبة فى وجه الملاحة الاسرائيلية هاجم اسرائيل فإن العالم كله كان سيقف ضده .

لم يكن عبد الناصر ينوى مهاجمة اسرائيل وهو أعلن بنفسه ذلك رسميا وبوضوح . وكان طبيعياً من أجل معركته السياسية ألا تأتى الضربة الأولى منه ، إنما واجبه أن يستوعب هذه الضربة ويرد عليها .

وكان فى تصوره أن الدفاع الناجح له قوة الهجوم ، بمعنى أنه إذا كانت اسرائيل ستهجم لتحقيق هدف ما واستطاعت مصر أن تصد هذا الهجوم وتمنع الاسرائيليين من تحقيق الهدف فإن مصر تكون انتصرت . فالحرب بالمفهوم القديم لم تعد واردة . الحرب بمنطق الفرسان والمنطق القبلى انتهت وأصبح الأمر أكثر تعقيداً .

وعندما اتخذ عبد الناصر الإجراءات التى اتخذها كان يتصور أن الجيش المصرى قادر على الدفاع ، على الأقل فى عدد من الخطوط . وهو ردد أكثر من مرة أن القوات المصرية لم تبلغ مرحلة القدرة على شن الهجوم . كان يتصور بالفعل أن القوات المصرية قادرة على الدفاع فى أسوأ الظروف عن خط المضائق . وما حدث فى حرب ١٩٦٧ كان انهياراً فى القيادة العسكرية . وبعدما وجد أن الهزيمة حدثت قرر أن يتنحى لأنه اعتبر نفسه مسؤولا سياسيا عما حدث . ووضع نفسه فى تصرف الجماهير .

وأؤكد أنه كان صادقاً تمام الصدق فى موضوع التنحى . والذى يفترض أنه كان يناور يكون ظالماً وجاهلا لأن عبد الناصر كان فى وضع لا يسمح له إطلاقاً بأن يناور . كان مجروحاً بعدما ضربت القضية التى أعطاها كل الوفاء والاخلاص .

وأكثر من ذلك كان عبد الناصر مستعداً لأن يحاكم سياسيا .

وعندما كتبت خطبة التنحى كانت فيها عبارة « إننى مستعد لتحمل نصيبى فى المسؤولية » لكنه عدل العبارة بخط يده لتصبح « إننى مستعد لأن أتحمل المسؤولية كلها » .

وهذا كان موقفه فى تلك اللحظة . وعندما أعلن قرار التنحى كان مصمما بالفعل على أن يتنحى .

وكان عبد الناصر اتصل بى يوم الخميس (٨ يونيو – حزيران – ١٩٦٧) ليلا وحدثنى فى ما يريد أن يتضمنه الخطاب . وكان رأيه أن يعلن تنحيه لشمس بدران وزير الحربية آنذاك ، لأنه تصور أن مشكلة ستحدث بين القوة السياسية فى مصر والقيادة العسكرية ، وأن مثل هذا الاختيار يجنب البلد أى انشقاق بحيث لا تصطدم السلطة المدنية بالسلطة العسكرية ويحفظ وحدة القيادة لفترة . وفى اليوم الثانى (٩ يونيو – حزيران ١٩٦٧) توجهت إليه ومعى الخطاب وقد تركت محل الاسم فارغا أى أننى لم أكتب اسم شمس بدران . وهذه الواقعة يعرفها كثيرون من المسؤولين الذين كانوا فى موقع السلطة آنذاك .

وأعطيت الخطبة لعبد الناصر وقلت له أننى شخصيا غير مقتنع بمسألة التنحى لشمس بدران ، لأن ما نواجهه الآن أبعد بكثير من موضوع احتمال اصطدام السلطة العسكرية بالسلطة المدنية .

وكان عبد الناصر وهو يقرر التنحى متخوفا بالفعل من صراعات القوة التى ستحدث بعد أن يتنحى .

وعندما اجتمعت به كانت الساعة نحو السابعة والنصف صباحاً . وكان يتلقى أنباء عن الوضع فى الجبهة . وبعد مناقشة طويلة اقتنع بضرورة أن يكون الشخص الذى يتنحى له غير شمس بدران .

واستقر رأيه على زكريا محيي الدين على أساس أنه أقدم الباقين من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وليس على أى أساس آخر . ولقد تردد فى حينه أن الاختيار كان لأن زكريا محيي الدين يمكن أن يكون مقبولا من الغرب . وهذا هراء . فزكريا محيي الدين من الوطنيين فى مصر ومن الذين شاركوا فى الثورة . وما قيل بالنسبة إلى موضوع اختياره ليس القصد منه سوى الإساءة إلى وطنيته ودوره .

إن زكريا محيي الدين قد تختلف معه اجتماعياً لكن لا خلاف حول وطنيته . بالإضافة إلى أن عبد الناصر عندما اختاره لم تخطر له فكرة الاستسلام . كل الذى خطر فى باله آنذاك أن المرحلة تتطلب التقوقع لفترة ليبدأ الانطلاق بعد ذلك .

وبعدما أعلن عبد الناصر تنحيه ذهل من رد فعل الجماهير . وهو بعدما أذاع خطبة التنحى اضطر إلى تناول حبة منوم لأنه كان فى حالة صعبة . وكان اتصل بى على أساس أن ما يجب أن يعلنه حدث وأنه يريد أن ينام . وكانت ليلة حزينة . ولم ينقطع الاتصال بيننا حتى الرابعة صباحاً . وبعدها كان المنوم بدأ يفعل فعله فنام . لكنه عندما صحا من النوم وجد أن الشوارع امتلأت بالناس تطالب ببقائه . وعبرت الجماهير عن إرادتها بطريقة واضحة لا مجال للمناقشة فيها . وكذلك طلب منه كل مسئول فى مصر البقاء فى موقعه لأن البلاد ستضيع إذا استمر هو متنحيا واستمرت الجماهير فى الشوارع رافضة هذا القرار .

وكانت حدثت محاولات كثيرة لكي يعيد عبد الناصر النظر فى قراره . زكريا محيي الدين اتصل بي طالباً أن أكتب بياناً أقول فيه أن الرئيس عبد الناصر أعاد النظر فى قراره تجاوباً مع رغبة الشعب .

واتصل بى سامى شرف وشعراوى جمعة من منزل عبد الناصر بعدما دخل غرفته لينام وطلبا أن أصدر بيانا يشير إلى أن الرئيس عبد الناصر سيفكر فى موضوع التنحى .

ونحو الأولى بعد منتصف الليل اتصلت بالرئيس عبد الناصر وكان فى غرفة نومه وقلت له ما حصل فأجابنى : لا . الموضوع انتهى .

كان مصمما بالفعل على التنحى . وفى صباح ١٠ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ كنت منضما – بعد الذى عبرت عنه الجماهير – إلى الذين يرون أن الحل هو فى أن يعيد عبد الناصر النظر فى قرار التنحى .

وكانت الجماهير صادقة ومخلصة فى رفضها أن يتنحى جمال عبد الناصر . وأمام هذا الأمر وحيال تصوره لما قد يحدث لمصر بدأ يفكر فى احتمال العودة عن القرار .

وفى اعتقادى أن مصر كانت ستشهد حرباً أهلية لو أن عبد الناصر سار إلى النهاية فى موضوع التنحى . وعندها تصبح الهزيمة كاملة . وكان زكريا محيي الدين سيوضع فى موضع صعب وشديد الظلم له . ولقد شاهدنا عينات تعكس ذلك ، منها أن محمد فائق كان متوجهاً إلى منزل عبد الناصر ذلك اليوم وظنه الناس زكريا محيي الدين فرمى بالحجارة وضرب . كذلك توجهت جماهير إلى منزل زكريا محيي الدين وهى تهتف « ارفض . ارفض ، يا زكريا » .

وكان زكريا محيي الدين متضايقاً بالفعل من الموقف الصعب الذى وضع فيه لأنه إذا كانت الجماهير استقبلت قرار التنحى بهذا الشكل فكيف سيواجه هو بعد ذلك الأمور الأكثر تعقيداً . كيف سيواجه الشراذم العائدة من القتال وكيف سيواجه القيادات المسؤولة عن الهزيمة التى كانت ستغطى هزيمتها بصدام مع السلطة يجر البلد إلى حرب أهلية .

إذاً ، ان عودة عبد الناصر عن قرار التنحى أنقذت البلد بالفعل من حرب أهلية كان يمكن أن تقع وحالت دون أن تكون الهزيمة كاملة . ومصر فقدت الجزء الأكبر من سلاحها فى حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧ لكن إرادتها لم تهزم . وخروج الناس إلى الشوارع رافضة تنحى عبد الناصر كان تعبيرا صادقا عن أن الإرادة لم تهزم . والنصر والهزيمة فى النهاية مسألة تتعلق بالإرادة .

لقد كانت لعبد الناصر حسابات معينة عندما قاد البلد إلى معركة ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ . وقد حدث شئ من الخلل فى الحسابات . ومع أنه قد يتحمل جزءا من المسؤولية السياسية إلا أنه ليس مسؤولا عن أمور كثيرة . وما دامت المسألة حدثت فإننى من الذين يرون أنه لا بد من إعادة مناقشة ما حدث عام ١٩٦٧ ، بل مناقشة كل شئ حدث ويحدث فى مصر . مناقشة علمية من دون حقد . وفى استطاعة أكاديمية ناصر مثلا تكليف مجموعة سياسية – عسكرية تناقش ما حدث عام ١٩٦٧ بحيث لا يكون ما جرى مجرد حادثة إنما درساً نستفيد منه .

لقد حدث أن عبد الناصر قاد البلد عام ١٩٦٧ إلى مواجهة انتهت بما بدا فى ذلك الوقت أنه كارثة . إذاً فإن مسؤوليته تفرض عليه وضع استقالته بتصرف الأمة . وهذا ما حدث بالفعل . وكان عليه كخطوة لاحقة أن ينتظر قرار الأمة فى هذا الشأن ، حتى إذا كان القرار هو أن الشعب سيحاكمه فإنه كان على استعداد لذلك . وتلك كانت رؤيته عندما قرر التنحى .

وهو لم يكن مضطراً إلى أن يفلسف الهزيمة التى حدثت . ولو كان يريد ذلك لكان معناه أنه يسعى لإعفاء نفسه من آثار ما حدث وتبرير ما حدث . لم يكن يريد تبريراً . التبرير لم يكن هو المطلوب آنذاك بالنسبة إلى قائد مسؤول . وعبد الناصر لم يكن فى ذلك الوقت فى جلسة فكرية يناقش أموراً معينة . كان فى محنة حقيقية .

وهو من موقع المسؤولية عرف حجم تلك المحنة . ولقد تصرف كمسؤول ، ولم يبرئ نفسه . لم يبرر ما حدث ، وقال أنه المسؤول ولم يتهرب من المسؤولية .

حتى عندما قرر العودة عن قرار التنحى فإنه ربط ذلك باستفتاء لأنه كان يعتقد أن الشعب يجب أن ينحيه بالفعل .

ولمجرد أن عاد عن قرار التنحى بدأ يتصرف من موقع القوة وبدأ يتصرف على أساس أنه مطالب بأن يقدم للشعب الذى رفض التنحى ما يريده . ونلاحظ أنه بعد ظهر السبت ١٠ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ وهو يوم العودة عن قرار التنحى عزل جميع قيادات الجيش وبدأ يجرى تغييرات أساسية . وفى ثلاثة أشهر تغير الوضع العسكرى . يوم ١١ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ لم تكن فى الجيش فرقة واحدة متماسكة ولم يكن تشكيل واحد متماسكاً . بعد ثلاثة أشهر كان تشكيل جبهة مستعدة للدفاع . أعيد بناء الجيشين الثانى والثالث . ولم تكن المسألة سهلة . لم تكن عملية ضغط على أزرار فيحدث كل ذلك . لقد تم ذلك بجهد خرافى يدعمه موقف جماهير ٩ و ١٠ يونيو . وعبد الناصر لم يقبل قرار مجلس الأمن إلا بعد تقرير مشترك رفعه إليه فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٦٧ أحسن قائدين عسكريين هما عبد المنعم رياض رئيس أركان الجيش المصرى وزخاروف رئيس أركان الجيش السوفياتى يؤكد أن الجبهة المصرية قادرة على صد أى هجوم إسرائيلى .

نأتى إلى مسألة المهادنة . ان الذى جعل عبد الناصر يدعو إلى مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى يناير (كانون الثانى) ١٩٦٤ فى القاهرة هو أن التقرير الذى وضعه رؤساء أركان الجيوش العربية على أثر اجتماع عقدوه أشار إلى أن هذه الجيوش بأوضاعها الراهنة عاجزة عن أن تفعل شيئاً أمام إسرائيل ، وأن أوضاع الجبهات العربية مهلهلة . وبعدما اطلع عبد الناصر على هذا التقرير قرر أن الموقف يتطلب تجاوز كل الخصومات . وعلى الفور اتخذ القرار ودعا إلى عقد مؤتمر قمة عربى للبحث فى سبل مواجهة إسرائيل .

فؤاد مطر : ألم يكن عبد الناصر يسمع أن هناك مظلومين وتجاوزات ومعتقلين بالشبهة وحالات تعذيب ؟

إذا كان يبلغه ذلك فلماذا لم يكن يتدخل ويفضل ترك الأمر

للأجهزة تبالغ فى الأخطاء . وهل صحيح أنه بعد هزيمة ١٩٦٧ أصبح أسير الأجهزة لا يناقشها فى شئ ؟

محمد حسنين هيكل :

بعدما عرف جمال عبد الناصر منى ما حدث مع شهدى عطية (واحد من قادة الشيوعيين مات فى السجن) تضايق كثيراً . وأتذكر أننى بعدما أبلغته ثار كما لم يثر من قبل ، وقال لى : ماذا تركنا للعهد الملكى إذا كان مثل هذا الأمر يحدث فى عصر الثورة ؟ ولقد فصل مدير السجون من عمله بعدما بلغت عبد الناصر حادثة شهدى عطيه .

ولا أعتقد أن عبد الناصر لم يحقق فى أية حوادث أو تجاوزات بلغه أنها وقعت . ولقد كان يصحح بعد أن تصله معلومات عن تجاوزات تحدث . وعندما لا يحدث التصحيح يكون لأنه لم يعرف بتجاوزات حدثت .

وفى أى دولة حديثة تكون الأجهزة جزءا من هذه الدولة . والذى حدث فى مصر أن النظام كان معرضاً فى استمرار لغزو من الداخل من جانب الأميركان وغيرهم . والأجهزة كان يهمها فى الدرجة الأولى حماية النظام بصرف النظر عن التجاوزات التى تحدث . ومثل هذا الأمر يحدث فى أميركا والاتحاد السوفياتى والدول الأوروبية والدول العربية .

وإذا كانت التجاوزات فى مصر بلغت حداً غير مقبول فلأن الأجهزة تعمل بمعزل عن الرقابة . ولذا يجب أن تكون الأجهزة تحت رقابة شعبية مستمرة .

والتجاوزات التى حدثت فى عصر عبد الناصر — مع رفضى لها وهو رفض كتبت عنه وكان عبد الناصر ما يزال حياً — كانت عنيفة فى بعض الأوقات لأن هجمة الأميركان وغيرهم على مصر كانت فى غاية الشراسة .

والحديث عن التجاوزات يجب أن يكون بعيداً عن التجنى مع أخذ الظروف والضرورات فى الاعتبار .

نأتى إلى المسألة الأخرى . ان القول أن عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧ أصبح أسير الأجهزة لا يناقشها فى شئ هو قول مرفوض . والذى يعرف عبد الناصر يدرك

أن الرجل لا يمكن أن يكون أسير شئ . لقد رفض أن يكون أسير المرض ومات وهو يقاوم المرض . وهو فى ۹ و ۱۰ يونيو (حزيران) ۱۹٦۷ حصل على تفويض أساسى وتاريخى من الشعب وهذا التفويض أيضاً يسقط تماماً الافتراض أنه أصبح أسير الأجهزة .

فؤاد مطر : كيف كانت حالة عبد الناصر يوم سار فى جنازة عبد المنعم رياض ؟ ولمـــاذا قرر السير فى الجنازة ؟

محمد حسنين هيكل :

كان استشهاد عبد المنعم رياض صـــدمة بالنسبة إلى جمال عبد الناصر ، لأن عبد الناصر كان يرى أن عبد المنعم رياض هو الذى سيقوده له معركة التصحيح لهزيمة ۱۹٦۷ . وهو كان يأمل كثيراً فى عبد المنعم رياض . وصدمته باستشهاده كانت الصدمة فى الشخص الذى أعده لمعركة معينة . وفضلا عن أن الصدمة كانت شخصية فإنها كانت فى نظره أيضا صدمة فى الحاضر والمستقبل .

لهذه الأسباب وجد عبد الناصر أن التعبير عن صدمته باستشهاد عبد المنعم رياض هو فى أن يسير فى جنازته .

فؤاد مطر : بعد هزيمة ۱۹٦۷ بدأ عبد الناصر يفضل الخطب المكتوبة على المرتجلة .

لمـــاذا ، وهل ضايقه ذلك بعدما اعتاد مخاطبة الجماهير بتلقائية ؟

محمد حسنين هيكل :

بعد ۱۹٦۷ ألقى عبد الناصر خطباً كثيرة ارتجلها ارتجالا . والذى أعرفه أنه كان يفضل الخطب المكتوبة عندما يكون مريضا ولا يستطيع البقـــاء طويلا واقفا على قدميه . فى حالات المرض كان يلقى خطبا مكتوبة . كذلك كان يلقى الخطب المكتوبة عندما يكون فى مجلس الشعب أو عندما يتضمن الخطاب أرقاماً . وفى العادة أن الخطب التى تتضمن الأرقام هى الخطب التى يلقيها لمناسبة ذكرى ثورة ۲۳ يوليو . حتى فى الخطب المرتجلة كان يترك النص ويتكلم على هامش ما هو مكتوب لأن فكرة ما تخطر فجأة فى باله ويرى أن من المناسب التحدث عنها .

فؤاد مطر : كيف كانت مشاعر عبد الناصر عندما اضطر إلى وقف الإذاعات الفلسطينية فى القاهرة عن البث . وكيف كانت مشاعره يوم قامت ثورة ٢٥ مايو (آيار) ١٩٦٩ فى السودان ثم ثورة الفاتح من سبتمبر (أيلول) من العام نفسه فى ليبيا ؟

محمد حسنين هيكل :

لقد حاول عبد الناصر جاهداً إفهام القيادات الفلسطينية أصول لعبة المناورة الدقيقة المتعلقة بمبادرة روجرز ووقف إطلاق النار . كان يريد بناء حائط الصواريخ الذى كان نقطة الارتكاز فى عملية العبور فى ٦ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ . كان هذا هدفه من قبول بادرة روجرز لـكنه لم يكن يريد أن يكشف خططه .

والذى ضايقه بالفعل أن عناصر عربية شريكة له لم تشأ أن تتفهم مناورته . وفى تلك الفترة كنت وزيراً للخارجية بالوكالة وأوضحت للقيادات الفلسطينية ما فيه الـكفاية . والقيادات الفلسطينية كانت مدركة أبعاد الموقف وملمة بالصورة تماما .

وعندما تحدثت فى الأمر مع عبد الناصر قال لى أنه لا يمانع فى أن تهاجم الإذاعات الفلسطينية بادرة روجرز وهذا من حقها ، لـكن المؤسف أن تصل الحـال بالفلسطينيين إلى درجة الاتهام بالخيانة من دون أى تقدير من جانبهم للظروف التى حتمت بل أوجبت قبول وقف إطلاق النار .

ويبدو أن الاعتبارات الغريبة التى كانت تعصف بحركة المقاومة الفلسطينية فى الأردن والمزايدات التى كانت رائجة آنذاك هى التى جعلت الموقف يزداد تدهوراً وتهوراً .

وحرصاً من عبد الناصر على تسوية الأمر فإننى شرحت لاثنين من قادة فتح هما فاروق القدومى وهايل عبد الحميد الموقف وطلبت منهما التوجه إلى عمان فوراً لأننا لا نريد أن يصل الموقف إلى نقطة الاصطدام ، واستمرار الإذاعات الفلسطينية تبث من القاهرة باللهجة العنيفة التى كانت تبث بها من شأنه أن يجعل الموقف ينفجر .

وقد تفهم الاثنان الظروف وتوجها إلى عمان . وبعد يومين اتصل بى عبد الناصر وطلب أن أتوجه إليه . وأتذكر أنه كان فى اجتماع مع بعض المسؤولين . وفور

دخولى أوضحت طبيعة الاتصالات التى أجريتها مع فاروق القدومى وهايل عبد الحميد وقلت إننى فى انتظار رد من عمان .

وقال لى عبد الناصر : لقد جاءك الرد . خذ .

وأعطانى برقية رمزية (بالشيفرة) مرسلة من المقاومة فى عمان إلى الإذاعات الفلسطينية وقد التقطتها إذاعة القاهرة . وجاء فى هذه البرقية ما معناه : لا تخضعوا . لا تقبلوا محاولات التمويه . قولوا وجهة نظركم . لا تتراجعوا . شددوا الحملة . . . إلخ .

وقال لى عبد الناصر : ما رأيك ؟

أجبته : لا أعرف . هذا موقف غريب .

والتفت عبد الناصر إلى شعراوى جمعة وقال له : بأسف شديد إننى مضطر لوقف هذه الإذاعات عن البث .

وكان عندئذ فى غاية التأثر لأن الفلسطينيين الذين يعتبرهم شركاءه فى الساحة يضطرونه إلى إصدار مثل هذا القرار .

وبالنسبة إلى الثورة التى قامت فى السودان أتذكر أنه كان سعيداً جداً بها واعتبر أنها تحول أساسى بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وأنها نوع من إعادة الاعتبار إلى حركة القومية العربية التى كانت مضروبة .

ثم قامت الثورة فى ليبيا وكان تقديره أن دورها أضخم وأهم .

وعندما قامت الثورة الليبية كان مؤتمر لدول المواجهة منعقد فى القاهرة . وقد شدت أخبار ليبيا جمال عبد الناصر . وكنت احيطه أولا بأول بالأخبار التى تأتى معتمداً فى ذلك على أجهزة الاستماع فى « الأهرام » . ولقد فرح جداً عندما شرحت له استنتاجى بالنسبة إلى الاتجاه الحقيقى للثورة . وهذا الاتجاه تمثل فى الشعارات التى أطلقتها الثورة منذ الساعات الأولى وأبرزها على الإطلاق شعار : الحرية ، الاشتراكية ، الوحدة . وهو الشعار نفسه لثورة ٢٣ يوليو .

وبعد ذلك طلب منى عبد الناصر أن أتوجه إلى ليبيا . وسافرت وقابلت معمر القذافى وأعضاء مجلس الثورة . ثم عدت لأنقل إليه الصورة كاملة .

فؤاد مطر : فى ٢١ فبراير (شباط) ١٩٦٥ أعلن عبد الناصر فى خطاب هاجم فيه ألمانيا الغربية لتسليحها إسرائيل « إن هذا العام — أى عام ١٩٦٥ — أهم سنوات النضال العربى » .

لماذا وعلى أى أساس كان تقييمه لذلك العام ؟

محمد حسنين هيكل :

لو حاولنا حصر الأحداث السائدة فى تلك الفترة لربما وجدنا فيها الجواب .

بعدما وصل الجيش المصرى إلى جنوب شبه الجزيرة العربية ، موطن منابع النفط محدثاً صدمة للمصالح والشركات الأجنبية والاحتكارية ، بدأت قوى عالمية ضخمة تعمل بهدف تحويل التفاعلات الاجتماعية العربية إلى حرب أهلية عربية . وفى وقت من الأوقات حينما لم يفلح ذلك جعلوها حرباً عربية - أجنبية ، فكانت الأموال تدفع من الأميركان والفرنسيين والألمان والإنكليز لمحاربة الجيش المصرى . وانساقت الأمة العربية سنوات فى هذا الصراع الدموى حتى شدتها الحوادث . وفوجئ جمال عبد الناصر بنتائج اجتماع لرؤساء الأركان العرب عقد عام ١٩٦٣ . وظهر من هذا الاجتماع أن الأمة العربية فى حالة لا تمكنها من مواجهة إسرائيل . وفى ضوء ذلك وجه عبد الناصر الدعوة إلى مؤتمر قمة عربى فى القاهرة عقد فى يناير (كانون الثانى) ١٩٦٤ وغرضه اتخاذ موقف موحد فى التصدى لإسرائيل التى كانت بدأت العمل فى تحويل مياه نهر الأردن . والتصدى يكون باستحداث مشاريع عربية للاستفادة من مياه نهر الأردن وعرقلة المشاريع الإسرائيلية ، ثم إنشاء قيادة عربية موحدة تعمل وتخطط لاحتمال وقوع الصدام العسكرى مع إسرائيل . وكان يمكن بعد مجئ الملك سعود إلى القاهرة للاشتراك فى القمة واجتماعه بعبد الناصر أن تمهد السبل أمام حل مشكلة اليمن لو لم تكن هنالك أطراف تسعى إلى استمرار المشكلة اليمنية لأنها مستفيدة من ذلك . لكن عدم التوصل إلى حل لا يعنى أن غرض قمة القاهرة التى دعا إليها عبد الناصر لم يتحقق .

إذاً ، كانت القمة حدثاً مهماً من أحداث العام ١٩٦٤ .

ثم هنالك خطة التنمية فى مصر التى أنجزت فى العام نفسه . وكانت الخطة بشهادة البنك الدولى وصندوق النقد الدولى ناجحة حيث أن مصر حققت من خلال الخطة نسبة نمو صافية مقدارها ٧,٦ من ١٠ فى المئة . وهى نسبة عالية جداً .

وفى ١٥ مايو (آيار) ١٩٦٤ تمت المرحلة الأولى من بناء السد العالى وجاء خروشوف إلى القاهرة ليشارك فى الاحتفال الذى أقيم لهذا الغرض . وحضر أيضاً الاحتفال الرئيس العراقى عبد السلام عارف والرئيس الجزائرى أحمد بن بيللا .

وأنا فى استمرار من الذين يرون أن العراق والجزائر هما جناحا النسر فى العالم العربى . أى أننا إذا تصورنا العالم العربى بشكل نسر على الخريطة فإن العراق يشكل الجناح الشرقى ، وتشكل الجزائر الجناح الغربى .

وفى مايو (آيار) ١٩٦٤ أيضاً عقد فى مصر مؤتمر قمة للدول الأفريقية . أفريقيا كلها اجتمعت فى مصر واتخذت أول قرار خطير حيث أنها اعتبرت إسرائيل مثل روديسيا استعماراً استيطانياً .

وفى سبتمبر (أيلول) ١٩٦٤ عقد مؤتمر القمة العربى الثانى فى الإسكندرية لمتابعة تنفيذ مقررات مؤتمر القمة العربى الأول .

وفى أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٤ عقد فى القاهرة مؤتمر قمة لرؤساء دول عدم الانحياز .

إذاً ، كان العام ١٩٦٤ عاماً عربياً استثنائياً . العالم العربى اجتمع مرتين فى القاهرة على مستوى قمة . خروشوف جاء إلى القاهرة وهى الزيارة الأولى التى قام بها الرجل الأول فى الاتحاد السوفياتى إلى بلد عربى . العراق والجزائر شكلا نوعاً من التجمع الثورى حول مصر . التنمية حققت نجاحاً بارزاً فى مصر . أفريقيا كلها فى مصر واتخذت قراراً مهماً ضد إسرائيل . دول عدم الإنحياز عقدت مؤتمر قمة لها فى القاهرة . مؤتمرا القمة الأول والثانى لم يحلا التناقضات العربية لكنهما على الأقل جمدا حدة الصراع العربى والحرب بين العرب . والمؤتمران أيضاً حققا للمرة الأولى نوعاً من التضامن العربى فى وجه إسرائيل . والمؤتمران أنجزا أمراً مهماً على صعيد المواجهة وهو إنشاء القيادة العربية الموحدة للتنسيق بين الجيوش العربية وتوحيد صفقات السلاح ورفع كفاية الجيوش العربية ، وفى الوقت نفسه التقليل من قدرة إسرائيل فى الحصول على ما تريده من سلاح . وفى تلك الفترة كان ذلك ممكناً حيث أن بريطانيا بعد حرب السويس قللت نسبة ما تعطيه لإسرائيل ، والضغط على فرنسا أثمر لأن الجنرال ديغول أوقف العلاقة الخاصة التى كانت تربط إسرائيل بفرنسا ، وأمر بإخراج مندوب وزارة الدفاع الإسرائيلية الذى كان يقيم فى وزارة الدفاع الفرنسية . وكان ذلك أمراً فى منتهى الأهمية حيث أن فرنسا كانت المصدر الأساسى لتسليح إسرائيل وهى التى أعادت بناء السلاح الجوى الإسرائيلى بعد حرب السويس بطائرات الميراج والميستير التى كانت

السلاح الأساسي في حرب ١٩٦٧ بالإضافة إلى أن فرنسا هي التي كانت تساعد إسرائيل في بناء المفاعل الذري لإسرائيل في ديمونا .

ولم يبق أمام إسرائيل كمصدر سلاح سوى أميركا لكن أميركا كانت مترددة بسبب مصالحها البترولية في إعطاء إسرائيل مباشرة السلاح الذي تريده . أعطتها صفقة صواريخ هوك لكن هذه الصواريخ سلاح دفاعي . وكان عبد الناصر يرى أن الولايات المتحدة في قدرتها أن تعطي إسرائيل ما تريده لكنها بذلك ستكشف نفسها أمام العالم العربي وتؤكد أن هنالك صلة عضوية بينها وبين إسرائيل وهذا من شأنه أن يؤثر على مصالحها وبالذات على مصالح شركات النفط . وكان عبد الناصر يرى أيضاً أنه إذا فعلت أميركا ذلك يصبح بالتالي ممكناً تحقيق الربط في الإضرار بمصالحها . وبسبب خوف أميركا على هذه المصالح فإنها لم تعط إسرائيل مباشرة إنما أعطتها بالتحايل . أقحمت ألمانيا الغربية في الأمر ، وفي الوقت نفسه بدأت عملية محاصرة لمصر بالإكثار من الحديث عن إنتاج الصواريخ في مصر وضرورة التفتيش عن المفاعلات الذرية في مصر وضرورة وقف إنتاج الطائرة المقاتلة « القاهرة ١٠٠ » و « القاهرة ٢٠٠ » و « القاهرة ٣٠٠ » التي كانت مصر تعمل في سبيل إنتاجها .

إلى ذلك ، بدأت القوى التي كانت تحاول التحرش بمصر وتحاول اصطيادها في شبه الجزيرة العربية مستخدمة المرتزقة الألمان والانكليز — بدأت هذه القوى تنتقل إلى مواجهة مباشرة .

وهكذا بدت مصر عام ١٩٦٤ بمثابة القلب النابض ليس فقط للأمة العربية إنما لكل حركة ثورية وطنية في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية . ولعل عبد الناصر افترض أن رد الفعل على ذلك كله سيكون شرساً فقال إن العام ١٩٦٥ هو أهم سنوات النضال العربي . وكان قوله قراءة متأنية للفعل ورد الفعل .

فؤاد مطر : هل تعتقد أن قرارات مؤتمر القمة العربي الأول في القاهرة ومؤتمر القمة العربي الثاني في الإسكندرية عام ١٩٦٤ ، وبالذات قرار البدء فوراً بمشاريع تحويل مياه نهر الأردن وإنشاء القيادة العربية الموحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية ، كانت المنطلق للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية لتنفيذ ضربتها في ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ؟

محمد حسنين هيكل :

رأيي أن إسرائيل بدأت تعد لحرب ١٩٦٧ بعد حرب السويس . وفى كلمة ألقاها موشى دايان عام ١٩٥٧ فى افتتاح كلية عليا للطيران قال إن الحرب المقبلة ستكون حرباً جوية فى الدرجة الأولى تبدأ بضربة جوية .

وكان دايان شارك فى حرب السويس واستوعب درس تلك الحرب .

لماذا بدأت إسرائيل تعد لحرب منذ العام ١٩٥٧ ؟

وجهة نظرى فى هذا الأمر أن مصر خرجت من حرب السويس منتصرة . ذلك أن دولة تخوض حرباً تعتبر منتصرة إن هى استطاعت تحقيق هدفها من استعمال القوة المسلحة أو استطاعت حرمان عدوها من تحقيق هدفه فى استعمال قوته المسلحة . إن الحرب ليست مباراة . وهدف حرب ١٩٥٦ كان القناة . عبد الناصر قال إن القناة لمصر . والإنكليز والفرنسيون وغيرهم قالوا إن القناة لهم . يعنى أن من تستقر فى يده القناة يكون المنتصر . ومادامت القنـــاة استقرت فى يد مصر فإن مصر هى التى انتصرت فى الحرب . وكان انتصاراً مدوياً وأحدث ردود فعل دولية وعربية وأفريقية . ولولا ذلك الانتصار لما كانت حدثت تلك الإنطلاقة العربية بعد ذلك . ولما كانت حركة القومية والثورة العربية امتدت بالشكل الذى امتدت فيه . ولما كانت معظم الدول العربية استقلت .

وبصرف النظر عن النكسات التى حدثت فى تلك الفترة فإنه كان من الواضح أن المنطقة تشهد انطلاقة فى منتهى الأهمية . وهذه الإنطلاقة التى قادها عبد الناصر لم تكن حركة سياسية فقط ، إنما حركة اجتماعية تستهدف بمحتواها التحررى تغيير نوعية الإنسان العربى . وهذا التحدى لإسرائيل لا يمكن أن تسلم به لأنها تعيش على تخلف الكم المحيط بها .

ومن الطبيعى إذاً أن تكون إسرائيل بدأت الإعداد لعدوان ١٩٦٧ منذ أن هزمت مع بريطانيا وفرنسا فى حرب السويس عام ١٩٥٦ . فالحرب لا يفجرها بالضرورة موقف واحد . ومنذ انتصار عبد الناصر فى حرب السويس تجمعت مواقف عدة كان آخرها ما اتخذ من قرارات فى القمة العربية الأولى ثم القمة العربية الثانية عام ١٩٦٤ .

الفصل الثامن

الحرمان والممتلكات ومراحل التوتر

فؤاد مطر : إن العالم يعرف عن جمال عبد الناصر السياسى أكثر مما يعرف عن النواحى الإنسانية والشخصية فيه . هل يمكن تقديم الجانب غير السياسى من عبد الناصر بالإجابة عن الأسئلة الآتية :

– ما هى الهدايا التى كان يتقبلها عبد الناصر ؟

– هل كان يصلى ويصوم وما هى المساجد التى كانت محببة إلى قلبه ؟

– ما نوع الكتب التى كان يقرأها وكيف كان يحصل عليها ؟

– كم ساعة كان يقرأ فى اليوم وما هى الساعات المفضلة للقراءة عنده ؟

– هل كان يتناول حبة مهدئة قبل أن يلقى خطاباً أو عندما يكون فى صدد اتخاذ قرار تاريخى ؟

– ألا تعتقد أن الإكثار من تناول العقاقير أثر على صحته ؟

– ما هى المآكل التى كان يفضلها ؟

– كيف كان يعامل أطباءه . هل كان يرضخ لتعليماتهم ؟

– كم سيجارة كان يدخن . هل دخن غير السجائر . وهل كان التدخين يريحه . وماذا كانت مشاعره بعدما أوقف التدخين ؟

– ما نوع الأفلام السينمائية التى كانت تستهويه ؟

– هل كانت له شلة يرتاح إلى الجلوس مع أفرادها كلما سنحت له الفرص ؟

– كيف تصرف ، وكيف كانت مشاعره ، عندما زوج ابنته الأولى ، وعندما أصبح جداً ؟

– هل كان يتذكر أصدقاءه القدامى ويحل مشاكلهم ؟

– هل كان ضعيفاً أمام أمر ما شأنه فى ذلك شأن كل إنسان ؟

محمد حسنين هيكل :

ذات يوم تلقى جمال عبد الناصر من أحد الحكام العرب حقيبة كبيرة ملأى بالمجوهرات والتحف . ومن دون ضجيج ومن دون أن يشعر أحد بذلك أعاد الحقيبة

إلى الحاكم العربى . وكانت الهدايا التى يتقبلها هى ربطات العنق وكنا نغير عليها ، وصناديق السيجار التى يرسلها إليه كاسترو وكنت آخذها منه ، وصناديق الكرز والتفاح والبشملة (اكى دنيا) التى تأتيه من لبنان .

وبمقدار ما كان مؤمناً ، فإنه كان منفتحاً ، أى أنه لم يكن متزمتاً فى مسألة الدين ولا متاجراً بها . وكان مسجد الإمام الحسين والجامع الأزهر فى القاهرة من المساجد المحببة إلى قلبه .

وفى الرئاسة أنشأ مكتبة كبيرة تضم مئات الكتب . وكان هنالك جهاز خاص يشرف عليه أستاذ من الجامعة مهمته تلخيص الكتب . وأحياناً يفضل قراءة بعض الكتب كاملة بعد أن يطلع على الملخص الذى أعدوه له .

فى فترة الصباح كان يقرأ الصحف المصرية قبل أو بعد الإطلاع على أوراق الدولة وإعطاء التعليمات . وبعد الظهر تكون وصلت الصحف اللبنانية والأجنبية فيقرأها بعناية . ومن حين إلى آخر كان يعقد جلسات يحضرها البعض وكان يسميها « جلسة الفلسفات » . ولا أعتقد أنه كان يتناول العقاقير والحبوب المنومة والمهدئة قبل ١٩٦٧ . ولم يكن فى حاجة إلى حبة مهدئة قبل أن يلقى خطاباً أو يتخذ قراراً تاريخياً . فى استمرار كان يتوجه لإلقاء الخطاب وهو متحفز . أذاً لا أعتقد أن صحته ساءت من تناوله العقاقير .

مسألة الأكل عنده مسألة . دائماً يفضل الجبنة المصرية البيضاء والجرجير والخيار والطماطم . وعندما يبالغ فى مسألة الأكل فإنه يأكل الرز والخضر .

وكنا نضيق بذلك عندما نرافقه فى رحلات أو زيارات رسمية . وفى إحدى الزيارات إلى الاتحاد السوفياتى كانت على مائدة العشاء الذى أقامته القيادة السوفياتية أنواع من الأطعمة الفاخرة بالإضافة إلى الكافيار . ولاحظت كيف أن عبد الناصر كان يأكل بشكل رمزى . وبعدما عدنا إلى بيت الضيافة دخل عليه أحد المرافقين وبيده صينية وضعت عليها أطباق الجبنة والجرجير والطماطم التى أعدت سلفاً قبل مغادرة القاهرة . وتعشى عبد الناصر فى غرفته ونام .

لم يحدث أن نفذ تعليمات أطبائه لأكثر من يومين . وكان طبيبه الدكتور منصور فايز يتعمد أحياناً تخويفه بتضخيم دقة الوضع الصحى على أمل أن يرضخ للتعليمات . لكنه كان بعد أن يسمع طبيبه يتحدث يحدق فيه لبعض الوقت كما لو أنه يريد أن يقول له أنه كشف المناورة .

وعندما أوقف التدخين اعتبر أنه حرم من الشقاوة الوحيدة والمتعة الوحيدة . وكان يدخن أربعين سيجارة يومياً . ولم يدخن غير السجائر .

كان يشاهد أحياناً ثلاثة أفلام سينمائية فى الليلة الواحدة . اهتم لفترة بالأفلام الأميركية . ثم استهوته الأفلام الإيطالية والأفلام الهندية .

شلته مؤلفة من بعض رفاقه أعضاء مجلس الثورة . وأحاديث الشلة لم تكن سياسية . كانوا يتحدثون فى الذكريات وفى الآمال المشتركة . وكنت أحرص فى استمرار على التحدث معه فى الشعر والأدب والتاريخ والموسيقى . . . أشياء لا علاقة لها بأعمال الدولة لكى أفتح أمامه أبواباً لا تضعها الظروف أمامه .

ويوم قالت له ابنته هدى أنها تريد مكاشفته فى أمر مهم حدد لها موعداً . وفى مكتبه استجمعت شجاعتها وقالت له إنها تشعر أن زميلها فى الجامعة حاتم صادق قريب منها وأنها تريد أن تعرف إذا كان يمانع فى أن يتقدم لخطبتها .

بعد ذلك اتصل بى وشعرت أنه مفاجأ وحائر . وقد يكون ذلك نابعاً من أنه واجه مثل هذا الأمر للمرة الأولى وأن هنالك من سيتزوج ابنته هدى التى تعنى الكثير بالنسبة إليه . فجأة اختلطت مشاعر الأب بمشاعر الصعيدى . ولم يتأقلم مع الفكرة إلا بعد بضعة أيام .

وكان سعيداً جداً عندما أصبحت له حفيدة . وعندما كثر الأحفاد ازدادت سعادته .

وكثيرون لا يعرفون عدد الأصدقاء القدامى الذين كانوا يأتون إليه فى استمرار ويحل مشاكلهم . وحدث مرة وهو فى المنيا (الصعيد) أن لمح أحدهم يلوح بيديه . وتذكر أنه الشاويش الذى كان معه فى فلسطين . وتوقف موكب عبد الناصر وأرسل وراء الشاويش ليتحدث معه .

وكان جمال عبد الناصر ضعيفاً جداً أمام الضباط الأحرار وأمام الذين أبلوا فى حرب السويس عام ١٩٦٥ .

وكان يتقبل مشاكل الضباط الأحرار ووجهات نظرهم . ولو أن أحداً غيرهم عرض هذه المشاكل ووجهات النظر لما كان ربما تقبلها .

. . . وكان نموذجياً فى كل شئ . ومثالياً فى كل شئ . رافضاً الترف . رافضاً التملك . غير قابل للفساد الشخصى . سعيداً بأن مجتمعاً جديداً بدأ فى مصر .

فؤاد مطر : ما هى ممتلكات عبد الناصر ؟

محمد حسنين هيكل :

كل ممتلكاته كانت عبارة عن أشياء شخصية . ثلاث أو أربع كاميرات تصوير جاءته هدية . ثلاث أو أربع آلات سينما جاءته أيضاً هدية . نحو عشر بدلات وسبعة أو ثمانية أزواج أحذية كان يحرص على استعمال اثنين منها لأنهما كانا يريحان قدميه . نحو مئتي ربطة عنق معظمها هدايا من الزعماء اللبنانيين . سيارة واحدة وقديمة من نوع « أوستن » فكر مرة فى أن يبيعها وكان من رأيى الاحتفاظ بها . وهى إما بيعت أو أنها فى الجراج . لا بيت له لأنه ضد التملك . و لا سيارات له . ولا عقارات له . ولم يترك أموالا أو أطياناً .

فؤاد مطر : ولكن ألا تعتقد أن ما حرمه على نفسه قد يكون حلله لأولاده بحيث سمح بأن يتملكوا ؟

محمد حسنين هيكل :

إننى أتكلم عنه شخصياً . إن جمال عبد الناصر لم يورث أحداً من أولاده شيئاً . وعلى حد علمى أن أحداً من الأولاد لا يملك عقاراً باسمه . أما إذا كانت لابنته الكبرى هدى قطعة أرض فاعتقادى أنها لزوجها حاتم صادق ورثها عن والده. الذى يهمنى هو أن عبد الناصر لم يملك ولم يترك شيئاً ليتقاسمه الورثة . أما إذا تملك أولاده بعد ذلك فهذا لا يهمنى .

فؤاد مطر : من أين ينبع رفض عبد الناصر للتملك ؟

محمد حسنين هيكل :

كان جمال عبد الناصر يتصور أن الملكية موقف اجتماعى ، ومع أنه لا اعتراض لديه على تملك الناس إلا أن هذا الاعتراض كان قائماً بالنسبة إلى شخصه . وكان يرى أن التملك لا يتمشى ووضعه كمسؤول عن التحول الاجتماعى فى مصر . يضاف إلى ذلك أنه كان يرى أن التملك لا حدود له وأنه كلما تملك الشخص شعر برغبة الاستزادة فى التملك .

وكان عبد الناصر يخاف بالفعل التملك ولا يريد أن يملك ابتداء ولا أن يملك استمراراً . وكان مقتنعاً بأن التملك بالنسبة إلى مسؤول يؤثر على رؤيته الاجتماعية . ومن هنا جاء حرصه على أن يكون أعضاء التنظيم الطليعى من غير المالكين لئلا تصطدم مصالحهم بالهدف المطلوب من التنظيم وهو تذويب الفوارق بين الطبقات .

فؤاد مطر : هل اتصالاتك مستمرة بعائلة الرئيس جمال عبد الناصر كما فى الماضى . وهل تستشيرك العائلة فى شئ . وهل ترك عبد الناصر وصية لعائلته بالرجوع إليك فى أى أمر أو مشكلة ؟

محمد حسنين هيكل :

من الطبيعى جداً أن تستمر اتصالاتى بعائلة عبد الناصر فأنا صديق لهذه العائلة . أما أن لعبد الناصر وصية لعائلته بأن تستشيرنى فى أمورها فذلك ادعاء من جانبى لا لزوم للحديث عنه .

لكن الذى أعتقده أن كل أفراد عائلة عبد الناصر يعرفون صلتى به ويعرفون مدى صداقتى له . وتبعاً لذلك فمن الطبيعى أن أكون أحد الناس الذى يعتقد أفراد العائلة أنهم يريدون التحدث إليهم .

وعائلة جمال عبد الناصر لها حق على كل إنسان عربى لأن رجلها استشهد فى الساحة القومية . إن جمال عبد الناصر لم يعرف لذة الحياة . لا لذة السفر . ولا لذة الحياة العائلية . حتى مجده لم يستمتع به .

هل تعرف كيف كان يعود كل مرة يظهر فيها وسط الجماهير ؟

كان يعود وبدلته مقطعة . كان يعود وآثار أظافر الناس على يديه . وأحياناً كانت خربشة الناس ليديه تتسبب فى تدمية اليدين . أى مواطن عندما كانت تتسنى له رؤيته من قريب يندفع نحوه فى حالة هيستيريا و لا يهمه ما الذى يجرى . يقبله . وينسى هذا المواطن نفسه فيتعلق بعبد الناصر ويشده من وسطه إلى درجة أن عبدالناصر يشعر أن وسطه انكسر . وكثيراً جداً ما حدث ذلك . وكثيراً جداً ما شاهدت عبد الناصر فى حالة صعبة بعد لقاء جماهيرى حاشد وقد تمزقت بدلته وتخربشت يداه من أثر المصافحات والتقبيل والشد على الأيدى .

لم يشعر بأى لذة فى حياته . نعم هذا صحيح . لم يشعر بلذة النوم ، أو بلذة الأكل ، أو بلذة السفر . . . ولا حتى بلذة مشاهدة أولاده لأنه كان طوال الوقت يعمل . متعته الوحيدة — إذا كانت هذه تعتبر متعة — هى أنه كان يشاهد فى منزله ثلاثة أفلام سينمائية فى ليلة واحدة وبشكل متلاحق ، فيلماً بعد الآخر . هو كان يعتبر ذلك متعة وأنا كنت أعتبر هذه المتعة عذاباً حقيقياً . وعندما كان يطلب منى مشاركته فى مشاهدة الأفلام كنت أصاب بصداع بعد الفيلم الأول . لم أكن أحب مثل هذه المتعة ولكننى كنت أجلس إلى جانبه ونشاهد الأفلام الثلاثة فى سهرة واحدة.

وكان جمال عبد الناصر يعتقد أنه ملاحق فى كل مكان وأن حياته محصورة فى ثلاثة أماكن : إما فى مكتبه أو منزله يعمل ، وإما فى سجن القلعة إذا حدث أمر ما . وإمافى القبر . وكان يقول أحياناً : هم التلاتة مفيش غيرهم . يا البيت . يا القلعة . يا التربة.

ولقد حدث وسافر . زار أميركا مثلا . وما رآه فى أميركا كان الطريق بين مقر إقامته ومقر الأمم المتحدة . كان فى تصوره عندما زار أميركا أنه سيتفرج عليها لكنه لم يشاهد إلا ذلك الطريق الذى كان يسير عليه مخفوراً . نعم كان يقطع هذا الطريق بين « لونغ إيلاند » حيث مقر إقامته ومبنى الأمم المتحدة مخفوراً وتحت حراسة مشددة لأن الإسرائيليين كانوا أطلقوا تهديدات وقاموا بتظاهرات . وعاد من أميركا من دون أن يتفرج عليها باستثناء مطار نيويورك والبيت الذى حل فيه فى « لونغ إيلاند » ومقر الأمم المتحدة والطريق بين البيت ومقر المنظمة الدولية . وباستثناء الاتحاد السوفياتى ويوغوسلافيا والهند لم ير عبد الناصر من العالم الخارجى شيئاً .

أحياناً عندما نأتى على ذكر لندن أو باريس أو روما فى جلسة كان يقول إنه لن يشاهد أياً من هذه المدن . وكنت عندما أعود من زيارة فرنسا أو بريطانيا مثلا وأحكى له عنهما يقول إنه لن يراهما أبداً . وكان زاهداً فى ذلك ويقول إنه يشاهد هذه الدول فى الأفلام التى يتسلى بعرضها وهو فى البيت . وكان مدركاً أنه لن يزور دول العالم كسائر الرؤساء .

ويوم نصحوه بممارسة الرياضة وجئ له بلعبة « البولينغ » ووضعت فى منزله كان سعيداً بأنه اكتشف شيئاً جديداً . تصور ، اكتشف لعبة « البولينغ » .

فؤاد مطر : يقال إن جمال عبد الناصر وضع أموالا فى الخارج . وإن من الأسباب التى دفعته إلى ذلك هو أنه فى حال حصول مؤامرة عليه تكون لديه أو لدى جماعاته الأموال لمواجهة المتآمرين من أجل إعادة الثورة . ما رأيك فى ذلك ؟

محمد حسنين هيكل :

لو أن جمال عبد الناصر فكر بالثروة لما كان عمل بالطريقة التى عمل بها . إن فكر عبد الناصر ومنطقه العقائدى يتنافيان مع هذه الأقاويل . عبد الناصر مات من كثرة العمل . ولو كان يفكر بالثروة والترف لكانت ممارساته مختلفة . بعد تأميم القناة

وانتصاره فى السويس تأمن له مجد لا يطاوله مجد . وكان فى استطاعته أن يخلد إلى الترف والحياة السعيدة . لكنه دخل فى التصنيع . وفى بناء السد العالى . وفى تحقيق الوحدة مع سوريا . وفى بناء الصناعات الثقيلة . وفى التخطيط . وفى بناء جيش قوى . ودخل فى مواجهات مع الدول الكبرى . مع أميركا وانكلترا وفرنسا . . . وحتى مع الاتحاد السوفياتى . ولو كان يبحث عن الترف وملذات الحياة لما كان اختار كل هذه الأمور ، ولكان جلس يتمتع بالحياة متربعاً على أمجاده الناشئةعن تأميم القناة وانتصاره فى السويس .

بالإضافة إلى ذلك لو أن الثروة كانت من أهداف عبد الناصر لما كان تجرأ بـ « العين المليانة » على التصدى للأغنياء ، ولما كان اقتص منهم وعمل ليكون اشتراكياً . ولو أن الثروة كانت من أهدافه لما كان وقف بجرأة وبشجاعة ووزع ثروات الأغنياء على الشعب .

ثم إن جمال عبد الناصر كان يدرك تماماً أنه ملاحق طوال عمره . ولم يفكر أبداً بأن يكون ذات يوم لاجئاً سياسياً . وأذكر أنه فى ذروة العدوان الثلاثى وعمليات الإنزال التى حدثت قال لى يوماً : سننزل تحت الأرض ونؤلف مقاومة سرية إذا اقتضى الأمر . هل أنت مستعد للمشاركة فى هذه المقاومة والنزول معنا ؟

قلت : طبعاً مستعد .

وأذكر أيضاً أننى ذهبت بعد هذا الحديث إلى زوجتى وأطلعتها على مسألة المقاومة السرية وأوضحت لها وضعى المالى .

ماذا يعنى ذلك ؟

يعنى أن عبد الناصر ليس من النوع الذى يمكن أن يهرب ليعيش لاجئاً سياسياً فى الخارج بأموال تم تهريبها .

لقد كان عبد الناصر ملاحقاً . فلن يتركه الإسرائيليون . كذلك لن يتركه الاستعمار . سيكون مهدداً أينما وجد .

وتبقى قناعة كانت لعبد الناصر هى أن ليس له سوى مصر يعيش أو يموت فيها .

إننى أؤكد قاطعاً أنه ليس لعبد الناصر أو أحد من أفراد عائلته مليم واحد فى الخارج .

ثم هل تعلم أن عائلة عبد الناصر تعيش على المرتب الذى كان الرئيس السادات طالب به فى مجلس الأمة وهو ٥٠٠ جنيه مضافاً إليه مبلغ ٢٥٠ جنيهاً بدل تمثيل . نعم إن عائلة جمال عبد الناصر تعيش من هذا المرتب فقط البالغ ٧٥٠ جنيهاً شهرياً .

إن الذين يثيرون مسألة الثروة هم خصوم عبد الناصر لأننا لا نريد استعمال كلمة أعداء . ومن حق هؤلاء أن يهاجموا سياسة عبد الناصر وأفكاره ، ولكن من غير اللائق التجريح برجل كان مسلكه الشخصى طوال حياته فوق الشبهات . وليس فى استطاعة أحد مس مسلكية عبد الناصر لأنه كان قاسياً على نفسه حرصاً على هذه المسلكية .

إن غرفة نوم جمال عبد الناصر أقل شأناً بكثير من غرفة نوم أى منا . وعندما بطنوا له سريره بالجلد اعتبر أن ذلك نوع من أنواع الترف . كانت غرفة نوم عبد الناصر عادية جداً . سرير وكنبتان وأوراق . كانت ملأى بالأوراق والدوسيهات مع أنه كان يستطيع أن يعيش فى أفخم القصور . كان عفيفاً جداً وطلباته من الدنيا محدودة جداً . هل تعرف أنه كان سعيداً بأن عنده عشرين أو ثلاثين زجاجة كولونيا جاءته كهدايا وكان يعبر عن سعادته عندما يقول : بص شوف دى . وشوف دى . . .

فؤاد مطر : المعروف أنك كنت الأقرب إلى جمال عبد الناصر .
لكن قليلين جداً يعرفون أن العلاقة بينه وبينك شهدت مراحل متوترة .
هل يمكن أن تروى شيئاً عن تلك المراحل ؟

محمد حسنين هيكل :
لقد كنت قريباً من عبد الناصر . وكانت بيننا صداقة وثقة . وكانت العلاقة من نوع متميز بين شخص يقود وشخص إلى جانبه يتكلم أو يفكر وحرص فى استمرار على أن يبتعد عن المناصب والأوضاع الرسمية . ولقد كنت دائماً متمسكاً بالصحافة والكتابة وأفضلها على أى منصب رسمى . ولقد ذكرت ذلك لعبد الناصر مرات عدة . قلت له اننى أفضل الاحتفاظ بصفة الصديق الذى يتحدث إليك فى استمرار من دون وساوس ومن دون إحراج . وأعتقد أننى مارست ذلك مع جمال عبد الناصر .

وكانت العلاقة بيننا من قبل الثورة حتى ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٠ علاقة حوار مستمر . وأعتقد أن ثقته الكاملة بى هى التى شجعت ذلك . وأحياناً كان يضيق بهذا الجدل لكنه كان يسمع فى استمرار ويناقش فى استمرار . وعندما كان يشعر بالضيق أحياناً فلأن كلامى كان فى اعتقاده يسبب نوعاً من الإحراج لأطراف أخرى . وعلى سبيل المثال انه كان يشعر بهذا الضيق وأنا أكتب عن البيروقراطية المصرية أو أناقش فيها . وسر شعوره بالضيق أن الكلام الذى أكتبه يشكل إحراجاً

لوزراء يعملون معه . وعندما كنت أنتقد الاتحاد الاشتراكى لم يكن يتضايق إلا أنه كان يشعر أن بعض معاونيه يمكن أن يضيقوا بهذا النقد . وكان يأخذ فى الاعتبار مشاعر الذين يعملون معه .

وكتبت الكثير حول قضايا يمكن لولا الثقة التى بيننا أن يتضايق لأننى أثيرها . وعلى سبيل المثال لا الحصر كتبت عن ضرورة اندماج المثقفين بالثورة والنظام لينتهى دور أهل الثقة ، وبحيث يصبح أهل الخبرة هم أهل الثقة ، خصوصاً بعدما وضع التخطيط موضع التنفيذ وأصبح يحتاج إلى أهل خبرة . وكتبت أنه لا بد أن يقوم أهل الخبرة وأهل الثقة فى الوقت نفسه بتوسيع دائرة معارف عبد الناصر ونظامه . وناديت بالمجتمع المفتوح وبالديموقراطية وكتبت ضد الدور المتجاوز لبعض أجهزة السلطة وفى مقدمها المخابرات . وكتبت فى موضوع الحراسات وضرورة أن يظل الهدف هو تصفية امتيازات الطبقة وليس أفراد الطبقة . وكتبت عن عدوان البيروقراطية التقليدية المتمثلة فى الجهاز الحكومى على البيروقراطية الجديدة التى يمكن أن تكون الأمل ، والمتمثلة فى القطاع العام . وتحدثت عن الصراع بين البيروقراطية القديمة والبيروقراطية الجديدة ودعوت إلى ضرورة أن يلعب التقنيون فى البيروقراطية الجديدة دورهم فى التطوير . وكنت قلقاً وأنا أكتب عن هذا الصراع من أن يطوى أهل البيروقراطية القديمة أهل البيروقراطية الجديدة بدل أن يطور الجدد القدامى . وهذا ما حدث بالفعل حيث أن القدامى بلعوا الجدد .

كانت هذه الكتابات فى وقتها . ولم تجز بأثر رجعى .

وهى تسببت لى فى بعض المشاكل لكن جمال عبد الناصر لم يضق بها .

فؤاد مطر : عندما كنت تكتب ذلك وتوجه تلك النداءات هل كنت تكتب إلى عبد الناصر لكى يقرأ ويعمل بما تقترحه ، أم أنك كنت تتشاور معه فى ذلك ثم تكتب لتمهد له جو إعلان خطوات معينة على هذا الطريق ؟

محمد حسنين هيكل :

الواقع أننى لم أكن أفصل ، بمعنى أننى كنت أكتب ما أتكلم حوله مع عبد الناصر وأتكلم معه بالذات حول ما كنت أكتبه . وحدث أن تناقشنا ساعات فى قضايا

وأراء أطرحها . وكان بيننا اتفاق على ألا نتكلم عن مقالاتى أبداً . ومع ذلك فهنالك كثيرون جداً كانوا يفترضون أننى أذهب إلى عبد الناصر يوم الخميس لآخذ منه أفكاراً لمقالتى التى تنشر يوم الجمعة . وهذا الافتراض أو التصور سبب لى إحراجات كثيرة . لكننى أقطع أن الاتفاق الذى بيننا وهو أن يكون نقاشنا وتبادل الآراء بيننا بمعزل عن المقالة ، كان ينفذ بدقة . والمرات التى تحدثنا فيها عن مقالاتى كانت قليلة جداً . وفى العادة لا يجرى اتصال بيننا يوم الجمعة .

وفى العادة أيضاً أننى أقضى هذا اليوم فى برقاش (حيث لهيكل عزبة متواضعة حجماً أنيقة جداً شكلا) مع عائلتى . لكنه عندما كان يتصل بى يوم الجمعة يكون معنى الاتصال أن هنالك أزمة ما .

وفوجئت فى السابعة مساء يوم جمعة بالرئيس عبد الناصر يتصل بى هاتفياً . وفى ذلك اليوم كانت مقالتى فى « الاهرام » حول التغيير . وفى هذه المقالة كتبت بشىء من الرقة ما معناه أنه إذا لم يستطع النظام أن يغير فلا بد أن يتغير هو .

ومن نبرة صوته شعرت أنه يريد أن يقول لى أمراً ما . ثم قال : هل تريد رأيى فى مقالتك المنشورة اليوم حول التغيير ؟

أجبته : بالطبع .

المقالة مكتوبة بأسلوب غسان توينى فى مواجهة شارل حلو . لكننى أنا لست شارل حلو وآمل ألا تكون أنت غسان توينى .

وانتهت المكالمة عند هذا الحد . وبصفة عامة لم أشعر أن عبد الناصر يضيق بما نكتب فى «الاهرام» لأننا نكتب من موقع الحرص على الثورة ، الصادقين فى هذا الحرص .

ولم أكن وحدى الذى يكتب .....

وأذكر أن توفيق الحكيم كتب مرة قصة طويلة بعنوان « بنك القلق » وسلمها إلى وكنا وقتها فى اجتماع لمجلس إدارة «الاهرام» وقال لى : هذه ليست للنشر . اقرأها فقط .

وقرأت القصة التى تنتقد دور المخابرات المصرية وأساليبها . وبعدما قرأتها قلت لتوفيق الحكيم : إذا كنت لن تنشرها فلماذا كتبتها ؟

أجاب الحكيم : أجل نشرها الآن .

قلت : إن دور المخابرات وأساليبها مشكلة حقيقية . وما دمت أنت وجدت فى نفسك الشجاعة لتكتب فأنا عندى الشجاعة لأنشر .

ونشرنا الحلقة الأولى من القصة ، فقامت الدنيا وقعدت لأننا فعلنا ذلك . ولم يكن عبد الناصر قرأ الحلقة الأولى لكنه بعدما سمع بالضجة التى أثارتها اتصل بى مستوضحاً . وقلت له أنهم يحاولون منعنا من نشر الحلقة الثانية . وفى مكتبه قرأ عبد الناصر الحلقتين الأولى والثانية وكنت حملت إليه الحلقة الثانية التى حاولوا منعنا من نشرها فقال لى : انشروا .

وأضاف : لقد كتب توفيق الحكيم أيام العهد الملكي «يوميات نائب فى الأرياف» وإذا كان يستطيع فى العهد الملكى أن ينقد اجتماعياً ، فإننى أعتقد أن من حقه أن يكتب أى نقد للتجربة .

ونشرنا الحلقة الثانية والثالثة إلى آخر القصة . ورويت لتوفيق الحكيم ما دار من حوار مع عبد الناصر فى هذا الشأن .

وبعد ذلك انتقدنا فى « الاهرام » مراراً تجاوزات المخابرات وأثرنا قضايا أساسية داخل المجتمع المصرى . وعلى سبيل المثال ان لويس عوض أثار فى سلسلة مقالات قضية الثقافة والتعليم بين الكم والكيف ، وأثار جمال العطيفى مرات عدة قضية القانون . وكتب كثيرون غير هؤلاء . كتب حسين فوزى . وكتبت عائشة عبد الرحمن . وكتب لطفى الخولى . كتبوا جميعاً آراء حرة تعرضت للكثير من المشاكل فى الصميم .

فؤاد مطر : تقول أن عبد الناصر لم يكن يضيق بما تكتبه ، وبما تنشره لكتاب آخرين فى «الأهرام» . ولكن ألا ترى أن ذلك يتناقض مع ما جرى لك ولهم ، حيث تعرضت لمحاولة اغتيال ، وقبض على كثيرين من كتاب « الاهرام» ؟

محمد حسنين هيكل :

لقد قلق عبد الناصر لحادثة اطلاق رصاصتين على وأنا نازل من مبنى «الاهرام» القديم فى شارع مظلوم . وأنا رفضت إبلاغ النيابة وتقديم شكوى . وبعدما عرف عبد الناصر التفاصيل سألنى إذا كنت أتهم أحداً ، واستغرب ردى حيث قلت أننى لا أتهم أحداً . وأنا أرى أن ما حدث لى ولزملائى فى « الاهرام » كان ناتجاً عن اصطدامنا مرات عدة ببعض أجهزة السلطة .

إن معظم الكتاب والصحافيين الذين اعتقلوا أيام جمال عبد الناصر كانوا فى «الأهرام» . لطفى الخولى اعتقل . وجمال العطيفى اعتقل . وأحمد نافع ويوسف صباغ وحمدى فؤاد قبض عليهم . وسكرتيرتى نوال المحلاوى قبضوا عليها .

وأكرر أن هذه الاعتقالات بالإضافة إلى حادثة إطلاق رصاصتين على كانت ناتجة عن اصطدامنا مرات عدة بأجهزة السلطة . لكن عبد الناصر كان يأخذ فى الاعتبار الخط الذى نسير عليه فى «الاهرام» . وكنت أعتبر أن «الاهرام» يجب أن يكون لها دور طليعى . وكنا نمارس على أساس أننا ملتزمون بالميثاق من دون أن نفقد الحرية فى الكتابة عن تطبيق الميثاق . وكنت أرى أنه إذا استطاعت «الاهرام» أن تكون طرفاً فى الحوار فإنها بذلك تؤدى دوراً عظيما . وأعتقد أننا نجحنا فى أن نجعل من «الاهرام» طرفاً أساسياً فى الحوار على رغم أن ذلك تسبب لنا فى مشاكل واشكالات . ولم نمارس هذا الدور بحماية من جمال عبد الناصر ، إنما اعتقاداً منا أن عبد الناصر يثق فى « الاهرام » ويرى أننا نعمل من داخل التجربة وننتقد من واقع الالتزام .

فؤاد مطر : كيف كنت تعالج التوتر الذى ينشأ أحياناً بين عبد الناصر وبينك ؟

محمد حسنين هيكل :

ما دام هنالك حوار دائم بين طرفين ، طرف مسئوليته شاملة وطرف لا يملك إلا الفكر والكتابة ، فمن الطبيعى أن تحدث توترات بينهما . وأحياناً كان يحدث نوع من التوتر .

وحالة التوتر المهمة حدثت يوم أصدر عبد الناصر قراراً بتعييني وزيراً . يوم صدور القرار كنت فى «برقاش» . ولقد أصدر القرار من دون أن يفاتحنى مسبقاً بالأمر . وعدت إلى «الاهرام» لمجرد أن بلغنى صدور القرار فوجدت أن هنالك حالة توتر . وبعثت إليه برسالة اعتذار . وهذه الرسالة هى الورقة الوحيدة المكتوبة التى رفعتها إلى عبد الناصر . وعدا ذلك لم أرفع إليه أوراقاً مكتوبة ، لأننى كنت أفضل التعامل معه كصديق .

وكنت فى حالة صعبة من الضيق وقتها بسبب قرار توزيرى . وفى اليوم الثانى جاءنى أنور السادات إلى «برقاش» وكان يوم شم النسيم من العام ١٩٧٠ وصادف يوم اثنين ، فى محاولة لإقناعى بقبول المنصب الوزارى . وبقى معى من التاسعة صباحاً حتى الأولى بعد الظهر . وكانت لفتة كريمة منه خصوصاً أنه فى ذلك اليوم كان مرتبطاً مع ضيوف سيتناولون معه طعام الغداء فى بيته فى الهرم .

وقال لى السادات أن عبد الناصر قال له أن لا مجال لقبول الاعتذار ، وأن المسألة ليست مسألة مفاتحة إنما هى قرار صدر وانتهى الأمر .

ونتيجة لحديثى مع السادات ولأحاديث مع آخرين زارونى وتناقشنا فى أمر التوزير قبلت وعدت إلى القاهرة . ثم حدث أن قبضوا على لطفى الخولى ونوال المحلاوى ، ووجدت أن الموقف يتأزم وأننى فى محنة حقيقية فى بداية عملى فى الوزارة . كنت بالفعل ممزقاً بين قبولى المنصب الوزارى اضطراراً ومحنة أصابت بعض زملائى فى « الأهرام » وجمال عبد الناصر الحريص على مشاعره .

وقبل هذه المحنة حدثت حالة توتر بيننا بسبب اعتقال جمال العطيفى . وأمضينا نحو أسبوع فى شبه قطيعة . هو لم يتصل وأنا لم أتصل . وفى هذه المرة أيضا كان السادات هو المتدخل . كان مع عبد الناصر فى استراحة القناطر الخيرية . ومن هناك اتصل بى هاتفيا وقال : لماذا لا تطلب الرئيس وتصفى الموضوع معه لأنه متضايق . وبعد ذلك اجتمعت بعبد الناصر وصفينا موضوع جمال العطيفى وتم الإفراج عنه . وبالطبع هنالك كثيرون كانوا يتضايقون من هذه الثقة التى وضعها عبد الناصر فى شخصى ، وكيف أننا نناقش الأمور ونتفاهم . وحول مسألة حالات التوتر أتذكر عبارة للسادات قالها لى مرات كثيرة وهى : لولا سلك الهاتف لكانوا أتعبوك كثيراً .

وكان السادات يقصد بذلك ، الهاتف الذى فى مكتبى والمتصل بغرفة نوم عبد الناصر .

وعبر هذا الهاتف جرت مناقشات واستفسارات كثيرة . وكان هذا الهاتف معياراً لحالات التوتر بيننا . أحياناً لا يرن فيكون معنى ذلك أن عبد الناصر متضايق منى . وأحياناً لا أتصل به بسبب حالات من الضيق كانت تنشأ نتيجة حوادث معينة حصلت .

وأشهد أن جمال عبد الناصر كان نموذجاً للرقة فى معالجته لحالات التوتر التى تحدث . وفى استمرار لم يكن يخرج ضيقه عن حدود معينة . وأتذكر أنه مرة كان متضايقاً جداً من أمور كتبتها . وخلال مناقشة عبر الهاتف سألته إذا كان يريد أن أحضر إليه فأجابنى : لا أريد أن أراك وأنا منرفز . نلتقى بعد أن تهدأ الأمور ثم نتفاهم .

وحدثت بيننا أيضا مناقشات مكتومة . ولقد ناقشته باستماتة فى بعض القضايا . وكنت فى مناقشتى أميناً جداً لأننى صادق معه ومعجب به إعجاب المفتح العينين وليس إعجاب الأعمى . معجب به وبما يمثله بحركته وقدرته وطاقاته . معجب به

كرمز وكقضية وكحركة . وهذا الإعجاب والتقدير فرض على واجباً وإخلاصا أن أكون صادقاً معه ، وأن أناقشه بأمانة .

ومن المناقشات المكتومة تلك التى دارت معه حول قرار إقفال خليج العقبة . ولقد كان رأيى الذى ناقشت فى استماتة لإقناعه به هو أن هذا القرار سيقود إلى حرب .

فؤاد مطر : ألم يكن وضعك الاستثنائى يسبب إشكالات لعبد الناصر . ولماذا خصك دون غيرك بزيارة لـ « الأهرام » وهل كانت نوعا من التحدى لأنها جاءت فى أعقاب تساؤلات بين أعضاء الاتحاد الاشتراكى العربى حول هذا الوضع الاستثنائى ؟

محمد حسنين هيكل :

بعدما قامت الثورة كان جمال عبد الناصر على علاقة بعدد كبير من الصحفيين . وفى النهاية وبالاختيار الحر وعن طريق الممارسة ازددت قربا منه ، وهذا أمر أعتز به .

وإذاً ، إن عبد الناصر لم يخصنى بوضع استثنائى إنما ألقى على مسؤولية استثنائية . ولقد فعل ذلك إحساسا منه بأننى أؤدى دوراً فى نظامه .

وأنا تبعاً لذلك لم أحصل على امتيازات على الصعيد المادى . كنت مقيدا أيام عبد الناصر وإلى حين تركت « الأهرام » بالحد الأعلى للمرتبات فى مصر وهو خمسة آلاف جنيه سنوياً من دون أى زيادة . وعندما بنينا « الأهرام » لم نلجأ إطلاقا إلى الدولة لكى نعامل معاملة خاصة أو نستثنى من قانون البنـــاء . وبنينا « الأهرام » فى ظل قانون الشركات المساهمة المصرى . وكان رأيى أننا بهذه الطريقة نقدم نموذجاً جديدا فى إدارة المال العام . و « الأهرام » لم تكن ملكى لكننى كنت أنظر إليها على أنها مسؤوليتى فى العمل العام وأعطيها كل جهدى . وكان قصدى من ذلك معالجة الخلل الناشئ فى مفهوم الملكية الاجتماعية .

كنت أعتبر أن « الأهرام » يجب أن تكون نموذجا فى كل شئ بما فى ذلك الإدارة العلمية . وقد أعجب عبد الناصر بذلك متمنياً لو كانت مؤسسات الدولة كلها تدار بالطريقة التى تدار بها « الأهرام » وبعدما زار عبد الناصر المبنى كان يتحدث فى كل مكان عن « الأهرام » . فى مجلس الوزراء تحدث مرات كثيرة . وكان يقول إنه سعيد جداً لأن مشروعا نجح فى مصر وأنه يتمنى أن تنجح كل المؤسسات كما نجحت « الأهرام » .

عبد الناصر يصور زوجته



ويقف إلى جانبها على سطح باخرة نيلية



يحمل حفيدته وهى المرة الأولى التى التقطت له صورة عبد الناصر أجد



عبد الناصر يتمشى مع العائلة (عام ١٩٦٧) فى استراحة القناطر الخيرية .



عبد الناصر يلعب مع أحد أبنائه بالشطرنج .

وهو زار « الأهرام » مرة واحدة فقط . ولقد جاء ليشاهد هذه التجربة بعدما لاحظ أن معظم صحف العالم كتبت عنها باهتمام . هو طلب أن يزور « الأهرام »، وأنا مع كل فرد من أسرة الدار كنا فى غاية السعادة والاعتزاز بهذه الزيارة .

نأتى إلى أمر آخر ... إلى المقالات . إن كثيرين كانوا يتصورون أن الأفكار التى تتضمنها مقالاتى أو الأخبار والتحليلات التى كانت تنشر فى « الأهرام » كنت أحصل عليها من عبد الناصر . وهذا لم يحدث أبداً . وكان كثيرون يتصورون أن التقارير التى تصل إلى عبد الناصر أطلع عليها ومنها أنتقى الأفكار والمعلومات لأضمنها مقالاتى . وأنا اطلعت على مئات التقارير التى كانت تصل إلى عبد الناصر ومنها تقارير سفراتنا فى الخارج ولم أجد فيها سوى أن الأداء البيروقراطى الموجود على السطح هو الأداء البيروقراطى الموجود فى الداخل .

كنت أرى عبد الناصر فى استمرار وأتناقش معه فى استمرار . وكنت أعيش فى وسط الأحداث ، ولا أنتظر من يعطينى الخبر أو المعلومة . لقد عايشت أحداث التجربة المصرية ساعة بساعة كطرف فى الحوار الدائر فيها ، ولم أكن أمد يدى إلى جيب عبد الناصر لآخذ منه الخبر أو أنتظر منه أن يتصل بى هاتفياً ليقول لى أنه سيخص « الأهرام » بخبر كبير .

كنت دائما إلى جانب عبد الناصر نتعامل من دون وساوس ولا أنتظر نبأ يتعلق بقضية ما لأننى كنت طرف حوار فى هذه القضية . وإذا كان يحدث أن عبد الناصر يطرح فكرة أكون ضمنتها مقالة لى أو شعاراً أطلقته فيها فهذا معناه أن عبد الناصر اقتنع بضرورة طرح الفكرة أو إطلاق الشعار .

وكان كثيرون يتضايقون . وكان بعضهم يقول ما معناه لماذا لم يعطنا عبد الناصر الفكرة الفلانية وخص هيكل لتظهر فى مقالته ؟

وأكرر أننى كنت صادقاً معه . وكان واثقاً بى متقبلا ما أكتب وأنشر . لقد بدأ الحوار بيننا يوم ١٨ يوليو (تموز) ١٩٥٢ . واستمر من دون انقطاع حتى ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٠ . أما مراحل التوتر فكانت على أى حال مظهر عافية لهذه العلاقة بين قائد تاريخى وكاتب شاءت له الظروف أن يكون قريباً منه .

فؤاد مطر : ولكن هنالك مسألة ما تزال إلى الآن غير واضحة تماما . ما الذى جعل عبد الناصر يصدر قراراً مفاجئا بتعيينك وزيراً من دون أن يفاتحك ، وأنت تقول أن الحوار لم ينقطع بينكما أبداً .

ولماذا توزيرك فى وقت واحد مع أفراد المجموعة التى كانت محيطة به فى استمرار وبالذات سامى شرف ؟

محمد حسنين هيكل :

لعل هذه النقطة هى التى جعلتنى أحتج وأسعى لكى يقبل اعتذارى . وفى الماضى فاتحنى فى أمر التوزير أربع مرات . وفى كل مرة كان يطلب منى الاشتراك فى الوزارة كنت أعتذر . المرة الأولى كانت عام ١٩٥٦ فى أول حكومة تألفت برئاسته ، وقلت له آنذاك إننى أفضل الاستمرار فى العمل الصحفى . وبعدما قامت الوحدة عام ١٩٥٨ طلب أن أكون وزيراً فى الحكومة الأولى لدولة الوحدة ، واعتذرت . وكانت المرة الثالثة بعد الانفصال ، وقبل اعتذارى . والمرة الأخيرة كانت بعد نكسة ١٩٦٧ . وقد تفهم الظروف ووافق على رغبتى فى أن أستمر فى عملى الصحفى .

أما عندما أصدر عبد الناصر قراراً بتعيينى وزيراً عام ١٩٧٠ من دون أن يفاتحنى بالأمر فإنه كان يبنى حساباته على أسس معينة . وكان معنى تصرفه هذا أن المسألة لا تحتمل اعتذاراً وهذا ما أوضحه لى بعد ذلك .

كنا وقتها فى حرب الاستنزاف . وكانت حركة عبد الناصر دقيقة جدا . قتال فى الجبهة وغارات فى العمق ووجود سوفياتى مهم فى مصر وفى المقابل تحرك سياسى ودلائل على قبول مبادرة وزير الخارجية الأميركية وليم روجرز ، ودلائل أخرى على إعلان وقف إطلاق النار ترافقها دلائل على استعداد الجيش المصرى للعبور بعد انتهاء مهلة وقف إطلاق النار التى حددت بثلاثة أشهر .

وشعر عبد الناصر أن تلك المرحلة التى ستتسم بمزج العمل السياسى بالعمل العسكرى تحتاج إلى إعلام دقيق ومركز يتولاه شخص محيط بالموقف الرسمى وبأسلوب تحركه ، ويستطيع أن يعبر من دون العودة إليه .

وعندما طلب منى الرئيس أنور السادات بعد توليه الحكم أن أشارك فى منصب رسمى أورد الحجة نفسها التى أوردها عبد الناصر لأن الرئيس السادات كان على علم بها . ولقد حاولت أن أؤدى دورى فى جوار الرئيس السادات فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ أثناءها وبعدها بمقدار ما استطعت . وكانت تلك فترة رائعة فى تاريخ مصر أسعدنى أننى تمكنت من رؤيتها والحياة فى وسطها .

الفصل التاسع

رحلة العذاب مع المرض

فؤاد مطر : هل يمكن أن نقف منك على تاريخ المرض مع عبد الناصر ومواكبة المرض فى تاريخه السياسى . وهل أنه عندما عين فى ٢٣ مارس (آذار) ١٩٦٤ نائباً أول يحل محل رئيس الجمهورية لمدة ٦٠ يوماً إلى حين يختار مجلس الأمة رئيسا جديدا يطرحه على الاستفتاء الشعبي كان المرض بدأ يشتد عليه ؟

محمد حسنين هيكل :

إنك تمس موضوعا فكرت أحيانا فيه . وفى كل مرة كنت أفكر فى هذا الموضوع كنت أبتعد عن تناوله . فهو موضوع حساس جداً . إننى أعتقد أن الأعمار بيد الله لكن المرض واكب كما تقول مراحل حياة جمال عبد الناصر السياسية . الذى حدث أن عبد الناصر أصيب بمرض السكر مع أنه ليس لهذا المرض أثر فى عائلته . والده لم يكن مريضا بالسكر . ووالدته لم تكن مريضة بالسكر . لم يكن لهذا المرض أثر فى تاريخ عائلته .

لماذا إذاً ، أصيب بالسكر ؟

أعتقد أن السكر بدأ مع تجربة الانفصال . بعد انفصال سوريا بدأ عبد الناصر يشكو من متاعب السكر . ونحو العام ١٩٦٢ أصبح السكر يؤثر على صحته .

ومرض السكر كما هو معروف ينشأ نتيجة القلق والعذاب النفسى الشديد . وأزمة الانفصال كانت من النوع المقلق والمعذب . كانت محنة حقيقية .. بل من أكثر المحن وطأة التى مرت على عبد الناصر .

وأسباب هذه المحنة كثيرة . منها أن جمال عبد الناصر كان قويا بالوحدة . ومنها أيضا أنه كانت لدى عبد الناصر رابطة معنوية ومادية مع سوريا . وهذه الرابطة نشأت نتيجة لما قدمه الشعب السورى فى البداية عند إقامة الوحدة . كان عطاء الشعب السورى عظيما . وهذا العطاء جعل عبد الناصر يشعر أنه أمام مسؤولية ضخمة تجاه هذا الشعب

بالإضافة إلى ذلك أن عبد الناصر كان يؤمل كثيراً فى الجبهة الشمالية

لماذا ؟

أذكر أنه قال لى مرة أنه فى توافر جبهة شمالية قوية وجبهة جنوبية قوية أيضاً يمكنه تحقيق وضع هجومى عربى . وأذكر أنه غير مرة استعمل تعبير « كسارة البندق » . كان يرى أن الجبهة الشمالية القوية والجبهة الجنوبية القوية أيضاً هما بمثابة « كسارة البندق » بالنسبة إلى إسرائيل .

إن صدمة الإنفصال كانت بالنسبة إلى عبد الناصر صدمة فى الأمل . أمل تحقيق الوحدة العربية . وكانت أيضاً صدمة فى مشاعره تجاه الشعب السورى لأن عبد الناصر كان يشعر بالكثير من العاطفة والولاء نحو هذا الشعب .

ولعل أكثر ما أرهق عبد الناصر هو شعوره أن الانفصال مفروض على الشعب السورى . مفروض عليه بالمؤامرات ومن قبل أقلية .

إذاً ، ان ضيق عبد الناصر من حدوث الانفصال مرده إلى الأمور الآتية :

خيبة أمل فى تحقيق الوحدة العربية . تخلخل النظام الدفاعى . سقوط حلم « كسارة البندق » . تمزق العاطفة والمشاعر حيال الأكثرية السورية التى فرضت عليها أقلية وضعاً لا تريده .

حيال هذا كله ماذا يفعل جمال عبد الناصر : هل يقاوم الإنفصال بالقوة المسلحة ، أم ماذا ؟

والحقيقة أننى لم أشاهد يوما جمال عبد الناصر متردداً فى اتخاذ قرار مثل ذلك اليوم الذى حدث فيه الانفصال . هل يقاوم الانفصال ؟ هل يترك الأمور تسير فى مجراها الطبيعى ؟

أذكر أننى استدعيت فى السادسة صباح يوم الانفصال إلى إذاعة القاهرة . قالوا لى إن عبد الناصر فى مبنى الإذاعة ويريد أن أحضر إلى هناك . الحقيقة أننى استغربت . ما الذى حمل عبد الناصر على الانتقال إلى مبنى الإذاعة ؟

الذى أعرفه أنه فى الأزمات يتابع الأزمة إما من مكتبه أو من منزله أو من مقر مجلس قيادة الثورة . هل حدث يا ترى ما يوجب متابعة تطورات الانفصال من مبنى الإذاعة وليس من أحد الأماكن الثلاثة التقليدية ؟

المهم أننى توجهت على الفور إلى مبنى الإذاعة فى شارع علوى . وقيل لى أن الرئيس فى مكتب مدير الإذاعة .

وقال لى على الفور أنه رأى أن الطريقة الوحيدة لمتابعة أنباء الحركة الانفصالية هى الانتقال إلى الإذاعة ، لأن كل الاتصالات كانت مقطوعة ولأن الانفصاليين قطعوا خطوط الاتصال بين القيادة فى القاهرة والقيادة فى دمشق .

وفى مكتب مدير الإذاعة جلس عبد الناصر وهناك تم تحويل خط على إذاعة دمشق مباشرة . وبفضل هذا الخط أمكنه أن يسمع بوضوح تام البيانات والأنباء التى تبثها إذاعة دمشق . كان يسمع ويسجل نقاطاً على الورق ويفكر فى القرارات التى يجب اتخاذها . وكان التردد ظاهرا عليه . يتدخل . لا يتدخل . يتدخل . لا يتدخل ؟

كانت إذاعة دمشق هى المصدر الوحيد ليعرف منها عبد الناصر ما يجرى فى دمشق . وهو انتقل إلى مبنى الإذاعة ليتابع الموقف لأن المتابعة عبر الراديو العادى فى منزله أو فى مكتبه لم تكن مكتملة بسبب الوضوح المفقود .

وكان يسمع ويعانى ويتأمل .

فى البداية قرر أن يتدخل لضرب حركة الانفصال . لماذا ؟

لأنه اعتبر أن ما يجرى لا تقره الأكثرية السورية وأن ذلك مفروض عليها .

وفى الوقت نفسه قرر ألا يتدخل لضرب حركة الإنفصال . لمـــاذا ؟ لأنه فى التدخل سيريق دماً مصريا كثيرا ودما سوريا كثيرا . ولأنه أيضا مقتنع بأن معاونيه يتحملون شيئا من الأخطاء التى قادت إلى حدوث الانفصال .

ثم تستيقظ فجأة عاطفته الوحدوية وعاطفته نحو الشعب السورى الذى أحبه عبد الناصر كثيراً ، فيقرر أن يتدخل . كذلك يتصور النكسة التى أصابت حلم الوحدة . ويتصور سقوط الحلم الآخر .. حلم « كسارة البندق » فيقرر أن يتدخل .

كانت حالة عذاب حقيقى ، كان تردده عذاباً حقيقياً .

... وكان هناك هاجس كبير هزه فى البداية كثيرا . فقد افترض للوهلة الأولى أن لعبد الحميد السراج علاقة بالحركة الانفصالية لأن السراج كان قدم استقالته قبل حدوث الحركة بأيام قليلة فى أعقاب أزمة بينه وبين عبد الحكيم عامر .

إن الأمر بالغ الأهمية ومحزن إذا كان عبد الحميد السراج مشتركا فى المحاولة

أو أن له علاقة بها . وهو يتابع الإذاعة باهتمام وقلق بالغين ليتأكد من ذلك .
وتتابع البيانات والأنباء من إذاعة دمشق ولا يجد جواباً . ويشتد ضيقه وقلقه ...
بل حزنه . وأشعر أن أعصاب الإنسان فيه تحترق . وهو عندما نشبت الأزمة
بين عبد الحكيم عامر وعبد الحميد السراج شعر بضيق نفسى شديد لأن الاثنين
قريبان إلى قلبه عزيزان عليه . وعندما استقال عبد الحميد السراج تضايق كثيراً
وكان يتمنى ألا تصل الحال إلى ما وصلت إليه ويتصافى الاثنان : عبد الحكيم
عامر وعبد الحميد السراج .

وتساءل بينه وبين نفسه كثيراً : هل عبد الحميد السراج يشارك فى عملية
انفصالية ؟ كان يتمنى ألا تكون هذه هى الحقيقة .

لقد تصور بالفعل للوهلة الأولى أن لعبد الحميد السراج علاقة بالحركة الانفصالية .
وأتذكر الآن ملامح عبد الناصر عندما تكشفت له الحقيقة . بدا مرتاحا نفسيا
بعض الشئ إذ تأكد أنه ليس لعبد الحميد السراج علاقة بالحركة الانفصالية .

لماذا ارتاح عبد الناصر ؟ هل هناك سر ما ؟

كل ما فى الأمر أنه كان يريد ألا يخيب أمله ويصدم بانسان عزيز جداً عليه .
لقد كانت له بعض الاعتراضات على عبد الحميد السراج . هذا صحيح . لكن
السراج كان فى نظره وطنياً وقومياً ومخلصاً . كان معترضاً على بعض أساليب
عبد الحميد السراج ، لكنه فى الوقت نفسه كان يرى أن السراج يفعل ما يفعله
صوناً للوحدة لأن سوريا وهى بؤرة حركة القومية العربية ، كانت معرضة
ومستهدفة طوال الوقت . فى الخمسينات كانت معرضة ومستهدفة . وفى الستينات
أيضاً . وفى استمرار كان الصراع حول سوريا وعليها كبيراً ومتشعباً .

بعد الراحة النفسية التى نشأت عاد جمال عبد الناصر إلى حالته السابقة . عاد
إلى حيرته . هل يقرر التدخل ؟ هل يقرر عدم التدخل ؟ وأصدر فى ذلك اليوم
قرارات تعكس حيرته . فى البداية أعطى أوامر للاستعداد عسكرياً . وأمر القوات
البحرية بأن تكون جاهزة . بعد ساعة أو ساعة ونصف الساعة كانت فرقة
من القوات البحرية قد استعدت تماماً وأخذ كل من أفرادها مكانه على سطح السفن
والمدمرات . أعطيت فى الوقت نفسه أوامر لرجال المظلات ليكونوا جاهزين .

كل شئ أصبح جاهزاً فى ظرف ساعتين . القوات البحرية جاهزة ولا تحتاج للوصول إلى اللاذقية إلى أكثر من ثلاث ساعات . وقوات المظلات جاهزة للتوجه جواً وتأمين حماية للقوات البحرية .

صحيح أنه أعطى الأوامر إنما كان هنالك فى الوقت نفسه هاجس يقلقه ويمزق أعصابه . أنه لا يستطيع أن يتصور منظر أفراد من القوات البحرية أو منظر مظليين مصريين يطلقون النار على السوريين . ولا يستطيع أن يتصور منظر جنود سوريين يصدون بالنار رفاق السلاح المصريين .

فى الوقت نفسه كان يأمل خيراً فى رد فعل الشعب السورى . وكان قلقاً على عبد الحكيم عامر . ماذا فعلوا به ؟ هل يمكن أن يكون جرى له شئ ؟ ولو أن الاتصالات لم تقطع بين القيادة فى دمشق والقيادة فى القاهرة لكان عرف حقيقة ما يجرى فى سوريا . ولكان أيضاً وقف على مصير عبد الحكيم عامر وعشرات الضباط والمسؤولين المصريين الذين كانوا فى دمشق عند وقوع الانفصال .

وفى لحظة تفكير خاطفة اتخذ القرار الذى افترض أنه ضرورى .

أعطى الأمر للقوات المظلية بأن تتوجه نحو اللاذقية وتنزل هناك وتنتظر وصول القوات البحرية لتأمين حماية لها .

وبعد الظهر كانت القوات قد وصلت إلى مشارف اللاذقية ، بل أن بعضها نزل فعلا بالقرب من اللاذقية . أعطى أوامر لهذه القوات بأن تستسلم . وحتى إذا ووجهت القوات التى نزلت بمقاومة من السوريين فإن الأوامر التى أعطاها قضت بألا تطلق هذه القوات النار على أى سورى .

ولعل طلائع مرض السكر بدأت وسط هـــذا الجو فى الساعات الأولى لحركة الانفصال السورى . ثم جاءت حملات الرجعيين فى الأيام التى تلت لتزرع المرض وتنشره . ولابد أن مرض السكر كان قد استشرى بعد الذى جرى فى شتوره .

. . . وما جرى فى شتورة لم يكن موجهاً ضد عبد الناصر فقط . كان عملية افتراس لطموحات الأمة العربية وأمانيها الكبيرة .

ثم جاءت أزمة اليمن .

وما حدث فى اليمن جعـــل نسبة مرض السكر تتزايد . وفوق ذلك حـــدث

التهاب فى شرايين عبد الناصر . وهذا الالتهاب أتعب عبد الناصر وتسبب له فى آلام حادة فى رجليه .

وفى أواخر ١٩٦٦ أصبح عبد الناصر يشكوا كثيراً من الألم الناتج عن التهاب الشرايين . ثم حدثت هزيمة ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ، ومن قبلها هموم الإنحرافات وأصبح الألم لا يطاق . ويوم ١٣ يوليو (تموز) ١٩٦٧ أجرى له الأطباء كشفاً عاماً . وشعر هؤلاء بالخطر . ولم يتجاوب مع وصفاتهم وتنبيهاتهم .

وبسبب عناده كان الألم يزداد . العلاج فى ذلك الوقت كان ممكنا إلا أنه فضل أن يتألم على أن يعالجه أطباء من الولايات المتحدة أو بريطانيا . وفضل أيضاً ألا يعرف الأصدقاء السوفيات بمرضه .

لماذا ؟

كان جمال عبد الناصر يتصور أن أى طبيب أميركى أو بريطانى يعالجه سيضع تقريرا يرفعه إلى جهات معينة أو إلى بلد معين .

وكثيرا ما قلنا له أن لا موجب للألم وأنه لن يحدث شئ إذا تولى أطباء من الخارج معالجته . لكنه كان يعاند ويقول أن الأطباء المصريين ممتازون .

واستمر عبد الناصر يرفض العلاج على يدى أى طبيب أجنبى مكتفياً بالأطباء المصريين الذين أفادوه كثيراً لكنهم لم يخلصوه نهائياً من الألم .

وفى يوليو (تموز) ١٩٦٨ كان عليه أن يقوم بزيارة إلى الإتحاد السوفياتى واقترح أطباؤه أن تكون الزيارة مناسبة ليشارك الأطباء السوفيات فى معالجة التأثير الذى أحدثته مضاعفات السكر فى شريان القدم اليمنى . وفى الطائرة التى نقلته إلى موسكو فوجئت — وكنت جالساً أمامه — بأنه لا يستطيع الجلوس فى مقعده من شدة الألم . وفرش له الأطباء سريراً فى الجزء المخصص له من مقدم الطائرة . وعلى رغم الألم الشديد لم ينس بعدما صحا من النوم أن يطلب منى استدعاء ياسر عرفات الذى كان بين ركاب الطائرة (من دون أن يعرف أحد بذلك) ليجلس معه . وتلك كانت الزيارة الأولى التى يقوم بها عرفات إلى موسكو وكانت بترتيب من عبد الناصر . وفى مستشفى (بربيخة) أجرى الأطباء السوفيات كشفاً عاجلا له ووجدوا أن هناك تصلباً فى شرايين الساق من أثر مضاعفات السكر . وأوضحوا له المسألة واقترحوا أن يعود بعد أسبوعين لمعالجته بالمياه الطبيعية

فى «تسخالطوبو» . وعاد إلى القاهرة ثم سافر بعد أيام إلى «تسخالطوبو» حيث أمضى ثلاثة أسابيع ، وعاد إلى مصر لقضاء أسبوعين من النقاهة فى الإسكندرية . وحتى ذلك الوقت لم تكن الآلام زالت بل أن بعضها اشتد . لكن الأطباء السوفيات كانوا مدركين ذلك وكانوا يتوقعون أن يزول الألم تماماً إذا عاد مرة ثانية فى صيف ١٩٦٩ إلى « تسخالطوبو » .

وكان عبد الناصر مقتنعاً بضرورة السفر إلى « تسخالطوبو » فى أغسطس (آب) ١٩٦٩ إلا أن تصاعد حرب الاستنزاف جعلته لا يستعجل الذهاب على رغم أن الألم كان يستحكم إذا مشى أكثر من عشر دقائق وإذا جلس ثابتاً أكثر من ساعة .

استمرت الحال على ما هى إلى أن وقع حادث فظيع . فى يوم ١١ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٩ أصيب بالأزمة القلبية الأولى وكان الحادث فظيعاً بالفعل .

كيف جاءته الذبحة القلبية تلك ؟

يوم ١٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٩ كان جمال عبد الناصر يشهد تدريباً عملياً على طريق السويس ، وبينما هو يشهد هذا التدريب بلغه أن الإسرائيليين قاموا بعملية إنزال فى منطقة الزعفرانة الواقعة فى خليج السويس . وبدأت الأنباء الصادرة من تل أبيب وبعض العواصم الدولية تصور العملية على أنها محاولة لغزو مصر . حتى أن بعض وكالات الأنباء كانت تبعث برسائل صحافية تقول فيها أنها من « مصر المحتلة » . ولم يكن معروفاً لأحد أن الرئيس عبد الناصر خارج القاهرة يشهد التدريب العملى .

عندما عرف عبد الناصر بالعملية الإسرائيلية تضايق جداً خصوصاً أنه لم يعرف حجمها الحقيقى . وعندما أبلغ عبد الناصر العملية أمر كبار قادة الجيش الذين كانوا حوله بالغاء التدريب ورفع حالة الاستعداد لدى القوات . هذا معناه أن تصبح هذه القوات جاهزة للقيام بعملية دفاعية أو هجومية .

كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحاً عندما بلغه نبأ العملية الإسرائيلية فى منطقة الزعفرانة . ونحو الحادية عشرة أى بعد ساعتين ، عاد إلى القاهرة .

وأذكر أنه بعد وصوله إلى القاهرة اتصل بى هاتفياً وطلب أن أقرأ له كل

ما تقوله وكالات الأنباء عن العملية . وقرأت له كل ما كانت هذه الوكالات نقلته من تل أبيب وبعض العواصم الغربية .

فى ذلك اليوم اهتم عبد الناصر كثيراً بما نقلته وكالات الأنبـاء لسبب أساسى هو أن المعلومات التى توافرت لدى المخابرات المصرية عن العملية لم تكن كافية ، أو أنها لم تكن مكتملة وواضحة ما فيه الكفاية .

من المسؤول عن ذلك ، وعن الارتباك فى المعلومات الرسمية ؟

هذا موضوع آخر .

المهم أن عبد الناصر وهو يسأل عن عملية الزعفرانة كان فى غاية الضيق . وقد لمست ذلك من صوته .

كان ذلك نحو الخامسة بعد الظهر . وحتى ذلك الوقت لم يكن عبد الناصر قد وقف على الهدف الحقيقى لهذه العملية . ولو عرف أن العملية ذات هدف نفسى فقط ، لأن الإسرائيليين كانوا مع حلول الليل سحبوا قواتهم . لربما كان ضيقه أقل . لقد كانت العملية عبارة عن إنزال بعض القوات لمساندة نحو ١٦ دبابة برمائية . وتحركت الدبابات والقوات بضع ساعات فى المنطقة ثم انسحبت ومعها عدد من الأسرى المدنيين .

وعلى رغم أنها عملية هشة واستعراضية بهدف إحداث تأثير نفسى إلا أن عبد الناصر تضايق جداً . وأذكر أن الضيق كان ظاهراً فى صوته وهو يسأل ويطلب أن أقرأ له ما نقلته وكالات الأنباء عن العملية .

وفى اليوم التالى (١١ سبتمبر) شعر بارهاق شديد مصحوباً بنوع من الدوار . ودعا طبيبه الخاص الدكتور الصاوى حبيب ليكشف عليه . وكان الصاوى فى الأصل سيجرى كشفاً عاماً ليعد تقريراً كاملا قبل السفر لأن عبد الناصر كان حدد سفره إلى « تسخالطوبو » بعد أيام . واكتشف الصاوى أن الرئيس عبد الناصر أصيب بجلطة لكنه حاول إخفاء الحقيقة وتظاهر بأنها حالة انفلونزا وطلب عقد كونسلتو أطباء . وجرى رسم ثان للقلب يؤكد أنه حدث إنسداد فى فرع الشريان الأمامى للقلب .

كيف عولج الأمر ؟

انتهت مناقشة الأطباء إلى أنه من الضرورى أن يعرف الرئيس أنه أصيب بأزمة

قلبية لأنه إذا عرف يتصرف بما يساعد العلاج . وقبل له ذلك بالتدريج وتقبل الأمر بإرادة حديدية .

وانتهت المناقشة أيضاً إلى قرار لا يحتمل الأخذ والرد . كان القرار هو أن عبد الناصر يحتاج إلى أجازة لمـــدة ستة أسابيع قابلة للتجديد لا يعمل خلال ذلك شيئاً . مطلوب منه أن يتمدد فوق السرير ويرتاح .

واذكر أن السيد أنور السادات اتصل بى ذلك اليوم نحو السابعة والنصف مساء وطلب أن ألاقيه للاجتماع به فى منزل الرئيس عبد الناصر .

وتوجهت على الفور . هناك وجدت السادات جالساً فى مكتب سامى شرف الذى يقع فى المبنى المقابل لمنزل الرئيس . وكان هناك أيضاً بالإضافة إلى السادات وسامى شرف الفريق أول محمد فوزى (وزير الحربية آنذاك) وشعراوى جمعة (وزير الداخلية آنذاك) وأمين هويدى (الذى كان يشرف على المخابرات آنذاك) .

وقال لنا السادات أن الغرض من هذا الاجتماع هو إطلاعنا على أمر مهم وهو أن الرئيس عبد الناصر مصاب بأنفلونزا ومن الضرورى أن يأخذ أجازة طويلة .

أجازة طويلة بسبب الأنفلونزا ؟

لابد أن السادات يخفى شيئاً .

وقلت للسادات : أنا مش فاهم حكاية الأجازة والأنفلونزا . ثم أن اجتماعنا علشان إيه ؟

وأوضح السادات أن الرئيس عبد الناصر قرر حيال اضطراره إلى الأخذ بفكرة الأجازة بأن يؤلف هذه اللجنة التى تضم أنور السادات وسامى شرف وشعراوى جمعة والفريق أول فوزى وأمين هويدى وأنا ، لكى تعقد اجتماعات وتبحث فى مسائل الدولة والقضايا التى تستجد . وقال السادات أيضاً أن الرئيس عبد الناصر كلفه أن يكون صلة الوصل بينه وبين أعضاء اللجنة التى طلب الرئيس أن تستمر تعقد اجتماعات إلى أن يصبح قادراً على مزاولة العمل .

وعدت أقول للسادات : أنا مش فاهم . هل تأذن لى أشوف الريس . ثم أين هو الرئيس عبد الناصر . وفوق ذلك ما الذى أعمله أنا فى هذه اللجنة . أنتم من الرسميين وأنا ليست لى صفة رسمية .

وقال لى السادات : انتظر .

وغادر السادات الغرفة . ثم عاد إلينا . وقال أنه توجه إلى الرئيس عبد الناصر فى منزله . وأضاف : تعال . تعالوا كلكم لمشاهدة الرئيس .

توجهنا لمشاهدة الرئيس عبد الناصر . وجدناه فى غرفة نومه جالساً على كنبة . وكان عند دخولنا يأكل لبن زبادى .

قلت له : هل هنالك أمر ما ؟

أجاب : أبداً . كل ما فى الأمر أن الأطباء نصحوا بأن أستريح شهراً فى السرير . ووجدت حيال ذلك أن تجتمعوا وتبحثوا المسائل المتعلقة بالدولة بدل أن أشغل نفسى بها ... وذلك إلى أن تنتهى فترة الأجازة وأصبح قادراً على مزاولة العمل كما كانت الحال فى السابق .

وقلت للرئيس عبد الناصر فى معرض اعتراضى على اشتراكى فى اللجنة لأنه ليست لى صفة رسمية : هل يمكن أن أعرف حكاية الانفلونزا ؟

كان الآخرون قد خرجوا بعدما سلموا على الرئيس وبقيت أنا . وبدأت ألح على الرئيس لكى يوضح لى حكاية الانفلونزا . وهو يعرف أننى عنيد . وأحياناً كان يتهمنى بالعناد .

وحيال هذا الالحاح قال لى الرئيس عبد الناصر أنه سيوضح لى المسألة .

وصعقت وأنا أسمعه يقول : يظهر أنى أصبت بذبحة قلبية .

واستطرد : لكن الأطباء يقولون أن المسألة بسيطة وأنه يجب أن ألازم السرير وأرتاح . والمهم ألا يعرف أحد كى لا تقلق البلد . ولكن قل لى كيف يمكن أن نغطى غيابى هذه المدة التى يقترحها الأطباء ؟ قلت : قد نقول انفلونزا . لا يهم ما نقوله ولكن المهم أن تستريح .

والمذهل أن رئيس وزراء الأردن السيد بهجت التلهونى جاء ليلتها إلى القاهرة ومعه رسالة من الملك حسين إلى عبد الناصر . وقال التلهونى أن الموقف خطير فى الأردن وأن الأزمة مع المقاومة تزداد تدهوراً ، وطلب مقابلة عبد الناصر . وقيل له أن الرئيس تعرض لنوبة انفلونزا وهو راقد فى فراشه . وقال التلهونى أنه إذا عاد من غير مقابلة مع عبد الناصر سيقدم استقالة حكومته . وتم التوصل

إلى حل وسط اقترحه الرئيس : يأتى التلهونى إليه فى غرفة نومه . يراه ولا يبحث معه شيئاً ... بحيث يستطيع أن يقول للملك أنه اجتمع به ، لكنه يبحث ما يريد مع السيد أنور السادات .

وقبل أن أغادر غرفة الرئيس أثرت من جديد مسألة إشراكى فى اللجنة التى تألفت برئاسة السادات .

وقال لى : أنت تعرف الطريقة التى أفكر بها . أنت تحضر اجتماعات اللجنة وهم يتناقشون وأنت تبدى رأيك .

وقلت له : حاضر . هل ده كويس ؟

أجابنى : أيوه كويس .

غادرت غرفة الرئيس وانضممت إلى الآخرين الذين كانوا فى غرفة الاستقبال يتحادثون . وكنا جميعاً الأشخاص الذين فى حوزتهم رقم هاتف الرئيس عبد الناصر مباشرة والذين يستطيعون التحدث هاتفياً مع الرئيس على هذا الرقم فى أى وقت ... حتى إذا كان فى غرفة نومه .

واتفقنا على ألا يعرف أحد ما حدث للرئيس ، وعلى ألا تعرف عائلته أيضاً الأمر ... وإن كانت العائلة ساورتها الشكوك بعدما بدأ العمال والمهندسون تركيب مصعد فى المنزل المؤلف من طبقتين . اتفقنا كذلك على ألا نتحدث إلى الرئيس هاتفياً ، وأن نتقابل من حين إلى آخر تبعاً للضرورة التى يراها السادات الذى اختاره الرئيس عبد الناصر رئيساً لهذه اللجنة .

وفى اليوم الثانى اتصلت هاتفيا بالسيد أنور السادات . تحدثنا قليلا فى الأزمة الصحية التى يجتازها الرئيس عبد الناصر .

وبعد يومين فوجئت بالرئيس يطلبنى هاتفيا . « الله ! مفروض يا فندم ما تتكلمش» قلت له ذلك وأنا فى غاية الاستغراب . ورد على استغرابى قائلا : المسألة مش خطيرة للدرجة دى .

وواصل الكلام .

كان يسأل عن بعض الأمور .

وبعدما انتهت المكالمة اتصلت بالسيد أنور السادات طالباً عقد لقاء معه .

وفى هذا اللقاء قلت له أن الدولة عندما تعالج أحداً على نفقتها فإنها تستقدم إليه أكبر الأطباء أو توفده إلى الخارج لكى يعالجه أكبر الأطباء . ويجب إيجاد طريقة ما لاستقدام أحد كبار أطباء القلب . وليس بالضرورة استشارة الرئيس فى الأمر .

وفى الليلة نفسها استدعي السيد أنور السادات السفير السوفياتى فى القاهرة .

وكانت تلك المرة الأولى التى يعرف فيها السوفيات أن أزمة قلبية فاجأت الرئيس جمال عبد الناصر .

وقال السادات للسفير أن الأمر فى منتهى الأهمية وسلمه رسالة إلى ليونيد بريجنيف تشير إلى الأزمة القلبية المفاجئة وتطلب إيفـاد أكبر أطبـاء القلب فى الاتحاد السوفياتى إلى القاهرة .

وعلى وجه السرعة أوفد بريجنيف إلى القاهرة الدكتور شازوف أكبر أطباء القلب فى الاتحاد السوفياتى والذى يشغل فى الوقت نفسه منصب وزير الصحة .

وكشف الدكتور شازوف على الرئيس عبد الناصر . وأقر تشخيص الأطباء المصريين ووضع علاجا فى منتهى القسوة .

وكان العلاج كمرحلة أولى كالآتى :

أولا : أن يتوقف الرئيس عبد الناصر عن التدخين .

ثانيا : أن يأخذ أجازات منظمة .

ثالثاً : أن يوقف القلق .

وأجابه عبد الناصر أنه يستطيع تنفيذ الشق الأول من الوصفة المتعلق بالتدخين لأن الأمر فى يده ، أما مسألة أخذ أجازات منظمة فإن فى الأمر استحالة لأن معنى ذلك أن يوقف عمله .

وكان عبد الناصر قال لشازوف أنه كان مقرراً أن يسافر إلى « تسخالطوبو » لاستكمال العلاج لآلام التهاب الشرايين ورد عليه شازوف أن القلب لا يتحمل العلاج بالمياه المعدنية إلا بعد مرور خمس سنوات على الأقل . وعرف عبد الناصر عندئذ أن عليه أن يتحمل القلب وآلام التهاب الشرايين فى الوقت نفسه .

ثم تطلع عبد الناصر بالدكتور شازوف وقال له : أما حكاية القلق فإننى أود أن أوضح لك أن القلق ينام معى فى سريرى كل ليلة . لمجرد أن أضع رأسى على المخدة أبدأ التفكير فى المشاكل وفى الحاضر والمستقبل .

وغادر الدكتور شازوف القاهرة عائداً إلى موسكو موعودا من الرئيس عبد الناصر بأنه سينفذ العلاج إذا أمكن . لكن الرئيس خالف الوعد بعد سفر طبيب القلب السوفياتى . بدأ يستسهل الاتصالات الهاتفية تصوراً منه أن العمل عن طريق الهاتف ليس عملا . كان يفترض أنه ما دام فى سريره أو جالسا على الكنبة التى

فى غرفة نومه وآلة الهاتف إلى جانبه ، فإنه ليس فى الأمر أى جهد إذا هو أدار قرص الهاتف واتصل بمن يريد . وأصبح يكثر من استعمال الهاتف . وعمليا شجع الآخرين من الذين يتصلون به عادة على الاتصال به . لعله فى ذلك كان يبدد وحشة قاتلة .

وثمة تساؤل كبير : هل أن تلك الفترة خلت من أزمات من النوع الذى يفرض على الرئيس عبد الناصر التضحية بالراحة من أجل مواجهة الأزمات ؟

تلك الفترة تميزت بأنها فترة الاستنزاف . وكانت هـذه الفترة تشغل بال جمال عبد الناصر . وهو منذ الأشهر الأخيرة من ١٩٦٧ قلص اهتماماته وركزها فى ثلاثة موضوعات . الأول : إعداد القوات المسلحة للحرب . الثانى : العلاقات المصرية – السوفياتية . الثالث : العلاقات العربية .

قرر جمال عبد الناصر أن يتفرغ للموضوعات الثلاثة هذه . اعتبر أن هـذه الموضوعات هى من اختصاصه وأن بقية الأمور تأتى فى المرتبة الثانية . فى تلك الفترة لم يكن مهتما بأمر الجبهة الداخلية ولم يكن مستعداً للاهتمام بأى موضوع تشهده هذه الجبهة أيا كانت أهميته . كانت الموضوعات الثلاثة هى شغله الشاغل وأن أى أمر آخر يمكن تصليحه .

ومن هنا يمكن الافتراض أن ما اصطلح على تسميته « مراكز القوى » وجدت فى انشغال عبد الناصر بالموضوعات الثلاثة الآنفة الذكر فرصة للاقدام على أعمال لم يكن على علم بها ، وعلى تجاوزات لا يريدها أن تحدث .

وتجدر الإشارة هنا إلى أمر مهم هو أن جمال عبد الناصر فكر عام ١٩٦٤ فى مشكلة الخلافة ليس بسبب إصابته بالسكرى إنما لأنه وجد أن الوقت حان لكى تقوم دولة المؤسسات ، وحان وقت الانتهاء من الاعتماد على الفرد .

وفى تلك السنة وضع دستور جديد . وكان من الطبيعى أن تنص إحدى مواد هذا الدستور على مسألة الخلافة . وهكذا تقرر تضمين الدستور تلك المادة التى تنص على أن يكون هنالك نائب لرئيس الجمهورية يتولى أعمال الرئيس لمدة ستين يوما إلى حين يختار مجلس الأمة رئيسا جديدا يطرحه على الاستفتاء الشعبى .

وفى أى حال لم تمنع هذه المصادفة أن البعض افترضوا أن هذه المادة وضعت لأن جمال عبد الناصر بدأ يعانى بشدة من المرض . إننى مقتنع أن المسألة ليست كذلك . إن السكر لم يكن الدافع إلى تضمين الدستور تلك المادة . الدافع الأساسى كان

اقتناع جمال عبد الناصر بأنه حان الوقت لانتقال مصر إلى دولة مؤسسات . ولكى يتم ذلك لابد من تحديد اختصاصات ولا بد من توضيح مسألة الخلافة .

وجمال عبد الناصر فى تلك المادة لم يعين خليفة إنما عين نائباً أول لرئيس الجمهورية ورسم الطريق لتعيين الخليفة بالشكل الدستورى . والشكل الدستورى هو أنه إذا حدث أمر ما لرئيس الجمهورية يتولى نائب الرئيس طبقا للدستور مهمات الرئاسة لمدة ستين يوما . بعد ذلك ترشح اللجنة التنفيذية اسماً تعرضه على اللجنة المركزية ثم يعرض الإسم على مجلس الأمة . وفى النهاية يعرض الإسم على الاستفتاء الشعبى .

والشكل الدستورى ذلك روعى فيه حل مسألة الخلافة سلميا وبوسائل مقررة دستوريا ومن دون صراعات أفراد .

فى الفترة التى أصيب فيها عبد النـــاصر بالأزمة القلبية الأولى كانت حرب الاستنزاف تصل إلى ذروتها . وكان محتما بالإضافة إلى وقف الاتصالات الهاتفية مع الرئيس أن تتوقف المكالمة اليومية الأخيرة التى يجريها جمال عبد الناصر قبل أن يطفئ نور غرفته لكى يخلد إلى النوم .

وهذه المكالمة كانت من النوع الذى يقلق ويرهق ، ولكن على رغم ذلك كان جمال عبد الناصر يحرص على أن يجريها كل ليلة قبل أن ينام . والمكالمة كانت مع الفريق أول محمد فوزى . كان الرئيس عبد الناصر قبل أن ينام يتصل بوزير الحربية ليسأله عن الوضع على الجبهة . يسأل عن عدد الذين استشهدوا . وعدد الذين جرحوا . ويسأل عن الخسائر فى المعدات .

ومثل هذه المكالمة كانت بالفعل مرهقة حتى قبل أن يصاب الرئيس بالذبحة القلبية . ومن الطبيعى أنها صارت أكثر إرهاقاً بعدما أصيب . ولذا كان من الضرورى إيقافها فى فترة العلاج . وأتذكر كيف أن عبد الناصر كان يتألم عندما يتبلغ أن بعض الضباط استشهدوا . . . خصوصاً أن اتصالاته المستمرة فى ذلك الوقت بالضباط والاجتماعات المتواصلة التى كان يعقدها معهم أوجدت نوعاً من الصداقة بينه وبين أكثر الذين يراهم ويجتمع بهم .

كانت الاجتماعات تعقد يومياً تقريباً مع قيادات الجيش . وفى هذه الاجتماعات حدث نوع من الألفة بين الرئيس والضباط .

المهم أننا تحدثنا فى الأمر مع الفريق أول محمد فوزى . قال له السيد أنور السادات أن مسألة هاتف آخر الليل يجب أن تتوقف عند حد حرصاً على حياة

الرئيس . وأنا أيضاً تحدثت فى الأمر مع الفريق أول فوزى . وتجاوب وزير الحربية وأصبح لا يذكر حقيقة الخسائر .

لكن مجرد معاناة عبد الناصر واهتمامه بالموضوعات الثلاثة التى أشرت إليها يكفى لجعل إجازته غير ذات فائدة . وهو على رغم إصابته بالذبحة القلبية كان دائماً مشدوداً إلى تلك الموضوعات .

لـمـاذا ؟

إن خروج الجماهير يومى ٩ و١٠ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ رافضة تنحيه وضعه أمام مسؤولية قال لى ذات مرة أنها أخطر المسؤوليات التى واجهها فى حياته . وكان يرى أن خروج الجماهير يحمل فى طياته مطلباً أساسياً ووحيداً هو أن الجماهير تريد الحرب من أجل التحرير وهى على استعداد لتكاليفها . ولعل هذه الرؤية هى التى جعلته يركز على الموضوعات الثلاثة . كان يريد إعادة بناء الجيش وإعادة التسليح والتدريب بشكل أفضل مما كان قبل ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ . ولأنه حريص على ذلك فإنه أصبح يعالج العلاقات المصرية ــ السوفياتية بكثير من الدقة . ولأنه حريص على ذلك أيضاً فإنه فضل أن يعالج شخصياً مسألة العلاقات العربية . والموضوعات الثلاثة كما نلاحظ متصلة بعضها بالبعض . وهى بمثابة روافد تصب فى نهر واحد هو المعركة التى شعر عبد الناصر بعد الخروج الجماهيرى يومى ٩ و١٠ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ أن عليه التحضير لها .

وكان يهيىء للمعركة ، ومرض السكر الذى نشأ فى أعقاب الانفصال السورى يسرى فى جسده . واستمر يهيىء للمعركة على رغم إصابته بالأزمة القلبية الأولى نتيجة لتأثر بالغ من عملية الزعفرانة على خليج السويس ، وهى عملية كانت استعراضية هدفها إحداث تأثير نفسى .

والتهيئة للمعركة كانت عملية شاقة ، لكن جمال عبد الناصر وجد نفسه أمام نوع من التحدى ، وهو يرفض التراجع أمام التحديات . هكذا طول تاريخه .

يبدو أن القيادة السوفياتية بعد التقرير الذى رفعه إليها الدكتور شازوف عن الأزمة القلبية الأولى التى تعرض لها عبد الناصر كانت تتابع المسألة بكثير من الدقة .

وذات يوم بعث الدكتور شازوف بعدما لاحظ أن عبد الناصر لم يتقيد بالتعليمات برسالة إلى الرئيس يتمنى عليه فيها أن ينفذ مسألة الأجازة لأن ذلك ضرورى جداً . والذى حمل شازوف على توجيه هذه الرسالة هو أنه كان يتابع يومياً نشاطات جمال

عبد الناصر ووجد أن القضية ستكون خطيرة إذا لم يمتثل الرئيس للوصفات الطبية وأبرزها على الأطلاق الإجازة .

وقدر عبد الناصر للدكتور شازوف مشاعره إنما استمرت الأمور على ما كانت عليه.

وذهل الدكتور شازوف مرة وهو يتطلع فى الصور التى وزعت على العالم وتمثل الاستقبال الجماهيرى الحاشد الذى جرى لعبد الناصر فى بنغازى .

كان ذلك يوم الأحد ٢٨ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٩ وكان عبد الناصر فى زيارة لليبيا قام بها فى أعقاب انتهاء مؤتمر القمة العربى الخامس الذى عقد فى الرباط .

وبعد نزول جمال عبد الناصر من الطائرة فى مطار بنغازى ركب سيارة جيب نقلته من المطار إلى قصر الضيافة . واستمر واقفاً فى السيارة يرد التحية للجماهير الليبية نحو أربع ساعات . فعل ذلك وهو المصاب حديثاً بذبحة قلبية .

وقرأ الدكتور شازوف فى موسكو عن الاستقبال وشاهد الصور واتصل فوراً ببريجنيف يحذر . وفى اليوم نفسه بعث بريجنيف برسالة إلى عبد الناصر وهو ما يزال فى بنغازى يقول فيها أن الدكتور شازوف اتصل به محذراً ومنبهاً . وتمنى بريجنيف على الرئيس عبد الناصر أن يأخذ فى الاعتبار دقة وضعة الصحى . وقال الزعيم السوفياتى فى رسالته أن شازوف أوضح له أنه لا يستطيع تحمل المسؤولية لأن هذا النوع من الإجهاد الذى يبذله عبد الناصر من الصعب مواجهته .

ومر الأمر بسلام . وعاد عبد الناصر إلى القاهرة . عاد يتحمل العذاب والألم ويرفض الراحة .

وفى الأسبوع الأول من يوليو (تموز) ١٩٧٠ توجه عبد الناصر إلى الاتحاد السوفياتى وأمضى نحو أسبوعين فى « بربيخه » وهو مصح مهم . وفى هذه الفترة خضع لعلاج من الدكتور شازوف .

وذات يوم طلب منه شازوف أمراً اعتبره عبد الناصر مستحيلا لكنه كان ضرورياً فى نظر شازوف لمواجهة أزمة أخرى فى القلب . والطلب كان عبارة عن برنامج راحة كالآتى : أن يعمل الرئيس خمس ساعات فى اليوم وخمسة أيام فى الأسبوع وثلاثة أسابيع فى الشهر . وأن يأخذ كل ثلاثة أشهر إجازة .

كان ذلك فى نظر الدكتور شازوف ضرورياً وسيفيد خصوصاً أن عبد الناصر كان أوقف التدخين .

وقال له عبد الناصر أن مثل هذا البرنامج يبدو مستحيلا بالنظر إلى الظروف التى تجتازها مصر وإلى المعركة التى يجرى الإعداد لها .

وبالإضافة إلى برنامج الراحة جدد الدكتور شازوف طلبه المتعلق بوقف القلق . وقال له عبد الناصر إن ذلك مستحيل .

وكانت فترة المعالجة فى « بريبخه » مفيدة بعض الشئ وكانت ستفيد كثيراً لو أن عبد الناصر وافق على البقاء شهراً كما اقترح شازوف ، لكن عبد الناصر كان مستعجلا فى العودة إلى مصر . ولجأ شازوف إلى بريجنيف يرجوه الإلحاح على عبدالناصر لكى يبقى . لكن عبد الناصر قال إن عليه أن يكون فى مصر قبل يوم ٢٠ يوليو (تموز) ١٩٧٠

بعدما عاد عبد الناصر من موسكو اقتنع بعض الشئ بأن عليه أن يأخذ إجازة قصيرة ما دامت الإجازة كما حددها الدكتور شازوف تبدو مستحيلة . ولم يكن فى حسابه أن الأمور ستتفاقم إلى الحد الذى وصلت إليه .

والذى حدث تسلسلا هو أن الرئيس عبد الناصر أعلن بعد أيام قليلة من عودته ، فى المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى العربى ، قبول بادرة روجرز لأنه يريد استكمالا لمخطط تهيئة المعركة بناء حائط الصواريخ . وفسر قبوله على غير ما كان يقصد . ولكنه ارتضى الصراخ الذى اندلع من مواقع كثيرة من أجل أن تنتهى عملية بناء حائط الصواريخ . وحز فى نفسه أن المقاومة الفلسطينية أثارت مشكلة . وما كادت هذه المشكلة تنتهى ويحدث نوع من التفاهم حتى بدأت المشاكل فى عمان بين المقاومة والسلطة الأردنية . وعملية بناء حائط الصواريخ كانت أعظم معارك عبد الناصر على الإطلاق فى تلك المرحلة على رغم ألمه الشديد من الخسائر التى أحدثتها العملية .

وشجعنا اقتناعه النسبى بضرورة أخذ الإجازة . وسافر الرئيس إلى مرسى مطروح .

وقلنا : هذه بداية مهمة . لعل الرئيس فى هذه الإجازة يرتاح ويستعيد صحته ويصون قلبه .

وقبل أن يسترخى على رمال مرسى مطروح اندلع القتال فى الأردن . وحاولنا ألا نبلغه شيئاً لكنه وهو الذى يحرص على متابعة الإذاعات عرف بما يجرى وبدأ يتصل بالقاهرة .

وقطع الإجازة وعاد من مرسى مطروح متحملا آلامه . وبدأ مساعيه من أجل الإعداد لقمة عربية تضع حداً للأحداث الدموية التى تفاقمت فى الأردن بين الجيش والمقاومة .

وكان التحضير لهذا المؤتمر عملية شاقة . فلكى ينعقد هذا المؤتمر يجب إحضار ياسر عرفات وبقية قادة المقاومة من الأردن . ولكى ينجح المؤتمر لابد من السيطرة على كل الانفعالات التى ستشهدها المناقشات .

كان هدفه أن يتوقف القتال بأى شكل . وأجزم أن الجهد الذى بذله جمال عبد الناصر فى ذلك المؤتمر لم يبذله فى أى مؤتمر آخر . حتى فى مؤتمر القمة فى الخرطوم الذى عقد فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ لم يبذل جهداً بنسبة الجهد الذى بذله فى قمة القاهرة لوقف إراقة الدم فى الأردن .

وأذكر حالة انفعال غير مألوفة لدى عبد الناصر . كان ذلك فى اليوم قبل الأخير من قمة القاهرة . وكان طوال انعقاد هذه القمة ينام فى إحدى غرف فندق هيلتون حيث عقدت الاجتماعات . فى ذلك اليوم توجه عبد الناصر إلى غرفته لينام . وكان فى غاية الإرهاق . وفى هذه الفترة القصيرة أبلغنا ياسر عرفات أنه تسلم رسالة موقعة تفيد أن الملك حسين قبل أن يأتى إلى القاهرة أعطى أوامره بتصفية المقاومة . وطلب عرفات إحاطة الرئيس عبد الناصر على وجه السرعة بالأمر . وحيال ذلك دخلت على عبد الناصر وكان ذلك بعد ربع ساعة من توجهه إلى غرفته . أيقظته وأبلغته ما قاله عرفات . وفى ثوان ظهرت عليه حالة الانفعال غير المألوفة .

هنالك تساؤل أساسى : هل أن الأزمة القلبية الثانية التى أصابت عبد الناصر وهو يودع أمير الكويت فى المطار يوم ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٠ كانت قوية إلى درجة أنها كانت القاضية ، وأين كان الأطباء فى ذلك الوقت ؟

الواقع أن الأطباء كانوا إلى جانب عبد الناصر أو قريبين منه عندما كان يودع أمير الكويت . لكن الذى حدث هو أنه عند سلم الطائرة شعر بالتعب . ولمجرد أن بدأ أمير الكويت يصعد سلم الطائرة ركب عبد الناصر سيارته وطلب أن تلحق به سيارة الأطباء إلى منزله . وفى المنزل أجرى الأطباء تشخيصاً وتبين لهم أن الأزمة القلبية الثانية قوية جداً وقد تبعها انفجار فى الشريان .

فؤاد مطر : بصفتك كنت أقرب الناس إلى جمال عبد الناصر ، هل تذكر وقائع الساعات الأخيرة فى حياته من الزاويتين الإنسانية والسياسية ؟

محمد حسنين هيكل :

أستطيع أن أروى ما شاهدته أو تابعته . بعد انتهاء قمة « الهيلتون » يوم ٢٧ سبتمبر (أيلول) شاهدت عبد الناصر يستعد لمغادرة الفندق إلى منزله . وكان ذلك نحو العاشرة ليلا .

وكان بلغ عبد الناصر أن العقيد معمر القذافى توجه إلى المطار ليركب طائرته

عائداً إلى ليبيا وأنه تعمد ألا يعرف عبد الناصر بذلك لأنه لا يريد أن يحمله مشقة التوديع . فقد شعر القذافى والآخرون أن عبد الناصر بذل مجهوداً شاقاً فى المؤتمر . ووجد القذافى أن ذهاب عبد الناصر إلى المطار ليودعه من شأنه أن يتعبه . أما الآخرون فكانوا سيسافرون فى اليوم التالى .

وبعدما قيل لعبد الناصر أن القذافى غادر إلى المطار لحق به لـكن القذافى كان ركب طائرته وسافر . وعندها توجه إلى منزله فى « منشية البكرى » .

وأذكر أن عبد الناصر قبل أن يغادر الفندق ليلحق بالقذافى ويودعه كان طلب منى أن أوافيه بما قررته لجنة سميت « اللجنة العليا لمتابعة تنفيذ الاتفاق بين الأردن والمقاومة » ، وتألفت منى (بصفتى وزيراً للأعلام) ومن الفريق محمد أحمد صادق (كان آنذاك رئيساً للأركان) والباهى الأدغم . وقد عقدنا فى حينه اجتماعاً فى غرفة الباهى الأدغم رئيس اللجنة للبحث فى المهمة التى سيتولاها .

واتصلت بعبد الناصر وأبلغته ما بحثناه . وفى هذا الوقت كان السفير البريطانى طلب أن يقابلنى على وجه السرعة لتسليمى رسالة عاجلة من إدوارد هيث متعلقة بحوادث خطف الطائرات . وكانت حدثت فى ذلك الحين عمليات خطف الطائرات . وكان هنالك رعايا بريطانيون ضمن هذه الطائرات . وطلبت من السفير أن يلاقينى إلى منزلى . وهناك سلمنى الرسالة .

واتصلت بمنزل الرئيس . سألت إذا كان لم ينم بعد . وقيل لى أنه لم ينم . وعندها طلبت إيصالى به . شعرت من صوته أنه مرهق جداً . قلت له عن الرسالة التى سلمنى إياها السير ريتشارد بومونت سفير بريطانيا فى القاهرة ، فطلب أن اقرأها . وقلت له ردى على الرسالة وسألته إذا كان الرد معقولا . ووافقنى على أن الرد معقول .

وسألنى عن ردود الفعل حول اتفاق القاهرة فأجبته بأنه لم تصدر بعد ردود فعل . وقلت له : هل إذا جاءت رود فعل أتصل بك ؟ وأجاب : لا . سأنام . نتكلم فى الصباح .

صباح ٢٨ سبتمبر (أيلول) توجهت إلى مكتبى . وللمناسبة فإننى كنت أمارس العمل الوزارى من مكتبى فى « الأهرام » وأمر على الوزارة ساعة أو أكثر يومياً عند الظهر . ونحو التاسعة صباحاً اتصل بى الرئيس عبد الناصر هاتفياً على مكتبى فى « الأهرام » يسأل عن ردود الفعل حيال اتفاق القاهرة وكان مهتماً جداً بمعرفة رد فعل إسرائيل . وأنا سلفـاً كنت جمعت ردود الفعل ومن ضمنها رد فعل إسرائيل .

وأحطته علماً بردود الفعل وتناقشنا فى الأمر . وكان محور المناقشة : ما الذى يمكن أن تفعله إسرائيل حيال هذا الاتفاق ؟

وقبل أن يتصل بى كان عبد الناصر اتصل بالفريق صادق يسأل عن الموقف فى عمان وعما إذا كان القتال توقف بين المقاومة والجيش الأردنى .

بعد ذلك توجه إلى المطار ليودع الملك فيصل وبعض الملوك والرؤساء الذين شاركوا فى القمة . ونحو الثانية عشرة والنصف ظهراً اتصل بى ثانية هاتفياً وقال أنه عائد من المطار فى غاية التعب . وقال أيضاً عبارة تشاءمت منها وهى « فاضل الوداع الأخير . . . مع أمير الكويت » .

وقلت له : ما دمت متعباً إلى هذا الحد فلماذا لا يقوم أحد بالنيابة عنك بتوديع أمير الكويت ؟

أجاب : صحيح ان ألم قدمى شديد لكننى سأضعهما فى المـاء والملح وهى وصفة قديمة يلجأ إليها الفلاح المصرى فى مثل هذه الحالات .

ورداً على تحفظ منى تجاه هذه الوصفة أجابنى بما معناه أنه يعرف أننى « بتاع تكنولوجيا » وأنه متأكد من أن الوصفات البلدية تفيد .

وقال لى أنه سيتوجه إلى المطار ليودع أمير الكويت وعندما سيعود لن يتصل بى لأنه يريد أن ينام نوماً طويلا . وذكر لى أنه قال لطبيبه الدكتور أحمد ثروت أن يستعد لإعطائه حبة تمكنه من النوم الطويل .

وقلت له : إذاً ، نتكلم فى اليوم التالى ، أى يوم ٢٩ سبتمبر (أيلول) . وعندما تستيقظ من النوم أرجو أن تتصل بى لأننى لا أريد أن أقطع عليك نومك .

وتوجه إلى المطار ليودع أمير الكويت . وكان قبل ذلك طلب من زوجته وأولاده انتظاره لتناول طعام الغداء معهم ذلك أنه طوال فترة انعقاد قمة (الهيلتون) لم يرهم لأنه كان مقيما فى الفندق .

بعدما عاد إلى منزله من توديع أمير الكويت توجه على الفور إلى غرفة نومه . وكشف عليه طبيبه الذى كان لحق به . وشعر أنه فى حاجة إلى أطباء آخرين فتم اتصال سريع بالأطباء . فى هذا الوقت طلب من زوجته كوبا من عصير البرتقال . تناول نصف الكوب . وكان الأطباء وصلوا .

فؤاد مطر : هـذا ينقلنا إلى الأمر الذى شغل الجميع . إلى الخبر الذى كتبت تقول أنه كان ينتظر سماعه فى نشرة الساعة الخامسة من إذاعة القاهرة . ما هو الخبر إذا كنت تعرفه ؟ وإذا كنت لا تعرفه

فما هى الاحتمالات الممكنة . هل يتصل بأمر داخلى يحسم موضوع الخلافة ام يتصل بالقضية الفلسطينية التى كانت بؤرة اهتمام عبد الناصر فى ذلك الوقت ؟

محمد حسنين هيكل :

فى اعتقادى أن جمال عبد الناصر لم يكن أعطى خلال الفترة التى تبدأ من مغادرته المطار إلى بيته وتنتهى قبل ثوان من الساعة الخامسة ، أوامر ، أو أصدر قرارات تبديل أو تعيين ، وكان ينتظر سماعها من الإذاعة . الذى حدث هو أن عبد الناصر قبل ثوان من انفجار الشريان الذى جاء بعد الذبحة القلبية الثانية وكان قاتلا استدار وفتح الراديو الذى إلى جانب سريره . سمع دقات الساعة الخامسة ثم سمع موسيقى العلامة المميزة لنشرة الأخبار ثم الموجز . وكان صوته خافتاً عندما قال : مفيش حاجة.

وقال له طبيبه الدكتور منصور فايز : سيادة الرئيس . . مفيش داعى للمجهود .

وأجابه عبد الناصر : لا ، أنا كويس الحمد لله .

وألقى رأسه على المخدة . وفى خلال ثوان أرخى يده . كانت الساعة الخامسة والربع تماما . وحاول الأطباء الذين كانوا حوله إسعافه لكن حركة اليد كانت مؤشراً إلى أنه فارق الحياة .

ونعود إلى مسألة الخبر . ان عبد الناصر كان يتابع نشرات الأخبار فى الإذاعات دائماً . وكان يحرص على سماع نشرات الأخبار التى تبثها إذاعة القاهرة . من هنا ان فتح الراديو فى تلك الساعة ، أى فى الساعة الخامسة ، حركة عفوية باعتبار أنه يفتح الراديو فى مواعيد نشرات الأخبار .

فؤاد مطر : ما الذى حدث تماما فى الدولة المصرية عند وفاة جمال عبد الناصر ؟ لقد عاش أركان النظام فى ذلك الجو الحزين والمقلق يتناقشون وشملت المناقشات المحاذير والمخاوف .

من الذى تولى إدارة المناقشات ، وهل من الممكن الوقوف على طبيعة تلك المناقشات وعلى المخاوف والمحاذير ؟

ثم لماذا اتخذت إجراءات عسكرية بعد الوفاة واستمرت حتى انتخاب أنور السادات رئيساً للجمهورية ؟

محمد حسنين هيكل :

كانت صدمة فظيعة ليس لأن قائداً رحل إنما لأن الظروف التى رحل فيها

القائد كانت فى غاية التعقيد . فى ذلك الوقت كان العمل فى حقل الصواريخ أوشك على الانتهاء وموعد انتهاء وقف إطلاق النار أصبح قريباً . والجيش الذى يستعد منذ أن بدأت عملية إعادة بناء القوات المسلحة فى أعقاب نكسة ١٩٦٧ مباشرة ، فقد فجأة قائده الذى عنده الجزء الأكبر من الخطة والذى فى يده اتخاذ قرار المعركة .

ولمجرد أن رحل عبد الناصر أصبح الجو مشحوناً بالصراع على السلطة . وأقول هذا وأنا حزين جداً . من اليوم التالى بدأت كل قوة تسأل عن موقعها . ولعل هذا ما جعلنى أتخذ على الفور قراراً بالاستقالة من الوزارة والتوجه إلى موقعى الحقيقى وهو « الأهرام » . وأنا فكرت فى الاستقالة يوم وفاة عبد الناصر واتخذت القرار بعد يومين . وبعد الجنازة أرسلت كتاب الاستقالة إلى الرئيس السادات . وتحدثت معه فى الأمر وقلت له أننى أرى أن الصراع سيحدث وأنه من الأفضل لك ولى أن أمارس دورى فى « الأهرام » .

وللمناسبة لابد من التسجيل أن السادات كسب الجولة الأولى بذلك الانتقال السهل فى السلطة . وأعتقد أن شخصية السادات المريحة هى التى جعلت عملية الانتقال سهلة . فهو كان مستعدا لاستيعاب كل الاتجاهات ومستعداً لكى يلين أمام العواصف . وبشخصيته المريحة والهادئة لعب دوراً أساسياً يسجل له مع دورين آخرين هما : معركة مراكز القوى وكيف تصرف حيالها . وقرار ٦ أكتوبر ١٩٧٣ وكيف اتخذه .

ووسط الجو الحزين الذى ساد بعد وفاة جمال عبد الناصر كانت هنالك بالفعل محاذير ومخاوف . وكان الأصدقاء السوفيات قلقين جداً . وظهر قلقهم هذا خلال الاجتماع الذى عقد مع اليكسى كوسيغين عندما جاء للمشاركة فى تشييع الجنازة . وقد اختار السادات مجموعة منتقاة لكى تحضر الاجتماع وتتناقش مع رئيس الوزراء السوفياتى .

وحفلت تلك الفترة بالفعل بمناقشات كثيرة أدارتها أطراف كثيرة وكانت كلها حول المستقبل .

أما مسألة اتخاذ الإجراءات العسكرية فإن الإجراءات اتخذت بالفعل . اتخذت بعد وفاة عبد الناصر بقليل واستمرت حتى انتخاب أنور السادات رئيسا . ومن الطبيعى أن تتخذ مثل هذه الإجراءات بالنسبة إلى دولة فى حالة حرب فقدت قائدها فجأة . ويوم الوفاة كانت هنالك فى القاهرة وحدها ثلاث فرق مهمتها أن تحافظ على الأمن .

الفصل العاشر

عن الناصرية :
الماضي والحاضر والمستقبل

فؤاد مطر : لو ألقينا نظرة على الواقع السياسى فى مصر لوجدنا أن لليمين قادته ولليسار قادته فى حين لا نعرف من هم قادة الناصرية .

ولنفترض أن التطورات فرضت ترك كل فريق يمارس نشاطه وشعائره فمن هى القيادات التى ستقود الفريق الناصرى ؟

محمد حسنين هيكل :

إننى أختلف معك فى هذا التقدير . أين هو اليمين ؟ هل هى تلك الشراذم غير المنظمة التى يرتفع صوتها عالياً ؟ أم هى هذه البورجوازية الناشئة ؟

إذا كان هذا المقصود فمن الصعب اعتبار أن ذلك هو اليمين . وإذا جئنا نبحث عن قيادات لهؤلاء فإننا لا نعثر على هذه القيادات . هنالك بقايا من كانوا فى مصر قبل الثورة وعادوا فى ظروف ما بعد المعركة . وهؤلاء ينطبق عليهم تعبير قيل عن أشخاص فى الثورة الفرنسية عادوا بعد نابليون وهو : عادوا من دون أن ينسوا شيئاً أو يتعلموا شيئاً .

هذا بالنسبة إلى اليمين . أما بالنسبة إلى اليسار فالأمر مختلف . إن اليسار موجود فى الأحزاب الشيوعية التى حلت نفسها . ويمكن أن تكون هنالك عناصر فى تلك الأحزاب تعيد التفكير والتقييم فى ضوء الظروف المستجدة لكننى أرى أن الظروف اختلفت لأن تركيب الواقع المصرى اختلف .

قبل الثورة كان هنالك ١٢٠ ألف عامل منضمين إلى نقابات بصرف النظر عن طبيعة تلك النقابات . الآن هنالك نحو ثلاثة ملايين عامل نقابى . بالتقسيم القديم يمكن أن نقول أن أشخاصاً معينين هم قادة العمال ، وأن أشخاصا معينين هم قادة اليمين أو قادة اليسار . أما بمفهوم ما بعد الثورة فإن تركيبة الواقع المصرى اختلفت وذلك بفعل الناصرية .

وعندما ألقى نظرة على الواقع الاجتماعى فى مصر الآن أرى أن التيار الأساسى فى الجماهير المصرية هو تيار ناصرى ، وأن الثلاثة ملايين عامل هم نتاج التجربة الناصرية . ونصف المليون شاب الذين تضمهم الجامعات المصرية هم نتاج التجربة الناصرية وهؤلاء قرأوا الميثاق ونموا فى الوقت الذى كانت مصر تقود حركة

ثورة وطنية . هؤلاء انتماؤهم الحقيقى انتماء ناصرى ، وحركتهم تسير فى الاتجاه الإيجابى من الناصرية ، تجاه التحرر والتحول الاشتراكى وسيطرة الشعب على موارده وديموقراطية قوى الشعب العاملة .

تتساءل : من هم قادة الناصرية ؟ إن القيادة السياسية الحالية قيادة ناصرية والرئيس أنور السادات الذى ورث التجربة هو المسؤول عنها . وفى ١٥ مايو (ايار) ١٩٧١ أسقط الرئيس السادات ما لحق بالناصرية من شوائب . وهو عندما توجه إلى مجلس الأمة وقال أنه آت ببرنامج ٣٠ مارس كان يعبر عن تمسكه بالتجربة الناصرية . وعندما تمسك بالميثاق الذى يمثل الوثيقة الأساسية للثورة فإنه كان يتمسك بالتجربة الناصرية .

من هى قيادات الناصرية ؟ إنها قيادات ستظهر فى المستقبل ومن وسط التجربة .

وعندما نتأمل فى القوى الاجتماعية المصرية المتمسكة بالمبادىء الأساسية للناصرية نفترض أن هذه القوى ستفرز قيادات . ونفترض أن القوى ستفرز قياداتها من خلال التحدى للناصرية من جانب بعض القوى العاجزة والوافدة والتافهة والمتراجعة . والقيادات التى ستفرزها القوى الناصرية ستكون من نوع جديد .

فؤاد مطر : إذا شئنا أن نعرف الناصرية فكيف نعرفها ؟

محمد حسنين هيكل :

الناصرية هى نقل مصر إلى الكيان والطموح والوجود العربى كجزء لا يتجزأ منه . ثم نقل الكيان العربى والطموح العربى إلى العصر الحديث ، بمعنى أن مصر والعالم العربى ، هذا الكيان الجديد الذى ساهم جمال عبد الناصر فى بلورته ، أصبح مؤثرا فى حركة الثورة الوطنية . والناصرية هى الدفاع عن الحرية والحرب على الاستعمار ، وهى تحول المجتمعات العربية من مجتمعات تقليدية متخلفة إلى مجتمعات تلحق بالعصر سواء فى ما يتعلق بقوة المجتمع الإنتاجية أو بقيمة الفرد والإنسان فى هذا المجتمع . والناصرية هى العمل للحاق بالتكنولوجيا والانفتاح على العالم ، وهى حركة القومية العربية وحركة التصنيع وحركة الاشتراكية وحركة التأثير فى العالم والتحول فى أفريقيا .

فؤاد مطر : لـكن التجربة الناصرية حفلت بحالات قسر كثيرة . هل كان ذلك طبيعيا ؟

ثم لماذا اعتمد عبد الناصر على التنظيم الطليعى ولم يعتمد على الرأى العام ؟

محمد حسنين هيكل :

الاعتقالات والتجاوزات التي حدثت — مع اعتراضي الكامل عليها — تأتى على هامش التجربة .

ومن الطبيعي بالنسبة إلى تجربة سياسية واجتماعية مثل التجربة الناصرية أن تحدث حالات قسر . وهذا القسر حدث فى كل تجربة تاريخية شرقية أو غربية . والقسر الذى حدث فى التجربة الناصرية أقل من القسر الذى حدث فى تجارب أخرى عربية أو غير عربية .

وأنا أختلف معك بالنسبة إلى مسألة التنظيم الطليعي . إن جمال عبد الناصر ، اعتمد على الرأى العام أكثر مما اعتمد على التنظيم الطليعي أو أى تنظيم . وهو عندما فكر بعد حرب ١٩٦٧ فى التنظيم الطليعي فبهدف أن يتولى هذا التنظيم إدارة حركة التناقضات داخل التحالف على أمل تذويب الفوارق بين طبقات التحالف .

وأؤكد أن عبد الناصر لم يعتمد على التنظيم الطليعي وأن التنظيم لم يكن قوة مؤثرة بدليل أنه نفخ عليه فى ١٥ مايو (ايار) ١٩٧١ فطار ولم يبق منه شئ . إن عبد الناصر كان يهمه الرأى العام ويعتمد عليه داخل بلده وخارجه .

فؤاد مطر : ما السر فى أن الناصرية كانت ومازال قوية خارج مصر وضعيفة داخل مصر ؟

محمد حسنين هيكل :

بالنسبة إلى هذه المسألة اختلف أيضاً معك . إن الناصرية كانت كامنة وغير ظاهرة فى مصر لأن عبد الناصر كان يحمى وجودها ويغطيه . وبعد رحيل عبد الناصر وبالتحديد بعد ٦ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ حدثت محاولات للعودة إلى الوراء . فمن الذى تصدى لهذه المحاولات ؟

إن الذين تصدوا لها هم الناصريون من شبان وطلاب جامعات وعمال وفلاحين .

ثم هل أن الذين ساروا فى جنازة عبد الناصر ساروا بفعل التأثر والحزن على رجل غاب ؟ هل أن تلك المسيرة التى ضمت خمسة ملايين كان هدفها التعبير عن الحزن العميق ؟

رأيى الشخصى أنها لم تكن حالة تأثر إنما كانت تعبيراً عن الرفض لأى صراع بين القوى ، وتمسكاً بالاستمرارية .

ثم لنأخذ أيضاً مثلاجماعة ١٤ مايو (ايار) ١٩٧١ . كانت فى أيدى أفراد هذه الجماعة كل القوى الأساسية فى أجهزة الدولة ، وكان الرئيس السادات وحده .. وكان

تكتيك هؤلاء عندما استقالوا ليلة ١٣ مايو (ايار) أن الشارع سيتحرك ليفرضهم من جديد على الرئيس السادات وبأوضاع أقوى وشروط أفضل . ولقد بقى الموقف معلقاً طوال ذلك الليل فى انتظار أن تحسم الجماهير الموقف والصراع . ولقد حسمتها لمصلحة الرئيس السادات . الجماهير هى التى نصرت أنور السادات لأنها ضد محاولات اللعب بالسلطة . وكانت الجماهير واضحة أيضا فى حرصها على الاستمرارية ورفضها لأى صراع بين القوى .

أما أن تكون الناصرية تبدو كأنها غائبةفى مصر أو أن هنالك محاولات للتشكيك فيها ، فى حين أنها مندفعة خارج مصر ... هذا يعود إلى ظروف معينة . فى مصر قد تكون الناصرية أصابت بعض القوى إصابات مباشرة ، وهذه القوى تتمثل فى أصحاب المصانع والطامحين إلى أن يصبحوا أصحاب مصانع ، وفى كبار ملاك الأرض والطامحين إلى أن يصبحوا إقطاعيين ، بالإضافة إلى بعض القوى السياسية التى رفضت التأقلم مع التجربة . قد تكون الناصرية بالفعل أصابت هذه القوى فى مصر ، أما خارج مصر فإن التجربة كانت بريقاً وحلماً ولا ضحايا لها . وعدم وجود عبد الناصر خارج مصر جعل الناصرية تبدو غير مغطاة تستقطب الجماهير يوماً بعد يوم من دون أن تقف فى وجهها قوى معادية .

الناصرية فى مصر موجودة كحكم . خارج مصر موجودة كحلم . الحكم له من يتصدى له أما الحلم فمن يستطيع التصدى له . والناصرية فى مصر ، لأنها موجودة كحكم ، أصابت بعض القوى فى مصالحها ، أما خارج مصر فإن أحداً لم يصب لأن الحلم لا يصاب .

فؤاد مطر : متى فى تصورك ينصف عبد الناصر ومتى تحدد السلبيات والإيجابيات فى مرحلة التجربة الناصرية ؟

محمد حسنين هيكل :

شخصياً أرى أن عبد الناصر ينصف يوماً بعد يوم . وألاحظ أن الحملات على سلبيات التجربة الناصرية تسقط يوماً بعد يوم ويزداد بروز الإيجابيات .
والإنصاف الحقيقى لعبد الناصر سيكون بعد انتهاء محنة ١٩٦٧ لأن هذه المحنة غطت إنجازات كثيرة حققها عبد الناصر .

لقد غاب عبد الناصر عن المسرح وهنالك احتلال . ثم تجاوزت بعض العناصر استعمال السلطة باسمه فكان من السهل الخلط بين ما هو إيجابى وما هو سلبى فى التجربة.



عبد الناصر : يفكر



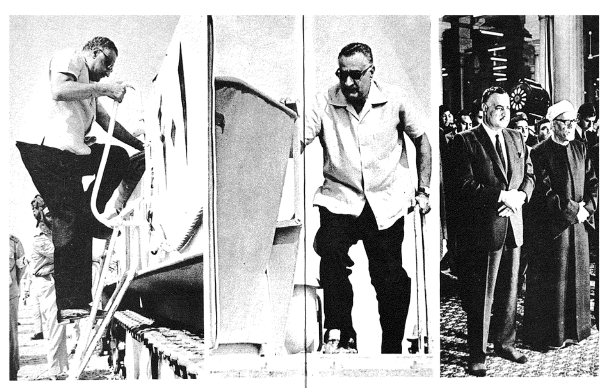
ويتأمل



ويصور







آخر صلاة عيد أداها عبد الناصر

وآخر زيارة قام بها إلى الجبهة .. وكان ذلك عام ١٩٦٩ . وفي الصورتين يبدو عبد الناصر في غاية الإرهاق وهو يصعد سلم دبابة ليصل إلى سطحها



في الطريق لوداع أمير الكويت

الصورة الأخيرة لعبد الناصر

لكن الذين استعملوا اسم عبدالناصر انتهوا . وكفاح الشعب المصرى يصحح ما تركته هزيمة ١٩٦٧ من آثار على صفحة التجربة . والكفاح سيستمر لأن الصراع مستمر ، وسيظل مستمراً وتتخلله غارات . وعندما تنتهى آثار محنة ١٩٦٧ تصبح الرؤيا أكثر وضوحاً وتظهر إيجابيات التجربة الناصرية . وعندها ينصف عبد الناصر وتتأكد أهمية التجربة التى أحدثت تغييراً جذرياً فى مصر والوطن العربى وأفريقيا .

فؤاد مطر : بمقدار ما كان عبد الناصر يبدو عملاقاً وقوياً فى حياته وتبدو معه مصر بوزن قوى ومؤثر فى الحياة العربية والحياة الدولية ، فإن نظامه بدا لمجرد وفاته على درجة كبيرة من التفكك والإنقسام .

هل يأتى ذلك نتيجة خلل فى التوازن بين قوة الذات الناصرية وضعف النظام الناصرى ؟

محمد حسنين هيكل :

الذى حدث فى ٩ و١٠ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ كان تثبيتاً للناصرية وتأكيداً أن عبد الناصر هو التعبير عن تلك القوة البشرية الضخمة التى خرجت من دون تدبير ترفض التنحى وتتمسك بعبد الناصر المهزوم . وبين هذه الفترة ويوم الوفاة عاش النظام المصرى وسط حرب نفسية عنيفة جداً . وحدث نوع من التمزق العربى نشأ عن قبول عبدالناصر مشروع روجرز . وفجأة يختفى عبد الناصر بينما الحرب العنيفة جداً ضد نظامه ما تزال قائمة والتمزق العربى ما يزال قائماً . ولم يكن أحد يتوقع مثل هذا الأمر . والقيادات لم تكن جاهزة لمواجهة ما حدث بشكل صاعق .

وعلى رغم ذلك فإن النظام الناصرى هو الذى صنع أكتوبر ١٩٧٣ . وإذا كان بعض المحسوبين على عبد الناصر أقدموا على حركة غير مسؤولة فى ١٣ مايو ١٩٧١ فإن هؤلاء لم يستطيعوا هدم شئ فى النظام الناصرى .

إن النظام الناصرى هو الذى صنع أكتوبر ١٩٧٣ . هذه حقيقة لا جدال فيها . وكل الشوائب التى جاءت بعد العبور تتعلق بالتجربة لم تساهم فى العبور . إنها شوائب سلبية جاءت بعد العبور لتنهش فى النظام الناصرى الذى قاده أنور السادات بعد وفاة عبد الناصر وحقق فى أكتوبر ما حققه ، أياً كانت قيمة ما تحقق ، والقيمة كبيرة بلا جدال .

إذاً ، إن النظام الناصرى ظل متماسكاً على رغم ظروف سيئة واجهته إلى أن صنع أكتوبر . وبعد أكتوبر حصلت هجمة على الناصرية . وعندما بلغت الهجمة ذروتها فى سبتمبر (أيلول) ١٩٧٤ لم أكن فى مصر . كنت فى الخارج وبلغنى أن قوى

كبيرة جداً وقفت تتصدى دفاعاً عن الناصرية وعبد الناصر والمنجزات الإيجابية لعبد الناصر .

ما معنى هـذا ؟

معناه فى رأيى أن النظام الناصرى قوى وغير منهار بدليل أنه واصل بقوته الذاتية وبامتداده الطبيعى بأنور السادات السير إلى أن حقق ٦ أكتوبر . وبعد ٦ أكتوبر حدثت تشويشات وجاء البعض للتعلق بالتجربة ، وهم من الذين لم يشاركوا فى معركة أكتوبر . جاءوا فى آخر النهار متأخرين جداً .

وهذه العناصر عندما بدأت تهاجم النظام الناصرى حدث التصدى لها من داخل مصر على رغم أنه بدا لوهلة من الوهلات أن بعض عناصر السلطة تشجع هذا الهجوم. وهذا يعنى أن النظام الناصرى قوى وليس متهاوياً .

فؤاد مطر : نحن الآن فى ٢٧ أغسطس (آب) ١٩٧٤ . ومنذ وفاة جمال عبد الناصر يوم ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٠ حتى يومنا هذا حدثت تطورات مهمة على صعيد الكلام والمواقف تتعلق بعبد الناصر والناصرية . حتى أن هنالك تصوراً يصل إلى درجة الاقتناع بأن التراب يهال على عبد الناصر والناصرية بحيث يجب أن تكون فترة الحكم الطويلة مجرد إرث وليس استمراراً كما اتفق على ذلك .

ما الذى بقى من جمال عبد الناصر وهل ترك وصية سياسية معينة مودعة الخزانة المقفلة وهل هذه الوصية تنفذ ؟

وهل ما يكتب فى صحافة مصر عن عبد الناصر والناصرية بطريقة أو بأخرى هو أمر عفوى .

وتبعاً للملك هل أنت مطمئن إلى أن الناصرية مستمرة فى مصر ؟

محمد حسنين هيكل :

أعود إلى الخصوم الذين يقومون بعملية التجريح لأقول إن مثل هذا الرجل يمكن مهاجمة أفكاره ولكن من العيب التجريح به . فجمال عبد الناصر عاش لأمته العربية ومات من أجلها . أحسن وأخطأ مثل أى زعيم أو قائد تاريخى .

إن عبد الناصر أوجد قيمة لخصومه . حتى الذين اختلف معهم عقائدياً وفكرياً فى العالم العربى أصبحت لهم قيمة . إن العالم العربى وضع على خريطة العالم الحديث أيام عبد الناصر . من كان متنبهاً للموارد العربية ؟ ومن كان يفكر بتأميم الموارد

العربية ؟ ومن كان قادراً على التصدى للاستعمار ؟ ومن كان فى قدرته مواجهة تحديات الدول الكبرى ؟

إنه عندما يقال الآن أرض العرب للعرب وبترول العرب للعرب وموارد العرب للعرب يجب أن نتذكر وأن يتذكر الآخرون أن أول تأميم عربى هز الدنيا كلها كان تأميم قناة السويس . وأن أول حركة انتصار للثورة العربية كانت الانتصار فى السويس . بعد تأميم القناة وانتصار السويس حدثت متغيرات فى بقاع كثيرة من العالم . فى أفريقيا حدثت متغيرات كثيرة . وفى آسيا أيضاً . وهذا مجد لا يملكه جمال عبد الناصر إنما تملكه الأمة العربية لأن عبد الناصر فى النهاية من نتاج هذه الأمة . إن جمال عبد الناصر لم يصنع الأمة العربية لكن الأمة العربية هى التى صنعته . كذلك ان عبد الناصر نتيجة طبيعية لمصر وليست مصر نتيجة طبيعية له .

تسألنى ماذا بقى من جمال عبد الناصر ؟

أقول أن الذى بقى من عبد الناصر هو الناصرية .

إن جمال عبد الناصر له أخطاؤه . ومن يقول أن لا أخطاء لعبد الناصر يكون متجنيا على الإنسانية . عبد الناصر له أخطاء سياسية كبيرة أو صغيرة . ولكن عندما يحاسب رجل تاريخى مثل عبد الناصر لا يحاسب على الأخطاء إنما على التحولات التى حدثت فى عهده ، وتحقيق الأفكار المتلائمة مع هذه التحولات .

ما هى هذه التحولات ؟

لقد طرح عبد الناصر بقوة فى العصر الحديث إمكان تحقيق الوحدة العربية . وطرح إمكان سيطرة العرب على ثرواتهم . وطرح الاشتراكية . وطرح الحرب ضد الاستعمار . طرح مسألة كون العالم العربى جزءاً من الثورة الوطنية . طرح قضية التصنيع الثقيل ، وقضية الأرض والفلاح ، وقضية ديموقراطية الغالبية التى هى العمال والفلاحون .

طرح عبد الناصر كل هذا وبدأ يطبق . كانت تجربة التطبيق ناجحة فى مجالات كثيرة .

إننى أرى وجه عبد الناصر فى أماكن كثيرة . أراه فى الطريق الصحراوى من القاهرة إلى الإسكندرية وعلى ناحيتى الطريق . أتطلع فى أسلاك الكهرباء فأرى وجه عبد الناصر . أتطلع فى الأرض الجديدة فأرى وجهه . أتطلع فى السد العالى فأرى الوجه أيضاً .

أرى وجه عبد الناصر أيضاً فى كل مصنع وفى كل قرية وصلتها الكهرباء .

أراه فى قوة العمل النقابى . فعندما قامت الثورة كان فى مصر ربع مليون عامل . الآن فى مصر ثلاثة ملايين عامل منتظمون فى نقابات واتحادات .

لقد جاء عبد الناصر إلى الحكم والعالم العربى عبارة عن دول مستعمرة أو شبه مستعمرة . وذهب والعالم العربى كله مستقل فى مقابل جزء من مصر محتل . وفى مقابل هذا الجزء المتمثل فى سيناء والجزء المحتل الآخر المتمثل فى الجولان ، وفى مقابل احتلال الضفة الغربية فى الأردن ، تحررت مصر كلها وتحرر السودان والجزائر وتونس والمغرب وليبيا واليمن والأردن والعراق وإمارات الخليج . تحررت هذه الدول وأصبحت تتحكم بثرواتها .

لم يكن أحد يتكلم عن التخطيط . بعد عبد الناصر أصبح التخطيط مطلباً ضرورياً فى قضية التحول الاجتماعى التى بدأها عبد الناصر .

لقد حدثت تجاوزات خلال حكم عبد الناصر . وأنا كتبت وعبد الناصر ما يزال حياً أنه حدث تجاوز فى استعمال السلطة فى الداخل ، وحدث أيضاً تجاوز فى استعمال القوة فى الخارج . وما زلت حتى الآن على قناعتى هذه بالنسبة إلى التجاوزين . كذلك كتبت وعبد الناصر ما يزال حياً : « حان الوقت لـكى ننتقل من ديموقراطية بالموافقة إلى ديموقراطية بالمشاركة » . وكتبت أيضا أنه إذا لم يكن النظام قادراً على صنع التغيير المطلوب فيصبح المطلوب هو تغيير النظام . وفى أيام عبد الناصر كتبت أنتقد القطاع العام محذراً من أن يكبله القطاع الحكومى القديم بقيود الروتين ويفقده حيويته . وفى ١٩٦٤ — ١٩٦٥ كتبت كثيراً عن مراكز القوى وسيادة القانون والمجتمع المفتوح و « زوار الفجر » . ونشر فى « الأهرام » نقد للتجربة بأقلام توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وحسين فوزى ولويس عوض ولطفى الخولى . وأنا لا أشير إلى ذلك تباهياً إنما قصدى أننا كنا نكتب أيام عبد الناصر عن التجربة وناقشها من موقع الحفاظ على التجربة وليس من موقع الإساءة إليها والسعى لتقويضها .

وهنالك أمر يغيب عن أذهان البعض . لقد قرر عبد الناصر القيام بعملية التحول الاجتماعى . وتبعاً لذلك عمد إلى نقل الملـكية الأجنبية فى مصر إلى الملـكية الوطنية . هل يا ترى كان يجب أن يلجأ إلى الإقناع لتحقيق ذلك ؟ هل أنه بالإقناع كان يستطيع تمصير شركات التأمين وتجارة القطن وتجارة الصادر والوارد وجزء كبير من قطاع التصنيع ؟

وهل كان يستطيع بالإقناع تحقيق الإصلاح الزراعى وتحديد الملـكية ؟ وهل كان فى الإمكان أن يطلب من فرد يملك مئة ألف فدان أن يحتفظ بمئة فدان ويوزع الفدادين الأخرى على الفلاحين ؟

من الطبيعى أنه لم يكن يستطيع ذلك ، ولذا كان يصعب تفادى عنصر القسر فى سبيل إحداث الثورة الاجتماعية . لقد استعملت القوة وسلطة الدولة من أجل الثورة الاجتماعية . ولم يكن من السهل تحقيق ذلك بالمناقشة والإقناع . إن أى باشا أو إقطاعى لن يتنازل عن شبر واحد من ألوف الفدادين التى يملكها إذا كانت المسألة مسألة مناقشة وإقناع .

وبسبب اللجوء إلى القوة واستعمال سلطة الدولة من أجل تحقيق الثورة الاجتماعية حدثت أخطاء . ومن الطبيعى أن تحدث هذه الأخطاء . ولا بأس من مناقشة هذه الأخطاء .

وأنا شخصياً أرحب بهذه المناقشة ، بل لابد من فتح كشف حساب علنى ، إنما من دون غرض ولا هوى ولا تجريح .

صحيح أنه حدث تجاوز فى استعمال السلطة فى الداخل . هذا الأمر من المنطق مناقشته إنما بموضوعية وأخلاق .

وصحيح أنه حدث تجاوز فى استعمال القوة فى الخارج . هذا الأمر من المنطق أيضا مناقشته إنما بموضوعية وأخلاق مع الأخذ بالظروف التاريخية .

لا بأس من المناقشة ومن المحاسبة ولكن بمنطق المواجهة الكاملة مع الاستعمار ، ومع مراعاة كون حركة الثورة العربية لم تبدأ الاعتداء على أحد . الذى حدث أنها هى التى كانت مستهدفة .

حتى الذين يأخذون على جمال عبد الناصر حرصه على تصدير الثورة إلى الخارج على حد تعبيرهم تغيب عن بالهم بعض الأمور الأساسية . أن هنالك نوعين من التصدير . التصدير بالمثل . بالنموذج . والتصدير بالدفع . بالقنبلة .

من الجائز أن الظروف فى اليمن لم تكن جاهزة موضوعياً لقيام الثورة . ومن الجائز أن مصر عندما تدخلت كان تدخلها بأكثر مما تحتاج إليه الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى اليمن . يعنى أنه بدلا من مواكبة التفاعلات الثورية حدث نوع من الاستعجال لإحداث هذه التفاعلات ... أو أن بعض هذه التفاعلات افتعل . جائز . ويمكن المحاسبة على هذا كله إنما بمنطق المواجهة الشاملة مع الاستعمار على جبهة عريضة من المحيط إلى الخليج .

صحيح أن عبد الناصر بقوته وهيبته فرض أراءه فى البداية بحيث أن قضايا كثيرة لم تناقش بالقدر الكافى ، لكن ذلك لا يعنى التجريح به . ولا بأس من المناقشة . وهذا ما يشير إليه الرئيس السادات .

إن الرئيس السادات يردد فى استمرار أنه مسؤول عن كل تصرفات الماضى

لأنه كان مشاركا ويناقش . والرئيس السادات هو المسؤول عن الناصرية وليس أحد آخر . لقد أعلن منذ البداية أنه جـاء على طريق عبد الناصر وهو المسؤول عن التجربة . ونحن لو أخذنا ورقة أكتوبر نجده يتكلم فيهاعن تحالف قوى الشعب العاملة . أما إذا كان هنالك البعض الذى يحاول شد التجربة فهذا طبيعى . إن فى العالم العربى قوى اجتماعية وسياسية معينة تحاول ضرب التجربة وتجسيم الأخطاء والسلبيات بهذا الغرض . ومن هنا المناقشة الموضوعية ضرورية . فى مثل هذه المناقشة تحدد الأخطاء والسلبيات على أن تقاس الأخطاء بنسبة الحسنات والسلبيات بنسبة الإيجابيات . وبعد المناقشة نسقط ما هو سلبى وخطأ ونعمق ما هو إيجابى . وبذلك تكمل التجربة مسيرتها .

وبالنسبة إلى ما يكتب فى الصحافة المصرية عن عبد الناصر والناصرية ، أرجو إعفائى من الجواب . إننى لا أريد الدخول فى الذى يكتب فى مصر عن هذا الموضوع .

إنما يكفينى ما يؤكده الرئيس السادات عن الناصرية كلما تكلم .

نعود إلى سؤالك ماذا بقى من عبد الناصر . بقى من عبد الناصر فكر وإنجازات وأخطاء . وتعالوا نناقش ونحاسب .

أما مسألة الوصية السياسية فلا أعتقد أن عبد الناصر ترك وصية . ربما لأنه لم يكن يتصور أن القدر سيكون سريعاً بالشكل الذى حدث وتنتهى حياته وهو فى الثالثة والخمسين .

وهو عندما عين السيد أنور السادات نائباً له كان بسبب معلومات وصلته ومفادها أن هنالك مؤامرة لاغتياله فى الرباط خلال مشاركته فى مؤتمر القمة العربى الخامس (ديسمبر — كانون الأول — ١٩٦٩) . والذى حدث أن الرئيس عبد الناصر استدعى السادات عند الفجر . وأقسم السادات اليمين . وبعد ذلك سافر عبد الناصر إلى الرباط . ونحن فى الطائرة روى لى الظروف والمعلومات التى وصلته عن مؤامرة لاغتياله .

لا أعتقد أن عبد الناصر ترك وصية . وصيته موجودة فى ممارساته . موجودة فى الميثاق . موجودة فى أقواله . موجودة فى أعماله . موجودة فى محاضر اجتماعات مجلس الوزراء . موجودة فى محاضر اجتماعات اللجنة التنفيذية العليا . موجودة فى محاضر المؤتمرات الدولية .

ليس هنالك وصية سياسية على ما أعتقد . أما الخزانة المقفل عليها ففيها بعض محاضر اجتماعات الضباط الأحرار وبعض محاضر اجتماعات مجلس قيادة الثورة

وبعض الأوراق الخاصة . وفيها رسائل كتبها عبد الناصر لزوجته عندما كان ضابطاً يحارب فى فلسطين أيضا . وفيها رسائل وصلته من زوجته رداً على رسائله .

أعود إلى مسألة الناصرية . إننى مطمئن إلى أن ما هو إيجابى فى الناصرية له قواعد فى مصر . والرئيس أنور السادات هو المسؤول عن هذه القواعد .

والجميع يذكرون أن الرئيس السادات عندما ذهب فى اليوم الأول من الولاية إلى مجلس الأمة ، وكان ذلك يوم ٧ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٠ قال : « لقد جئت إليكم على طريق جمال عبد الناصر . إننى أعتبر ترشيحكم لى توجيهاً بالسير على طريق عبد الناصر . وإذا أيدت جماهير شعبنا رأيها فى الاستفتاء العام بـ «نعم» فإننى سوف أعتبر ذلك أمراً بالسير على طريق جمال عبد الناصر الذى أعلن أمامكم بشرف إننى سأواصل السير فيه على أية حال ومن أى موقع . إننى جئت إلى هذا المجلس بوثيقة واحدة هى بيان ٣٠ مارس أودعها إياه وأمشى قائلا لكم : هذا برنامجه وهو برنامجى أيضا لأنه إرادة الشعب » .

ومرة أخرى إن جمال عبد الناصر لم يخترع جديداً . لقد جاء تعبيراً عن احتياجات الأمة العربية وعن احتياجات التطور فى مصر فى مرحلة معينة . والتطور مستمر .

وفى عملية التطور تحدث إضافات وتعديلات . ويحدث تصحيح . وبذلك تكمل المسيرة .

كتب للمؤلف

الحزب الشيوعي السوداني نحروه ام انتحر ؟	١٩٧١
اين أصبح عبد الناصر فى جمهورية السادات	١٩٧٢
روسيا الناصرية ومصر المصرية	١٩٧٢

التوزيع فى ج.م.ع.
إدارة التوزيع : مبنى مؤسسة الأهرام ـ شارع الجلاء ـ القاهرة
فى البلاد العربية :
الشركة الشرقية للنشر والتوزيع ـ بيروت ـ ص.ب. ١٥٥٧٤٥

الثمن : ١٠ ل. ل. فى الدول العربية

مطابع الاهرام التجارية
رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٥ / ٢٤١٥

